سلسلة أجمل الرّوايات العالمية

غوستاف فلوبير

مدام بوڤاري

إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي



مدام بوفاري

استوحى فلوبير من أحداث شتى ومن أشخاص حقيقيين ليؤلف هذه الرواية الواقعية، وقد كشف مؤلّفه هذا بنجاح الآلية الاستحواذية العائدة إلى الشهوة والجمال بأسلوب جيّد صريح، مستنداً في كل ذلك إلى توثيق قوي لإبراز الخيانة الزوجية دون حذف أي حقائق أو تفاصيل.

وقد بدا أن الحوارات والأوصاف والوقائع كانت ساذجة أحياناً، لكنها كانت من صلب الواقع المدقّق، تعطي انطباعاً حقيقياً. فقد كانت لدى المؤلف موهبة الدخول في أحاسيس الشخصيات لإظهار مشاعرهم بطريقة أفضل (عندما أكتب عن تسمّم «إيما بوفاري» أشعر في فمي بطعم الزرنيخ). ولا شك أن جمال هذا العمل الروائي يمتاز بالدقة ونباهة الكاتب وحس الدعابة لديه، وكل ذلك يجعل منه روائياً كبيراً وصل إلى درجة الكمال في الكتابة.


ISBN 9953-449-74-0



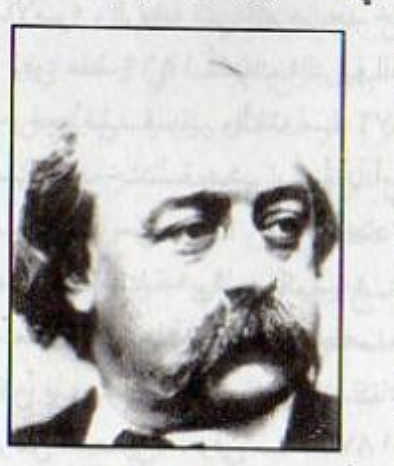
غوستاف فلوبير

١٨٢١ - ١٨٨٠

وُلد غوستاف فلوبير في روان (شمالي فرنسا) في الثالث عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٢١ . كان والده جرّاحاً يدير مستشفى (أوتيل ديو) في تلك المدينة . وقد عرف الصبي منذ طفولته رتابة الحياة الريفية حيث تذوّق دون شك طعم الملاحظة الدقيقة . وفي شهر شباط/ فبراير سنة ١٨٣٢ ، دخل الثانوية الملكية في «روان» حيث تكشّف عن موهبة كبيرة ولكن غير مُطيعة . وفي سنة ١٨٣٤ حرّر في جريدة «فن وارتقاء» ، حيث كان للأخبار المسرحية أهمية كبرى .

في خلال صيف سنة ١٨٣٦ ، التقى في «تروڤل» موريس شلزنجر ، وامرأته إليزا ، التي علق قلبه بحبها دون أمل . وقد كان هذا الحب نواة كتابه «التربية العاطفية» سنة ١٨٤٣ . ثم ابتدأ كتابة «مذكرات مجنون» سنة ١٨٣٨ . وفي السنة التالية كتب «حلم الجحيم واليد الحديدية» ، وفي الوقت نفسه نشر في مجلة أدبية «روانية» اسمها «الطنّان Colibri» ، مؤلفه الأول : «درس طبيعي» .

في سنة ١٨٤٠ انطلق غوستاف فلوبير في رحلة إلى جبال الپيرينيه وجزيرة كورسيكا . وفي السنة التالية التحق بكلية الحقوق في پاريس . وفي سنة ١٨٤٢ ، ولم يكن جاوز العشرين من عمره ، كتب «تشرين الثاني» . ولمّا فشل في امتحانات كلية الحقوق شرع في الطبعة الأولى لكتابه «التربية العاطفية» . وبينا كان في يوم من أيام سنة ١٨٤٤ ، على طريق «جسر الأسقف» ، أصيب بصدمة عصبيّة ، الأمر الذي دفع والده إلى منعه



غوستاف فلوبير

من إكمال دراسته ، وعاد به إلى «كرواسيه» قرب «روان» طلباً للراحة .

وكانت سنة ١٨٤٦ سنة حزن كبير فقد مات أبوه وأخته ، ومنذ ذلك الحين عاش مع أمه وحيداً . في هذه الفترة تعرّف إلى «لويز كوله» التي أصبحت عشيقته . ونزولاً عند رغبة الأطباء المعالجين ، بهدف شفائه من آلامه العصبية ، رحل فلوبير إلى البلاد الحارّة ، صحبة صديقه «مكسيم دوكامب» ، حيث زار الشرق سنة ١٨٤٩ ، فعرّج على مصر ، وسورية ، ولبنان ، والقدس ، ورودس ، والقسطنطينية ، وأثينا .

في سنة ١٨٥١ أنجز كتابه «إغراء القديس أنطونيوس» ، ثم رحل إلى إسبارطة وبيلوبونيز (في اليونان) ، وزار «پتراس» ، و«برينديزي» ، ونابولي ، وروما ، وفلورنسا . ودامت رحلته هذه نحو سنتين كاملتين . وفي سنة ١٨٥٤ قطع علاقته بـ«لويز كوله» نهائياً .

بعد سنتين من هذا التاريخ نُشرت «مدام بوفاري» في «مجلة باريس» والتي كان بدأ كتابتها سنة ١٨٥١ ، وهي الرواية التي لاقت نجاحاً كبيراً بسبب جرأتها وصراحتها ، ما جرّ على فلوبير انتقادات وملاحقات لما حوته من بعض المشاهد الإباحية . وفي السنة التالية صدر حكم ببراءته . وما عتّم فلوبير أن سافر سنة ١٨٥٨ إلى قُسنطينة ، تونس ، وقرطاج ، للعمل على كتابة «سالامبو» ، الرواية التي أنجزها بعد خمس سنين من سفره الأخير هذا .

وفي سنة ١٨٦٩ نُشرت «التربية العاطفية» ولكنها لم تلق إلاّ نجاحاً بسيطاً .

وحين فقد فلوبير والدته سنة ١٨٧٢ اشتدّت آلامه ، فقال متأثراً : «رأيت نفسي بعد خمسة عشر يوماً أنّ أمي المرأة الطيبة المسكينة هي الكائن الذي أحببت أكثر من غيره» . وما إن عاد بعد ذلك إلى «كرواسيه» حتى بدأ يفكّر بوضع خطّة كتابة «بوفار وپكوشيه» .

بعد سنتين على صدورها حصدت «إغراء القديس أنطونيوس» الخيبة . ولكنّ فلوبير ظلّ يكتب ، ولكنه كان يشعر بآلام الروماتيزم والنوراستينيا (المرض العصبي) . وفي سنة ١٨٧٧ ، استقر في «باريس» وأنهى «هيروديا» .

وفي خلال شتاء سنة ١٨٧٩ البارد القارس ، انتقل إلى «كرواسيه» من جديد ، حيث عكف على قراءة اختبارات «موپاسان» في مؤلفه «كرة الشحم» .

وفي الثامن من شهر أيار/ مايو سنة ١٨٨٠ توفي غوستاف فلوبير فجأة جرّاء نوبة قلبية ، قبل أن ينجز روايته «بوفار وپكوشيه» . ومن دارته شيّعه زولا ، غونكور ، دوديه ، بانفيل ، موپاسان ، كوپيه ، هيوسمان ، هنيك ، ألكسيس ، إلى مثواه الأخير في مقبرة أسرة فلوبير .

فلوبير الكاتب

لا يوجد كاتب أسير ذاته ووحدته مثل فلوبير(*) . لقد حاول عبثاً أن يكون سامياً غير مبال ، لكن جميع مؤلفاته تخون أمانيه ورغباته . وهذا لا يعبّر ، في تلك الحال ، عن تقلبات سخيفة ، بل عن إيحاءات من خلال مواضيعه المفضلة . هو نفسه يدعونا إلى أن نميز بين شخصيّتيه (. . . لقد اختلقت لعملي جزءين ، أحدهما في العالم الخارجي والآخر في أعماقي . . والأهم هو الناحية العملية ، أمّا ذاتي الباطنية فتتدفق من خلالها أنقى شعاعات النفس . .) . وليس فهم فلوبير بالعمل السهل ، على الكاتب ألاّ يترك من بعده سوى مؤلفاته . . وحياته الخاصة لا تعنينا كثيراً . ويدّعي فلوبير فوق ذلك أن الفن لا علاقة له بالفنان . . يجب أن نعمل جاهدين لإخفاء ذاتنا .

من هنا يظهر تجديد فلوبير ، إنه عمل مبهم يتربع المؤلف في وسطه دون أن يبدو رغم ذلك أنانياً . وهناك اختلاف آخر ، هو أن الأدب الفرنسي يجعل من واقعيته فناناً كبيراً . ولم يكن هناك في الواقع ما يزعجه أكثر من الكلمة والخيال . فهو يقول لـ«موپاسان» : لا تكلمني عن الواقعية والطبيعي أو الاختياري . ما هذه السخافات ! وتوضح رسالة له إلى جورج صاند هذا الشعور : إني أمقت ما يسمونه المذهب الواقعي رغم أني أحد زعمائه وروّاده . . وليس ثمة شك أن تصرّفاته قاسية تجاه سلالة تفتخر به ولا

(*) فلوبير ، فيكتور برومبير ، تعريب غالية شملي ، ص٥ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

تستميله . فالجماعات التي تهتم بالعلوم النظرية أكثر من المثل الفني الأعلى لا تستهويه مطلقاً .

إنّ غوستاف فلوبير يتمتع بوسائل تجعله يحتقر عالم الصحافة والانتصار السهل ، فالجدل تضييع وقت ، وكتابة البيانات والتصاريح دون مستواه . فالأديب ، كالممثل ، يجب أن يخاطب الجمهور رأساً . لماذا يتلف أعماله بالمقدمات إذاً؟ نظريات إميل زولا ، التي يقدّر قيمتها ومضمونها ، خذلته أيضاً . فهو يشكو من أفكاره السطحية ، ويتحامل على النظرية الفنية أكثر من تحامله على الدعاية ، وإذا كان مؤمناً بحقيقة واحدة فهي أولوية الفن على الحياة . وهو يصرّح بأن الواقع ليس شرطاً أساسياً في الفن ، بل إن مهمة الكاتب هي أن يتوق نحو الأجمل ، ولذلك يجب الاهتمام بعنصرين أبديين : الشعر والإنشاء .

على أن التفاصيل كما يقول لا تستدعي اهتمامه ، لأنه يعتبر التفاصيل التقنية والمعلومات المحلية وأخيراً الناحية التاريخية موضوعاً ثانوياً . فعندما كان يؤلف رواية «مدام بوفاري» اعترف لـ«لويز كوله» قائلاً : «أريد أن أنقل كل ما أرى ولكن ليس على حاله بل مختلفاً . فالإنشاء الصحيح هو أروع من واقع ، فكلمة «مختلفاً» هي الأهم في هذا الموضوع . ليس علينا أن ننقل الحقيقة ونظل عبيداً لها ، بل أن نمتلكها ونسيطر عليها . فتشويه الحقيقة هو في الواقع سبيل إلى رفضها» . وهكذا لا يجد فلوبير بتشاؤمه لذته في الحياة اليومية إلاّ لكي يهرب منها ، ليصبح الأدب في هذه الحال أداة للحرية وسبيلاً للنجاة . . «عندما لا أحمل كتاباً أو لا أرغب في أن أكتب . . يغمرني شعور كبير بالملل» .

يستوحي فلوبير معظم مؤلفاته من الواقع العادي ، حتى إنه يختلق الدمامة ، إنها الكراهية المحبّبة إلى الحقيقة ، ورغم ذلك لا يكف عن إظهار اشمئزازه واحتقاره لهذه الحقيقة الوضيعة التي تجذبه . لقد كتب إلى «لوران بيشا» رئيس تحرير مجلة كانت تنشر رواية «مدام بوفاري» في حلقات قائلاً :

«لو أنك تعرفني حق المعرفة لكنت علمت مدى كراهيتي للحياة العادية . يظنون أنني أعشق الواقع لكني أكرهه» . على أننا لا يمكن أن نعتبر تصرفه هذا بغضاً للواقع أو للمذهب الواقعي ، إذ علينا أن نميز بين هاتين الناحيتين . إنّ فلوبير يقيم ثمة مساواة بينهما ما يثير في ذاته توتراً دائماً ، فهو يتقيّد من جهة بالمواضيع كما في كتابه (في أثناء حكم نابليون الثالث) و(البورجوازيون في القرن التاسع عشر) ، ومن جهة ثانية يتحامل بشدة على المواضيع الواقعية تاركاً لأهوائه العنان . إنه تناقض وتباعد ليس فقط في المعطيات الفنية بل في المتطلبات البسيكولوجية أيضاً . فالفن يعني له الهروب من الحقيقة التي يجب الاعتراف بعبثها . وينبع كره فلوبير للواقع من طبعه التشاؤمي ، لكن هذا التشاؤم هو نقطة انطلاق للبحث المتواصل عن المثل العليا .

إنّ فكرة وجود شخصيّتين متناقضتين لـ«فلوبير» هي فكرة خاطئة ، فتارة يبدو بمظهر الرومانسي الذي ألّف «إغراء القديس أنطونيوس» وتارة يبدو كأنه الطبيب الذي يداوي نفسه بتأليف «مدام بوفاري» . وتبيّن نظرة عابرة على مراسلاته مدى غباوة هذا الانفصام . ليس هناك حواجز ثابتة ، ففي فترة تأليفه «مدام بوفاري» كان يشرح لـ«لويز كوله» أنه يتوق إلى المجاز والاستعارة . هو نفسه يشخص حالته وحبه للاستعارات «خُلقت فناناً غنائياً ، وكل ما هو طبيعي بالنسبة إليّ هو غير طبيعي عند الآخرين» .

فلوبير يعتقد أن جوهر الأدب يكمن في الشعر ، وهو مقتنع تماماً أن من واجب الكاتب أن يغوص في أعماق أسرار اللغة . وتعني الموهبة الأدبية صراعاً قائماً مع الكلمات ، وشغفاً للقافية الرنانة ، وسعياً لخلق عبارات وإيقاعات محسوسة . وتربطه المضادات العنيفة وولعه بالألوان ارتباطاً وثيقاً بالرومانسية التي لم ينكرها مطلقاً ، مشابهاً في ذلك «بودلير» الذي يفتخر بحمله جذور الرومانسية . وقد رغب فلوبير في أن يعتبر نفسه آخر الكتّاب الغنائيين ، هذه السلالة المبادة . والغنائية تعني في مفرداته الميل إلى الأوهام ، والحنين إلى المحظورات ، وقدرة فائقة للحماسة . إنه يهوى التأمل ، فبعد قراءة كتاب

«المُهْمَلة» لتورغنيف ، قال : كنت أهتف من شدة الفرح . ووصف فيكتور هوغو بالرجل العظيم . ولا يتوقف إعجابه عند هذا الحد بل يتعدّاه إلى إحساس مقدس بالخشوع ، فحينما يذكر «ترجيل» يقول : «عندما ننظر إلى العظماء وإلى الكمال كم نحتقر أنفسنا» . ويقول أيضاً : «يُخيّل إليّ أني إذا شاهدت شكسبير سأرتعد خوفاً» .

فلوبير يفضل اللامحدود دائماً ، ويتلذّذ بالرؤية العظيمة والصور الملحمية ، فهواجسه وتطلّعه إلى اللامحسوس تحلق به بعيداً إلى عالم يضج بالحركة رغم سكونه . كان متأثراً بـ«ساد» ومقتنعاً بوجود الحكمة حتى في الجشع . من هنا تولّد تعلقه بالمستحيل وتعطّشه الدائم . فالحب جنون ومرض . . لقد أمضى خمساً وعشرين سنة من عمره في حياة تقشف تعصف بها الأهواء الجسدية ، وكتابه «إغراء القديس أنطونيوس» هو خير مثال على ذلك ، يظهر تعطشه إلى الأزل بوضوح في أماني «إيما» الغريبة والحنين إلى المستحيل الذي يشلّ «فردريك مورو» عن الحركة ، والشغف إلى المعرفة في «بوفار وبكوشيه» ، ومع روايته «هيروديا» ابتدأ الصراع في نفسه ، صراع أعمى بين النظام والفوضى كانت نتيجته تفوق الأحلام والسكون .

إنّ أهم ما يميّز عبقرية فلوبير هو خياله . إنه خيال خليق حتى بالجنون وطبيعة الأمراض . فالمرض والألم والشعور بالفناء هي أهم أسس الفن . لم يشلّه التشاؤم والكآبة ويبعداه عن الإنتاج الوفير ، فمن الألم تنبع أسمى معاني الحياة ، وهو بحد ذاته سخاء وعطاء ، وإذا ما فقده الإنسان فقد قيمته . ولذا فإن نزعته التشاؤمية لا تقعده عن الحركة والنشاط ، بل هي تدفعه إلى الخلق الفني الراقي ، يجد من الفن نفسه التائهة وشفاءها السريع . تزخرمراسلاته بكثير من الأمثلة ، فقد كتب إلى «ألفرد لوبواتغان» يقول : «اعمل . . اكتب . . اكتب ما دمت قادراً على ذلك . . فنحن لا نشعر بثقل الحياة على عاهلنا ما دمنا نؤلف» . وبعد مرور ثلاثين عاماً وجه رسالة إلى «تورغنيف» جاء فيها : «لا يجب أن نهدأ أبداً ، ففي هذه اللحظة بالذات نفكر بأنفسنا أكثر

ونشعر بالمرض فعلاً . . فماذا هناك أرقى من الفن؟ إنه السبيل الوحيد للخلاص . . للكمال والتحرر» .

كان فلوبير يعمل ساعات طويلة متواصلة ويدعو الجميع إلى التمثّل به ، وإلى اللجوء إلى العمل والتأليف ، فبالعمل المجدي نتحدى الحياة والملل والفناء . إنه تحدٍّ يصل إلى درجة الكبرياء . والحق أن رسائله تحمل ثمار أفكاره ويشملها إحساس غريب ، إنها اللذة الأليمة التي يولدها الإبداع الفني . شرح لصاحبته لويز بإسهاب معاني الفن السامية : « . . حينما تجدين نفسك وحيدة في غرفتك ، أو تنظرين إلى اللهيب في الموقدة ، تشعرين أن لا شيء يدعمك ولا تعتمدين على أحد ، عندئذ تحت وهن المرأة تبعث فجأة إلـهة الشعر من أعماقك وتعزف لحناً حزيناً وفرحاً معاً يشبه لحن القتال ، لحناً يتحدى الحياة . .» .

من اللاشيء والعدم يحاول فلوبير أن يرتفع بمستوى تفكيره فيصبح العدم منبع إلهام ووحي عظيم . وتكمن روعة مؤلفات غوستاف فلوبير في تلك المتناقضات بين الواقعية والمثالية ، فهو يريد إظهار الحقيقة عارية مجردة من القيم ، وهو يعتقد أيضاً أن الجمال مثل النجوم لا يسقط من السماء .

مؤلفاته :

- ثلاث صفحات من دفتر تلميذ — 1831: Trois Pages d'un cahier d'écolier
- قصص ومقالات — 1835 - 1836: Narrations et discours
- عشق وفضيلة (قصة فلسفية) — 1837: Passion et vertu (conte philosophique)
- مذكرات مجنون ولويس الحادي عشر (دراما) — 1838: Les Mémoires d'un fou, et Loÿs XI (drame)
- سمار ، لغز قديم — 1839: Smarh, vieux mystère
- مذكرات ، ملاحظات وأفكار حميمة — 1840 - 1841: Souvenirs, notes et pensées intimes

ـ تشرين الثاني	1842: Novembre
ـ التربية العاطفية (الترجمة الأولى)	1845: L'Éducation sentimentale (1ère version)
ـ من خلال الحقول والرمال (وصف رحلة إلى بريطانيا)	1848: Par les champs et les grèves (Récit de voyage en Bretagne)
ـ إغراء القديس أنطونيوس (الترجمة الأولى)	1849: La Tentation de Saint Antoine (1ère version)
ـ مدام بوفاري	1857: Madame Bovary
ـ سالامبو	1862: Salammbô
ـ التربية العاطفية (الترجمة الثانية)	1869: L'Éducation sentimentale (2ème version)
ـ إغراء القديس أنطونيوس (الترجمة الثانية) والمرشّح	1874: La Tentation de Saint - Antoine (2ème version) et Le Candidat
ـ ثلاث قصص	1877: Trois Contes
ـ بوفار وبكوشيه (نُشرت بعد وفاته)	1881: Bouvard et Pécuchet
ـ رسائل (جُمعت بعد وفاته في كتاب)	1887 - 1905: Correspondances

مدام بوفاري :

«إيما روو» ابنة مزارع وزوجة شارل بوفاري (طبيب صحّة عامة) في مدينة توست في نورماندِيا . كانت تحلم بأن تتزوج في منتصف الليل على ضوء المشاعل ، ولكن كان عليها أن تقنع بزواج بسيط . وصادف أن دُعي الزوجان إلى حفل أقامه المركيز (فوبيسّار) في قصره . وهناك دخلت «إيما» أخيراً في العالم الذي لم تكن شاهدته إلاّ من خلال قراءاتها الرومانسية .



كانت ليلة لا تُنسى ! ولكنّ «إيما» لم تكن لتتحمّل عودتها إلى الحياة البائسة في بيتها إلى جوار زوج ليس لديه بسطة من عيش .

وفي أثناء أيام طويلة من الملل ، وقعت ضحية مرض عصابي ، فقرّر زوجها «شارل» أن ينتقل بها إلى مدينة «أيونفيل» ، حيث تعرّفت هناك إلى شخصيات محليّة : هوميه الصيدلي ، ليون كاتب موثّق العقود ، رودولف الخبّاز ، مالك وغنيّ . وبعد أسابيع من وضعها طفلة صغيرة ، عشقت رودولف بجنون وأرادت أن تهرب معه ، ولكنه ـ بسبب جبنه ـ تخلّى عنها واختفى . وما عتّم أن سقطت مريضة من جديد ولازمت فراشها . ولكي يسرّي زوجها عنها ، بعد إبلالها ، اصطحبها إلى المسرح في «روان» حيث عادت فالتقت ليون ، الذي كان أحبّها فيما مضى ، وسرعان ما أصبحت عشيقته .

بعد ذلك عاشت «إيما بوفاري» حياة كذب ونفاق وإنفاق وإسراف دون وعي ، ما دفعها إلى الاستدانة بعد أن رهنت جميع أملاك زوجها ، ولمّا وجدت نفسها في النهاية عاجزة عن سداد الدين انتحرت بتجرّعها الزرنيخ .

فلوبير ورائعته «مدام بوفاري»(*)

استوحى فلوبير من أحداث مختلفة ومن أشخاص حقيقيّين ليؤلّف هذه الرواية الواقعية . وهذا التحليل النفسي نجده في ملامح صورة والده الطبيب تحت صفات الدكتور لاريفيير . وقد كشف مؤلّفه هذا بنجاح الآلية الاستحواذية العائدة إلى الشهوة والجمال بأسلوب جيّد وصريح . وقد استند فلوبير في كل ذلك إلى توثيق قويّ لإبراز هذه الخيانة الزوجية دون حذف أية حقائق أو تفاصيل .

وقد بدا أنّ الحوارات والأوصاف والوقائع كانت ساذجة أحياناً ، لكنّها كانت من صلب الواقع المدقّق ، تعطي انطباعاً حقيقياً . فقد كان لدى المؤلف

(*) يُذكر هنا أن قضية رُفعت على فلوبير أمام محكمة جنح باريس ـ بعد نشر الرواية ـ برئاسة السيد دو بارل جلسة ٣١ كانون الثاني/ يناير و٧ شباط/ فبراير سنة ١٨٥٧ في الغرفة السادسة انتهت وقائعها ببرائته .

موهبة الدخول في أحاسيس الشخصيات لإبراز مشاعرهم بطريقة أفضل : «عندما أكتب عن تسمُّم إيما بوفاري أشعر في فمي بطعم الزرنيخ» . ولا شك أن جمال هذا العمل الروائي يمتاز بالدقّة ، ونباهة الكاتب ، وحس الدعابة لديه ، وكل ذلك يجعل من فلوبير روائياً كبيراً وصل إلى درجة الكمال في الكتابة - وهو أستاذ «غي دو موپاسان» - بحيث يمكننا القول إنه من أبدع كتّاب النثر الشعري ، حتى إننا إذا أردنا أن نتكلّم عن صناعة السينما - مع ما تركه لنا فلوبير من الروايات الواقعية - أمكن أن نقول إن هذه الرواية «مدام بوفاري» رواية كلاسيكية رائعة مشوّقة تصلح للإخراج السينمائي مراراً وتكراراً . إنّها رواية مؤثرة لمن يحب العبارات الشيّقة والجَهْوريّة المستساغة .

«مدام بوفاري» اقتباس مسرحي سينمائي ، وتلفزيوني

أولاً : في المسرح(•) :

1) THÉÂTRE

1.1) **1936** Gaston Baty, *Madame Bovary*







DISTRIBUTION (par ordre d'entrée en scène):

Homais: HENRI BEAULIEU; Mme Le François: JEANNE PÉREZ; Hippolyte: PAUL DELON; Binet: PIERRE GEAY; l'Abbé Bournisien: GIL COLAS; Léon: LUCIEN NAT; La Servante: DENISE KERNY; Lheureux: MARTIAL RÈBE; Charles Bovary: GEORGES VITRAY; Félicité: SUZANNE DEMARS; Emma Bovary: MARGUERITE JAMOIS; Mme Homais: MARGUERITE COUTAN-LAMBERT; Justin: ROBERT LYNEN; Les Belles: YONNIE DUBOIS, HÉLÈNE FAX, DENISE KERNY, MARIE DÉA, BENEDICTA NIL; Mme Caron: LILY LOURIOTY; Rodolphe: ROLLA-NORMAN; Girard: LÉON DUVELLEROY.

(•) رأينا أن نبقي على النص في لغته الأصلية - دون تعريب - حفاظاً على تهجئة الأسماء وترتيبها كما وردت .

Vingt tableaux: **PREMIÈRE PARTIE**: LE LION D'OR (mars 1840); LA GRAND-RUE D'YONVILLE; SALON DES HOMAIS; SALLE CHEZ LES BOVARY (avril 1840); DEVANT L'ÉGLISE (mai 1840); SALLE CHEZ LES BOVARY (juin 1840). **DEUXIÈME PARTIE**: LA PHARMACIE (septembre 1840); LA PLACE; CHAMBRE D' EMMA (octobre 1840); LA HUCHETTE (janvier 1841); LA PHARMACIE; LE JARDIN (mai 1841); JUILLET (1841). **TROISIÈME PARTIE**: THÉÂTRE DE ROUEN (avril 1842); HÔTEL DES EMPEREURS (mai 1842); LE JARDIN (août 1842); HÔTEL DES EMPEREURS (mars 1843); CHEZ LHEUREUX; LE JARDIN; LA CHAMBRE ET AU DELÀ.

1.2) **2003** Fay Weldon, *Madame Bovary, Breakfast with Emma*
Madame Bovary, Breakfast with Emma, adaptation par Fay Weldon, jouée à Londres du 26 septembre au 4 octobre 2003. L'ouvrage existe en anglais, mais n'a pas encore été traduit en français. Trois sites présentant l'adaptation:
http://www.bbc.co.uk/oxford/stage/2003/09/review_madame_bovary_breakfast.shtml
http://www.dailyinfo.co.uk/reviews/theatre/MB.htm
http://www.britishtheatreguide.info/reviews/mbovary-rev.htm

ثانياً في السينما

2) CINÉMA

2.1) Adaptations

2.1.1) **1932** [illegible]

2.1.2) **1933** Madame Bovary, film français de Jean Renoir

Avec Valentine Tessier, Max Dearly, Pierre Renoir, Alice Tissot, Daniel Lecourtois, Robert Le Vigan, Pierre Larquey. 1h 41.

Une adaptation sage des célèbres amours de la belle Emma.



2.1.3) **1949** Madame Bovary, film américain de Minnelli







Film américain de Vincente Minnelli (1949). Scénario Robert Ardrey, d'après le roman de Gustave Flaubert. [illegible] **Jennifer Jones**: Emma Bovary. **James Mason**: Gustave Flaubert. **Van Heflin**: Charles Bovary. **Louis Jourdan**: Rodolphe Boulanger. **Christopher Kent**: Léon Dupuis. **Gene Lockhart**: M. Homais. **Frank Allenby**: Lheureux. **Gladys Cooper**: madame Dupuis.

2.1.4) **1990** Madame Bovary, film français de Claude Chabrol
Fiche technique. D'après le roman de Gustave Flaubert. Adaptation et dialogues: Claude Chabrol. Images: Jean Rabier. Décors: Michèle Abbé. Montage: Monique Fardoulis. Musique: Matthieu Chabrol. Musique additionnelle: [illegible]. 137 mn.
Isabelle Huppert: Emma Bovary. **Jean-François Balmer**: Charles Bovary. **Christophe Malavoy**: Rodolphe Boulanger. **Jean Yanne**: M. Homais. **Lucas Belvaux**: Léon Dupuis. **Christiane Minazzoli**: la veuve Lefrançois. **Jean-Louis Maury**: Lheureux. **Florent Gibassier**: Hippolyte. **Jean-Claude Bouillaud**: le père Rouault. **Sabeline Campo**: Félicité. **Yves Verhoeven**: Justin. **Marie Mergey**: mère Bovary. **Dominique Clément**: Mme Homais.



2.2) Films inspirés de / faisant référence à ...

2.2.1) **1993** *Le Val Abraham*, film portugo-franco-suisse de Manoel de Oliveira
Scénario M. de Oliveira, d'après Agustina Bessa-Luis. Images: Mario Barroso. Musique Beethoven, Chopin, Debussy, Fauré, Schumann et Coleman Hawkins.
Leonor Silveira: Ema. **Cecile Sanz de Alba**: Ema jeune. **Luis Miguel Cintra**: Carlos de Paiva. **Ruy de Carvalho**: Paulino Cardeano. **Luis Lima Barreto**: Pedro Lumiares.

2.2.3) **1994** *Une femme française*, film français de Régis Wargnier
Scénario: Régis Wargnier. Musique: Patrick Doyle. Avec Emmanuelle Béart (Jeanne), Daniel Auteuil (Louis), **Gabriel Barylli** (Mathias), Jean-Claude Brialy (Arnoult). Durée: 1h 39mn.

3) TÉLÉVISION

Adaptation et dialogues de Georges Neveux.
Emma Bovary: Nicole Courcel; Charles Bovary: Jean Bousel; Léon Dupuis: André Dussollier; Rodolphe Boulanger: Claude Giraud; Homais: Marcel Cuvelier; Mme Bovary mère: Renée Faure;



L'heureux: Alain Noble. Avec Bernard Alloof, Françoise Bellard, Fernand Berset, Dominique Dagunje, Nicole Desailly, Claude Dujot, Yves Elliot, Lucien Frégis, Jeanne Herdeyn, Christian Kester, Liliane Léotard, Thérèse Quentin, Isabelle Sadoyan, Yvon Sarray, Jacques Seiler, Ralph Soath, Jacques Serting, Ida Touchard et Jacob Weizbluth.

شخصيات الرواية :

شارل بوفاري : زوج إيما (طبيب صحة عامة)

إيما بوفاري : ابنة المزارع «روو» وزوجة الطبيب

هوميه : الصيدلي

ليون : كاتب موثق العقود

رودولف : خبّاز (ملاّك وثري)

بيرت : ابنة شارل وإيما بوفاري

فيليسيته : وصيفة إيما

جوستان : مساعد الصيدلي

كانيفيه ولاريفيير : طبيبان

إهداء

إلى

ماري أنطوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق

للجمعية الوطنية ، والوزير السابق للداخلية

أيها الصديق العزيز النابه :

اسمح لي بأن أسجل اسمك في صدر هذا الكتاب ، وأن أتوج به الإهداء ، إذ إنني مدين لك ـ قبل أي إنسان آخر ـ بنشره . فبفضل دفاعك المجيد اكتسب كتابي هذا في نظري الخاص من الأهمية فوق ما كنت أرجو وأتوقع ...

فتقبّل هنا تحية اعترافي بالجميل .. تحية لن تبلغ قط ـ مهما تكن ـ مستوى بلاغتك وإخلاصك .

غوستاف فلوبير

باريس في ١٢ أبريل سنة ١٨٥٧

القسم الأول

- ١ -

كنا صباح يوم في غرفة الدراسة ، عندما دخل علينا الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي ، وخادم يحمل محفظة كبيرة ، فاستيقظ من كان نائماً ، وانتصب كل منا واقفاً ، وكأنه فوجئ على حين غفلة برقيب يطّلع على عمله !

وأشار إلينا الناظر بالعودة إلى الجلوس ، ثم التفت إلى المدرس قائلاً في صوت خفيض : «مسيو روجيه . . هذا تلميذ جديد أوصيك به . لقد التحق بدروس السنة الخامسة ، ولكن إذا بدا تحصيله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل إلى الصفوف العليا التي تناسب سنه» .

وهناك في الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يُرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقاً ريفياً في نحو الخامسة عشرة من عمره ، أطول قامة منا جميعاً . وكان شعره منسقاً ومستوياً فوق جبهته ، كمغني القرية ، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك . وبالرغم من أنه لم يكن عريض المنكبين ، فإن سترته الخضراء ، ذات الأزرار السوداء ، كانت تحدّ من حركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين بدا أنهما ألفا العري . . كما كانت قدماه ـ اللتان يكسوهما جوربان أزرقان ـ تبرزان من بنطلون أصفر ، تشده الحمالة شداً قوياً . . وفي طرفيهما فردتا حذاء سيّئتا التلميع ، تنتشر فيهما المسامير بكثرة ملحوظة .

وبدأ المدرس اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فأخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكل جوارحه ، وكأنه يصغي إلى موعظة في الكنيسة ، دون أن يجسر حتى على أن يضع ساقاً على ساق ، أو أن يتكئ بمرفقيه على المحفظة ! . . وعندما دق الجرس في الساعة الثانية ، اضطر المدرس إلى أن ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف !

وكان من عادتنا ، إذا ما دخلنا غرفة الدرس ، أن نلقي بقلانسنا أرضاً ، كي تتحرر أيدينا لأداء الصلاة . . فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها ترتطم بالحائط فتثير كثيراً من الغبار . . وكانت هذه الحركة من «الأصول المرعية» التي نتباهى بها !

غير أن التلميذ الجديد لم يلحظ هذه الحركة ، أو لعله لمحها ولكنه لم يجرؤ على القيام بها . . فانتهت الصلاة وقلنسوته لا تزال على ركبتيه . وكانت في الحقيقة قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين «الطاقية» ذات الوبر ، و«اللبدة» ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية ! . . وبالجملة ، كانت من تلك القلانس المزرية التي يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله ! . . كانت بيضوية ، يرفع جوانبها هيكل مضلّع في داخلها يكسبها الشكل المتنفخ ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة ، تليها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل «المعيّن» الهندسي ، يفصل بينها شريط أحمر . . ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس ، ينتهي بقطعة من الورق المقوّى متعددة الأضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة معقدة الأشكال ، ويتدلى منها حبل طويل رفيع جداً ، في نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه «الشرابة» ! . . كانت قلنسوة من طراز جديد ذات حافة براقة !

وقال المدرس للفتى : «قف !» فوقف . وسقطت القلنسوة عن ركبتيه ، فانفجر التلاميذ جميعاً ضاحكين ، بينما انحنى هو فالتقطها ، ولكن جاره أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه ، فعاد الفتى إلى التقاطها من جديد . وكان المدرس حاضر النكتة ، فقال له : «تخلص يا فتى من خوذتك !» .

وانطلق التلاميذ إذذاك في ثورة من الضحك المجلجل ، ما أربك الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدري أيحتفظ بقلنسوته في يده ، أم يلقيها على الأرض ، أم يضعها على رأسه . . وأخيراً ، جلس ووضعها على ركبتيه .

وعاد المدرس يقول له : «قف . . ما اسمك؟» . . وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم ، فهتف المدرس : «أعد !» . . وكرّر التلميذ المقاطع ذاتها في

تمتمة طغت عليها قهقهة زملائه جميعاً . . فصاح المدرس : «ارفع صوتك ! . . ارفع صوتك !» .

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وفغر فاهاً مترامي الأبعاد ، وعبأ رئتيه بالهواء ثم قذف باسم «شار بوفاري» وكأنه ينادي شخصاً !

وانفجر التلاميذ من جديد في ضجيج صاخب ، حاد ، مضطرد . . فأخذوا يصيحون ، وينبحون ، ويدقون الأرض بأقدامهم مرددين : «شار بوفاري . . شار بوفاري !» ، في نغمات مسترسلة ، لم تكن تهدأ ـ بعد مشقة بالغة ـ إلا لتعود في ناحية من غرفة الدراسة ، أو في صف بأكمله من صفوف التلاميذ ، تتخللها ـ هنا وهناك ـ ضحكة مكتومة ، كقذيفة لم تخمد بعد تماماً . .

وأخيراً ، عاد الهدوء إلى غرفة الدراسة شيئاً فشيئاً ، بعد وابل من العقاب ، وتمكن المدرس من التقاط اسم «شارل بوفاري» ، بعد أن طلب إلى صاحبه أن يوضحه كتابة ، وهجاء ، وتلاوة ! . . ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على «مقعد الكسالى» تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبنا يتحرك . بيد أنه تردد قبل أن يبرح مكانه ، فسأله المدرس : «عمّ تبحث؟» . وأجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة : «قلنسو . .» ! . . ولم يتم كلمته ، إذ انفجرت عاصفة الضحك من جديد ، فصاح المدرس في غضب هادر : «على كل منكم أن ينسخ خمسمائة بيت من الشعر» . وكانت صرخته أشبه بصيحة «نبتون» ـ إله البحار ـ التي أطلقها متوعداً الرياح إذ ثارت دون أمر منه ، على ما جاء في الأساطير ! . . وما لبث أن أضاف وهو يجفف عرق جبينه بمنديل أخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل : «كفى ! . . الزموا الصمت !» . . ثم التفت إلى التلميذ الجديد قائلاً : «أمّا أنت ، فعليك أن تنسخ لي عبارة «أنا مضحك» عشرين مرة . . ثم أردف في صوت أكثر رقة : «سوف نجد قلنسوتك ، فإن أحداً لم يسرقها» ! .

وعاد كل شيء إلى هدوئه ، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق المناضد ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين في جلسة مثالية ، وإن أخذت تنطلق ـ بين وقت

وآخر ـ كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه ، فكان يمسح المداد بيده ، ويستأنف جلسته دون حراك ، وهو منكس البصر !

وفي غرفة الاستذكار ـ في المساء ـ أخرج من درجه الكمّين الأسودين ، اللذين يُلبسان لحفظ كمي السترة وقت العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وأنجز في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله في إخلاص ، باحثاً في القاموس عن جميع الكلمات ، غير مدّخر جهداً . ولا شك أن هذه الإرادة الطيبة هي التي حالت دون نقله إلى فرقة دراسية أدنى من التي ألحق بها ! . . ومع أنه كان ملماً بقواعد اللغة إلى حد ما ، إلا أنه لم يؤت طلاقة التعبير ، فقد كان قس قريته هو الذي بدأ تلقينه اللاتينية ، إذ أرجأ أهله إرساله إلى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصاداً منهم للنفقات !

كان أبوه «شارل دنيس بارتلومي بوفاري» في السابق مساعد جراح في الجيش ، تورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة ١٨١٢ ، واضطر إلى ترك الخدمة . بيد أنه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية ، فظفر بصداق ـ «دوطة» ـ قدره ستون ألفاً من الفرنكات ، حملته إليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت وسامته ! . . فقد كان فارع القوام ، يحسن التهريج والشنشنة بمهمازيه ، وقد أرسل لحية متصلة بشاربيه ، واعتاد أن يزين أصابعه دائماً بالخواتم ، وأن يتخير لملابسه الألوان الصارخة ! . . وكان له مظهر الرجل الشجاع ، مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش ـ بعد الزواج ـ عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغذاء الطيب ، ويستيقظ متأخراً ، ويدخن في غلايين كبيرة من الخزف ، ويتردد على المقاهي ، ولا يعود إلى منزله في كل مساء إلا بعد أن تغلق المقاهي أبوابها . حتى إذا مات والد زوجته ، أحنقه أن الرجل لم يخلف ثروة تذكر ، فحاول أن يدير المصنع من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فآثر الانسحاب إلى الريف حيث حاول أن يعمل في الإنتاج الزراعي . . غير أنه لم يكن أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة . . فلم يلبث أن تبين أن من الخير له أن يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال .

واستطاع أن يجد في إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتي (كو) و(بيكاردي) ، مسكناً ـ يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة ـ مقابل مائتي فرنك في العام ، فاحتبس فيه نفسه مذ كان في الخامسة والأربعين من عمره ، وقد استبد به الغم ، وأخذ ينهشه الندم ، وراح يسب القدر ، ويحسد البشر ، ويعلن أنه قد سئم الناس أجمعين . . وقرر أن يعيش في هدوء عيشة المتنسكين !

وكانت زوجته في البداية مدلهة في هواه ، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفوراً ، وتحملت أشد الآلام في بادئ الأمر ، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود إليها في المساء وريح الخمر تهب منه ! . . فلما ثارت كبرياؤها ، لم تملك سوى أن تكتم الغضب في صدرها ، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفي لازمها حتى الموت !

وعندما أنجبت طفلاً ، اضطرت إلى أن تعهد به إلى مرضعة . . حتى إذا عاد «الوليد» إلى أبويه ، أسرفا في تدليله كما لو كان أميراً ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربّى . . وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين ، ويتعلل ـ متفلسفاً ـ بأن طفله غير قادر على أن يظل عارياً كصغار الحيوانات ! . . وكان الأب ـ على العكس من اتجاهات الأم ـ يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي أن تكون عليه رجولة الطفل ، فحاول ـ لتحقيقها ـ أن ينشئ ابنه نشأة خشنة على غرار الطريقة «الإسبرطية» . . فكان يرسل الطفل إلى الفراش دون نار تدفئ حجرته ، ليقوي بنيته ! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من «الروم» ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية ! . . بيد أن الطفل كان هادئاً بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات الأبوية .

وكانت أمه تجره خلفها دائماً ، وتصنع له من الورق المقوى لعباً ، وتروي له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح والتهليل بالكآبة والمناجاة والتدليل . وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها مع ولدها ، صبت في مخيلة الطفل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع في أن ترضي به كبرياءها المحطمة . كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتتصوره

وقد كبر ، وغدا وسيماً ، حاضر البديهة ، متربعاً في أحد مناصب مصلحة الطرق والجسور ، أو في أحد مراكز القضاء . ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته أغنيتين ، أو ثلاثاً ، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم لديها .

على أن السيد «بوفاري» ، لم يكن يحفل كثيراً بالثقافة ، فلم ير في كل هذه الجهود شيئاً ذا قيمة . . كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما إذا كان سيقدّر لهما يوماً أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل في مدارس الحكومة ، أو ما يمكّنهما من أن يبتاعا له مكتباً أو متجراً . وكان ـ فوق ذلك ـ يعتقد أن الإنسان يستطيع أن ينجح في الحياة . . بالصفاقة ! . . أمّا السيدة «بوفاري» فكانت تعض شفتيها حنقاً ، وهي ترى ابنها يتسكع في القرية . . إذ كان يحلو للطفل أن يتبع المزارعين في حرثهم ، وأن يطارد الغربان بالحصى ، وأن يقتطف التوت من فوق الأشجار ، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتولى في أوقات الحصاد تقليب الحزم لتجف ، ويرتع في الغابة ، ويلعب «الحجلة» في فناء الكنيسة في الأيام المطيرة ! . . وكان يتوسل إلى خادم الكنيسة ليتركه يقرع الأجراس في الأعياد الكبيرة ، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم ، ويروح ينعم بالاحساس بنفسه محمولاً على الهواء والحبل يتأرجح به !

وهكذا نشأ الصبي نشأة طبيعية ، تماماً كشجرة البلّوط . . فأوتي ساعدين قويين ، ولوناً بديعاً !

وحين بلغ الثانية عشرة من عمره ، ألحت أمه في أن يبدأ دراسته ، فتعهده قس القرية ، غير أن الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير . . فقد كان القس يلقنه الدروس في مخزن الكنيسة ، كلّما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز ! . . وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه . . بل إن القس كان يرسل في استدعاء تلميذه ـ في بعض الأيام ـ عقب فراغه من صلاة الغروب ، إذ لم يكن لديه ما يدعوه إلى الخروج . . فكانا يصعدان إلى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل . . وكان الجو الحار يغري الصبي

بالنوم ، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه ، فلا يلبث أن ينبعث الغطيط من فمه المفتوح ! . . كذلك كان القس في أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى في قرية مجاورة يلتقي أحياناً بشارل الصغير وهو يتسكع في الحقول ، فيدعوه إليه ، ويقضي ربع ساعة في وعظه تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذي كلّفه باستذكاره . . وكثيراً ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر ، أو مرور أحد المعارف . وكان القس ـ بعد ذلك ـ يبدي رضاءه عن الصبي . . بل إنه كان يقول إن له ذاكرة قوية !

ولم يكن لشارل أن يكتفي بهذا القدر من الدراسة المتقطعة ، إذ كانت أمه عنيدة في إصرارها على تعليمه . . ولم يشأ الوالد أن يقاوم ، إذ غلبه الخزي ، أو ـ بالأحرى ـ التعب . ولكنهما تريثا عاماً آخر ، ريثما يتاح للصبي أن يتناول «القربان المقدس» الأول في حياته . وما إن انقضت ستة أشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائياً إرساله إلى مدرسة (روان) ، وصحبه أبوه بنفسه في أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر ، إبان موسم «القديس رومان» .

•

لا يمكن لأحد منا أن يتذكر الآن شيئاً عن «شارل بوفاري» . . غير أنه كان عادي المزاج والطباع ، يلعب في فترات الفراغ ، ويستذكر في الغرفة المخصصة لذلك ، ويصغي بانتباه في غرفة الدرس ، ويأكل في قاعة الطعام ، وينام في «العنبر» . . شأن أي تلميذ آخر ! . . وكان وليّ أمره في (روان) تاجراً يبيع الحديد والخردة بالجملة ، في شارع (جانتيري) . وقد اعتاد أن يسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحد من أيام الآحاد في كل شهر ، فكان يفد ـ بعد أن يغلق متجره ـ ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن الراسية في الميناء ، ثم يعود به إلى المدرسة في الساعة السابعة ، قبيل موعد العشاء . وفي مساء كل يوم خميس ، كان الصبي يكتب لأمه خطاباً طويلاً بالمداد الأحمر ، يغلقه جيداً ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ في كتاب قديم ـ عن رحلة «آنا كارسيس» ـ يعثر به مهملاً في غرفة الدرس . كما كان يحلو له في أثناء

أوقات الفراغ أن يتحدث إلى الخادم الذي كان من أبناء الريف مثله !

وقد استطاع بفضل اجتهاده أن يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ صفه . بل إنه وفّق مرة إلى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي . بيد أن والديه ما لبثا أن انتزعاه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد في السنة الثالثة ، ليحملاه على دراسة الطب فقط ، إذ كانا يؤمنان بقدرته على أن يستكمل دراسته دون معونة من أحد !

ومن ثمّ اختارت له أمه غرفة في الطابق الرابع من منزل يطل على نهر (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة . وبعد أن دبرت أمر إقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل في منضدة ومقعدين ، كما أحضرت له من دارها سريراً قديماً من خشب الكريز ، وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين ! . . ثم رحلت في نهاية الأسبوع ، بعد أن أزجت إليه مئات الوصايا بأن يحسن السلوك ، بعد أن غدا طليقاً دون رقيب .

ولكن «شارل» كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الإعلان . . كانت هناك دروس في التشريح ، ودروس في علم الأمراض (الباثالوجيا) ، ودروس في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، ودروس في الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس في الكيمياء . . وفي النبات . . وفي التشخيص ، والعلاج . . عدا علم الصحة ، وعلم الطب . . . أسماء شتى كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعاً ، فبدت له حينها كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

وهو لم يفهم من هذه الدروس شيئاً ! . . بل إنه لم يستطع ـ رغم إصغائه في انتباه تام ـ أن يفقه لها معنى ! . وكانت لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد ، ولم يتخلف يوماً عن الطواف بأسرّة المرضى في المستشفى . . كما كان يؤدي واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة ، إذ يدور في مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يسخّر لطحنها شيئاً !

وكانت أمه ترسل إليه في كل أسبوع قطعة من اللحم المشوي ، فكان يتناول منها غداءه ـ إذا ما عاد من المستشفى ـ وهو جالس ينقر الحائط بحذائه . . ثم لا يلبث أن يعود إلى الدروس في قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى ، حتى إذا أفل النهار ، عاد إلى غرفته سالكاً الطريق الطويل عبر البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل ، ثم يصعد إلى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام نار المدفأة ، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة . .

وفي أمسيات الصيف الجميلة ، حين كانت الطرقات الحارة تقفر من المارة ، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين أمام الدور ، كان «شارل» يفتح نافذته ، ويتكئ بمرفقيه على حافتها ، ليطل على النهر ، الذي يجعل من هذا الحي من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة ، متواضعة . وكان النهر ينساب تحت بصره بين القناطر والأسوار ، تنعكس على صفحته الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء . . وقد جثا العمال على حافته يغسلون أذرعهم بمائه . .

وأخذ جسمه ينحل ، وقده يستطيل . . واكتسى وجهه وجوماً ساجياً أضفى عليه مسحة من الجاذبية ! . . وبدأت حماسته للدرس تفتر ، فكان من الطبيعي أن يتحلل من العهود التي قطعها على نفسه . . وكان أن تقاعس يوماً عن المرور لتفقّد المرضى بالمستشفى . . وفي اليوم التالي تخلّف عن إحدى المحاضرات . . وشيئاً فشيئاً ، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر إلى الانقطاع عن الدروس نهائياً ! . . وأدمن ارتياد المقاهي ، وشغف بلعب «الدومينو» . . وخُيّل إليه أن في احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ، في حانة قذرة ، حيث يقرع رخام المناضد بقطع «الدومينو» المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء . . خيل إليه أن في هذا العمل مظهراً للحرية يرفع من تقديره لنفسه ! . . كان هذا ـ في نظره ـ مقدمة للحياة الدنيا ، وسبيلاً إلى اللذات المحظورة ! . . فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب ـ بعد عودته إلى غرفته في المساء ـ بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية .

وتفتحت نفسه عن رغبات كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن ظهر قلب

بعض الأغنيات التي كان يستقبل بها الزائرات ، وتحمس لبيرانجيه ، مؤلف الأشعار الغنائية . . وتعلّم كيف يمزج أنواع الكحول . . وأخيراً ، عرف الحب ونسي الطب !

وبفضل تلبية الرغبات المحظورة ، كان رسوبه في الامتحان شنيعاً ، بينما كان والداه يترقبان عودته مكللاً بالنجاح في دارهما ليحتفلا به !

*

عاد «شارل» يجرّر أذيال الفشل ، حتى إذا بلغ مدخل القرية ، توقف وأرسل في طلب أمه ، وقصّ عليها ما أصابه . فالتمست له الأعذار ، وعزت رسوبه إلى ظلم الممتحنين ، وأولته بعض التشجيع ، آخذه على عاتقها تدبير الأمور ! . . ولم يعلم السيد «بوفاري» بالحقيقة إلا بعد خمس سنوات . . وكانت قد فقدت جدتها ، فتقبّلها في تسليم ، وإن لم يتصور أن من الممكن أن يكون في سلالته ابن فاشل !

على أن «شارل» تحوّل إلى الجدّ مرة أخرى ، فأقبل يراجع دروسه دون توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة لا بأس بها . . وما كان أسعد أمه يوم نجاحه ! . . فلقد أولمت في ذلك اليوم وليمة كبيرة !

والآن . . وبعد أن أصبح ابنها طبيباً . . ترى أين يباشر مهنته؟ . . أفي (توست)؟ . . لقد كان هناك طبيب طاعن في السن تتوقع مدام «بوفاري» موته منذ أمد طويل ، فلم يتريث «شارل» حتى يودع الشيخ الحياة ، بل استقر في مواجهته كخليفة له !

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب ، واتخاذ (توست) مقراً يزاول فيه مهنته . . إذ كان لا بد له من امرأة ! . . ووجدت له أمه الزوجة المنشودة . . أرملة أحد محضري (دوبيك) . . لها من العمر خمس وأربعون سنة ، ومن الدخل ألف ومائتا فرنك !

ومع أن مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد ، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم في الأشجار في فصل الربيع ، إلا أن فرص اختيار

الزوج كانت واسعة أمامها ، ما حدا بالأم «بوفاري» إلى أن تجاهد كي تتغلب على الساعين للفوز بطلب يدها ! . . وبالفعل ، استطاعت أن تحبط ألاعيب قصّاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان «شارل» يخال أن الزواج سيمكنه من تحسين حاله ، فيغدو أكثر حرية وقدرة على التصرف في شؤونه الشخصية والمالية ، غير أن زوجته لم تلبث أن غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملي عليه ما ينبغي أن يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله ! . . وفرضت عليه أن يصوم أيام الجمعة ، وأن يرتدي من الثياب ما تحب هي . . وأن يلح في مطالبة العملاء الذين لا يدفعون أتعاباً ! . . بل إنها كانت تفتح خطاباته ، وتراقب حركاته ، وتسترق السمع خلال ثقوب الباب ، إذا ما حضرت بعض السيدات إلى العيادة !

إلى كل هذا ، كانت في حاجة إلى كوب من «الكاكاو» كل صباح ، وإلى أنواع من الرعاية لا حصر لها . . وكانت دائمة الشكوى من أعصابها ، وصدرها ، ومفاصلها ! . . يؤذيها وقع الأقدام . . وتثقل عليها الوحدة إذا غادرها . . فإذا سعى أحد إلى جوارها ، ظنت أنه لم يأت إلا ليشهد احتضارها ! . . وكانت إذا ما عاد «شارل» في المساء ، تخرج ذراعيها العجفاوين من تحت أغطية الفراش لتطوق رقبته . . وما إن يجلس على حافة السرير ، حى تنطلق تبث همومها : فهو ينساها ، ويحب غيرها ! . . ولقد تنبأوا لها بأنها ستشفى ! . . ثم تنتهي من فيض الهموم والهواجس إلى أن تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتها . . وقدراً أكبر من الحب !!

- ٢ -

في إحدى الليالي ، حوالى الساعة الحادية عشرة ، استيقظ «شارل» وزوجته وخادمتهما على وقع حوافر جواد مسرع ، لم يلبث أن توقف أمام باب دارتهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثاً قصيراً مع رجل كان يقف تحت النافذة . . وإذ أنبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب ، وأنه يحمل

رسالة إليه ، هبطت درجات السلم وهي ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج واحداً تلو الآخر .

عقل الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحماً المخدع دون انتظار ، ثم أخرج من قلنسوته الصوفية ذات «الشرابات» الرمادية ، رسالة ملفوفة في طيّات قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب إلى «شارل» الذي اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقرأها ، بينما وقفت «نستازي» ـ الخادم ـ إلى جوار السرير تحمل المصباح . . ودفع الحياء زوجة الطبيب إلى أن تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها إليهم . .

تضمّنت الرسالة ـ التي كانت مغلقة بخاتم صغير من الشمع الأزرق ـ رجاء ضارعاً إلى السيد «بوفاري» كي يبادر فوراً إلى مزرعة (برتو) ليجبر ساقاً مكسورة . . وكانت المسافة بين (توست) و(برتو) تزيد على ستة فراسخ ، في طريق زراعي تمر بكل من (لونغفيل) و(سانتا فيكتور) . . وكان الليل حالكاً ، والسيدة الزوجة تخشى أن يحل بزوجها أي مكروه . لذلك استقر الرأي على أن يعود الرسول ، ثم يتبعه «شارل» بعد ثلاث ساعات ـ حين يشرق القمر ـ على أن يوفد الرجل غلاماً للقائه فيرشده إلى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً ، بدأ «شارل» رحلته إلى (برتو) ، متدثّراً بمعطفه . ولم يكن قد تخلّص تماماً من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة مُرَجرِجة . . حتى إذا توقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك ـ التي كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع ـ تنبّه من إغفائه منتفضاً ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ في استعراض جميع أنواع الكسور التي عرفها وخبر جبرها .

وما لبث المطر أن كفّ عن السقوط ، وأخذ النهار يدنو . . وعلى غصون أشجار التفاح العارية وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة . . وكان الريف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الأشجار المحيطة

بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة وسط الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط بظلمة السماء عند الأفق . .

وكان «شارل» يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس أن يغلبه ، ويستسلم لسنة حالمة يختلط فيها حاضره بذكرياته . . حتى لقد خال لنفسه شخصيّتين في وقت واحد : فهو طالب ، وزوج معاً . . وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يخطر في قاعة الجراحات كما كان يفعل أيام الدراسة . . واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية ، وبحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان السرير ، وزوجته تغط في نوم عميق !

وحين بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيراً يجلس على العشب ، عند حافة حفرة . .

وهتف الغلام إذ رآه : «أأنت الطبيب؟» .

فلمّا أجابه «شارل» ، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه ، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلى الطريق .

وأدرك الطبيب من دليله ، في أثناء سيرهما ، أن ساق السيد «روو» ـ الذي كان ولا بد من أثرياء المزارعين ـ قد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه ، وأن زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له إلاّ ابنة تساعده في شؤون المنزل .

وتخلّلت الطريق آثار عجلات أخذت تزداد عمقاً عندما اقتربا من (برتو) . وما لبث الغلام أن اختفى خلال فرجة في سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة إلى الظهور عند نهاية السياج ، فيفتح الباب . . وسار الحصان وحوافره تنزلق على العشب المبتل . . وأحنى «شارل» رأسه ليتجنب الأغصان . . وحين دخل الضيعة ، أخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها إلى مأويها ، فأجفل الجواد في فزع شديد . .

ولاحت عند عتبة باب المنزل سيدة شابة في ثوب من الصوف ، فاستقبلت السيد «بوفاري» وقادته إلى المطبخ ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها

طعام الفطور في قدور من جميع الأحجام . . وإلى أحد جانبي المدفأة ، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج . . وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رُصّت على طول الجدار أدوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تخالطه طلائع أشعة الشمس التي أخذت تنساب من خلال زجاج النوافذ .

وما لبث «شارل» أن صعد إلى الطابق الأول من الدار ، ليرى المريض ، فألفاه في فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد ألقى طاقيته القطنية جانباً . .

كان رجلاً بديناً ، قصيراً ، في الخمسين من عمره ، أبيض البشرة ، أزرق العينين ، أصلع مقدم الرأس ، ويزين أذنيه بقرطين ! . . وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر أخذ يرفعها إلى فمه بين الفينة والفينة ، ليشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه . . وبدلاً من أن يمضي في سيل الشتائم التي كان يطلقها بسخاء منذ اثنتي عشرة ساعة ، تحول يئن أنيناً خافتاً . .

كان الكسر بسيطاً ، لم تصحبه أية مضاعفات . . بل إن «شارل» لم يكن يطمع في كسر أسهل منه ! . . وتذكر لفوره مسلك أساتذته بجوار أسرّة الجرحى ، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة . . وبما تعلّمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذي يدهنون به مباضعهم .

وأخذ أهل المريض يبحثون في المخزن حتى جمعوا حزمة من الأخشاب ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها إلى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها أربطة . . والآنسة «إيما» ـ ابنة الرجل ـ تحوك وسادات صغيرة . . وكانت قد أضاعت وقتاً طويلاً في البحث عن صندوق أدوات الحياكة ، فلمّا استحثها والدها لم تجبه ببنت شفة ، وإنما أقبلت على الحياكة . . وكانت كلما شكّت الإبرة أصابعها ، ترفع هذه الأصابع إلى فمها وتمصها ! . .

وأعجب «شارل» ببياض أظفارها اللامعة ، الدقيقة الأطراف . . كانت أكثر نصوعاً من العاج ، وقد قصت على شكل اللوز ! . . على أن يدها لم تكن ـ رغم ذلك ـ جميلة ، ولعل بشرتها كانت أقل صفاء مما ينبغي ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع . . كانت يداً مسرفة في الطول ، يعوزها شيء من ليونة التثني ! . . ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت أهدابهما تضفي عليهما صبغة السواد . . واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحي للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

عندما انتهت عملية التجبير ، دعا السيد «روو» الطبيب إلى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط «شارل» إلى بهو الطابق الأرضي ، حيث ألفى المائدة معدّة لشخصين ، إلى جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلى برسوم تمثل أشخاصاً من الأتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن ، وقد بدت بعض الملاءات النظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة . . وفي الأركان ، رصت جوالات الحنطة التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية . .

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا رسم بالقلم الأسود ، وأحيط بإطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : «إلى أبي العزيز» . . وقد علقت الصورة إلى مسمار في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الأخضر بفعل الرطوبة .

*

جلست الفتاة إلى المائدة مع «شارل» . . وجرى الحديث : عن المريض ـ أولاً ـ ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التي تجوس في الحقول خلال الليل . وكانت الآنسة «روو» لا تستطيب الإقامة في الريف ، ولا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها ـ تقريباً ـ برعاية شؤون المزرعة . . وكانت ترتجف في أثناء تناول الطعام ، لفرط رطوبة الصالة ، ما كشف قليلاً عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما في أوقات الصمت . .

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة ، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان

تبدوان ـ لفرط نعومتهما ـ قطعة واحدة ، تنشق إلى شعبتين ـ عند منتصف الرأس ـ بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ ، لا تكاد أذنا الفتاة تبينان خلالهما . . وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعراً منسقاً بهذا الشكل ! . . أمّا وجنتا الفتاة فكانتا متوردّتين . . وكانت ثمة عوينة في إطار من الصدف تتدلى من زرين في صدارها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد «شارل» ليودع الأب ـ «روو» ـ ثم هبط إلى البهو ثانية ، فإذا الفتاة واقفة إلى النافذة ، وقد أسندت إليها جبهتها ، وأخذت تتأمل الحديقة ، حيث اقتلعت الريح العصي الخشبية الصغيرة التي كانت تسند شجيرات الفاصولياء . .

وحين شعرت به خلفها ، التفتت إليه متسائلة : «أتبحث عن شيء؟» . .
فأجاب : «سوطي ، من فضلك !» .

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقاعد . . غير أن السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات . وما لبثت «إيما» أن لمحته ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه . . ودفعت الشهامة «شارل» إلى أن يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فإذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه . . وبادرت هي إلى الاعتدال وقد تضرج وجهها ، ثم التفتت إليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور . .

وبدلاً من أن يعود «شارل» إلى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد ، جاء في اليوم التالي مباشرة ، ثم أخذ يتردّد على الضيعة مرتين في الأسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من وقت إلى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

سارت الأمور على ما يرام ، وشُفي المريض . . وعندما رؤي الأب «روو» ـ بعد ستة وأربعين يوماً ـ يحاول السير وحده في بيته العتيق ، اعتبر الناس

الطبيب «بوفاري» نطاسياً بارعاً ، ولا سيما حين أخذ الأب يردد أنه ما كان من الممكن أن يحظى بعلاج من أكبر أطباء (إيفتو) ـ أو (روان) ـ يفوق العلاج الذي حظي به على يد الطبيب «بوفاري» !

على أن «شارل» لم يفكر في أن يسائل نفسه عن سر المتعة التي يستشعرها في التردد على (برتو) . . ولو أنه حاول التساؤل لما كان ثمة شك في أن يعزو هذا الإسراف إلى خطورة حال المريض ، أو إلى الكسب الذي كان يرتقبه . ولكن ! أحقاً كان هذا هو السبب في أن زياراته لتلك الضيعة كانت تبدو ـ خلال شواغل حياته ـ كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة؟

كان في أيام تلك الزيارات المتكررة يستيقظ مبكراً ، ويرحل في عجلة ، مستحثاً دابته . . حتى إذا ترجل أمام الدار ، مسح نعليه بالحشائش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج . . وكان يحس بالنشوة ، إذا ما بلغ الفناء ، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله ! . . وأحب الأب «روو» الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه ! . . كما أحب وقع خطوات «إيما» على أرض المطبخ النظيفة . . كان كعباها العاليان يضيفان طولاً إلى طولها . . وكان النعل الخشبي يرتفع ـ إذا ما سارت أمامه ـ ليصطك بجلد الحذاءين في صوت مكتوم . .

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجي ، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده . . وكانا يظلان صامتين ـ إذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل ـ والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفي حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الرايات .

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل ـ في الفترات الأولى لتردده على (برتو) ـ السؤال عن المريض . . بل إنها أفردت للسيد «روو» صفحة بيضاء ، بديعة ، في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها . غير أنها لم تكد تعرف أن له ابنة

حتى أخذت تتحرى ، فعلمت أن الآنسة «إيما» ، التي نشأت في رعاية راهبات «الأورسلين» ، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية» ، ومن ثم فهي على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على «البيانو» . . وتلك كانت الطامة الكبرى !

وأخذت الزوجة تردد لنفسها : «هذا إذاً مبعث كل هذا الإشراق الذي يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها ! . . وهو السبب في حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه ! . . آه . . هذه المرأة ! . . هذه المرأة ! . . » . . وكرهتها دون أن تراها . . بالغريزة !

وقد كانت في بداية الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهمها «شارل» ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم ـ أخيراً ـ باستجوابات مباغتة لم يكن يدري كيف يجيب عليها . . «لماذا يتردد على (برتو) ما دام السيد «روو» قد شفي ، وما دام القوم لم ينقدوه بعد أتعاباً؟ . . آه ! . . لا بد أن ذلك يرجع إلى وجود شخص هناك . . شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه . . شخص لبق حاضر البديهة . . وهذا هو ما يجتذبه . . إنه يتوق إلى فتيات المدن !» .

وتمضي في مساجلتها قائلة : «وهل ابنة الأب «روو» من فتيات المدن؟ . . هذا غير معقول ! لقد كان جدهم راعي غنم . . ولهم ابن عم أوشك أن يقدم إلى المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين . . ففيم إذاً التعالي ، وفيم إذاً ارتداء الحرير للذهاب إلى الكنيسة في أيام الآحاد ، وكأنها كونتسة؟ . . لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه في العام الماضي !» .

وسئم «شارل» هذه النغمة البغيضة ، فكف عن التردد على (برتو) ، ولا سيما بعد أن حملته «هلويز» ـ زوجته ـ على أن يقسم بالكتاب المقدس على أن لا يعود إلى تلك الزيارات ، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات في ثورة عاتية من الحب ! . .

بيد أن الرغبة القوية لم تلبث أن تمردت على استكانته وخنوعه ، وفي نوع

من الرياء الساذج أخذ يؤول قسمه . . فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق في أن يحبها . . ولا سيما أن زوجته عجفاء ، كبيرة الأسنان ، لا تتخلى قط ـ وفي جميع فصول السنة ـ عن الشال الأسود الصغير ، الذي كانت أطرافه تتدلى بين لوحي كتفيها . . وكان قدها محشوراً دائماً في ثوبها وكأنه مغيّب في غمد ! . . ثم إن أثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقين معروقتين ، وغاب قدماهما في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور نعليها . .

وكانت أم «شارل» تأتي لزيارتهما بين حين وآخر ، ولكنها لم تلبث أن أحست ـ بعد زمن ـ أن زوجة ابنها أخذت تستثيرها ضده ، إذ أصبحت المرأتان كسكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما . . فهو مخطئ إذ يلتهم كل هذا الطعام ! . . ثم لماذا يقدم الشراب لكل وافد ! . . ولماذا يركب رأسه ويرفض بإصرار ارتداء «الفانلات»؟ ! .

•

وحدث في مستهل الربيع ، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من (أنجوفيل) ، حاملاً معه كل ما كان مودعاً في مكتبه من أموال ، ومن بينها جل ثروة الأرملة «دوبيك» . على أن «هلويز» وإن ظلت تمتلك دارها الخاصة في شارع (سان فرانسوا) ، فضلاً عن حصة في إحدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك ، إلا أن هذه الثروة المزعومة ـ التي كان لها دوي عال ـ لم يبد من آثارها في بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة . .

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الأعمال . . فإذا بالمنزل قد استغرقه الرهن ، وإذا مصير ما كان مودعاً لدى وكيل الأعمال قد بات لا يعلمه إلا الله وحده ، وإذا نصيبها في السفينة لا يعدو ـ في الحقيقة ـ ألف فرنك ! . إذاً فقد كذبت السيدة الفاضلة ! . . وفي سورة الغضب ، هشم السيد «بوفاري» الأب مقعداً على البلاط ، واتهم زوجته بأنها كانت السبب في شقاء ابنهما ، إذ ربطته إلى تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدها ! . . وكان الأبوان قد وفدا على (توست) لبحث هذا

الموضوع ، فدارت معارك ارتمت «هلويز» خلالها على صدر زوجها وهي منهمرة الدمع ، تناشده أن يحميها من أبويه . . فلمّا أراد «شارل» أن يدافع عنها ، غضب والداه ورحلا . .

غير أن الصدمة كانت قد أحدثت أثرها . . فبينما كانت «هلويز» تنشر الغسيل في صحن الدار ـ بعد ثمانية أيام ـ أصابتها نوبة جعلتها تبصق دماً . . وفيما كان «شارل» منهمكاً في إسدال الستار على النافذة ـ في اليوم التالي ـ وظهره نحوها ، هتفت : «آه يا إلـهي» ، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي . . وماتت ! . . ويا للعجب !

ولـمّا انتهت كل مراسم الدفن ، عاد «شارل» إلى المنزل . . ولم يجد أحداً في الطابق الأرضي ، فصعد إلى الطابق الأول ، وولج غرفة النوم ، حيث رأى ثوب زوجته الراحلة معلقاً بجانب الفراش ، فأسند رأسه إلى مكتبه مستغرقاً في حلم حزين حتى المساء . . فلقد كانت تحبه على أية حال . . كانت تحبه !

- ٣ -

وصل الأب «روو» ذات صباح يحمل إلى «شارل» أجر جبر ساقه : خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً ، وديكاً رومياً ! وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه ، قائلاً وهو يربت كتفه : «إنني أدرك مبلغ مصابك ، فقد مرت بي التجربة نفسها . . لقد كنت أنطلق في الحقول ـ بعد أن فقدت زوجتي المسكينة ـ لأخلو إلى نفسي ، فأجثو عند ساق إحدى الأشجار أبكي وأضرع إلى الله ، وأهرف له بأقوال سخيفة ! . . وكنت إذا ما ذكرت أن سواي من الأزواج يضمون بين أذرعهم ـ في تلك اللحظة ـ زوجات لطيفات صالحات ، أدق الأرض بعصاي في عنف ! . . كنت شبه مجنون ، حتى لقد أمسكت عن الطعام . وكان مجرد التفكير في الذهاب إلى المقهى يثير اشمئزازي ! . . لعلك لا تصدق ! . . على أن الأيام تتابعت ، يطرد كل منها الآخر في رفق . . وأقبل ربيع في أعقاب شتاء ، وخريف في ذيل

صيف . . وما لبث كل شيء أن تضاءل رويداً وزايلني قطرة إثر قطرة . . أو بالأحرى ، رسب في أعماقي ، إذ لا بد من أن يبقى شيء في أغوار النفس ، أو لا بد ـ كما يقولون ـ من أن يبقى فوق الصدر ثقل جاثم ! . . على أننا يجب أن لا نسلم أنفسنا لليأس ، أو نطلب الموت ، إذا ما مات أحد من أحبابنا ، ما دام هذا مصيرنا جميعاً ! . . فانفض الحزن عن نفسك يا سيد «بوفاري» تجده يفارقك ! . . وتعال لزيارتنا ! . . أتعلم أن ابنتي تفكر فيك بين وقت وآخر ، وتتساءل : «هكذا نسيني؟» . . ها هو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشركك معنا في اصطياد الأرانب لتسري عن نفسك قليلاً !» .

أخذ «شارل» بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برتو) ، حيث ألفى كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر . . واستطاع الأب «روو» أن يسير على قدميه ، فكان يغدو ويروح باعثاً الحياة في المزرعة . . ورأى الرجل أن من واجبه أن يبالغ في إكرام الطبيب إلى أقصى حد ، نظراً لنكبته المحزنة ، فطلب إليه ألاّ يرفع قبعته ، وأخذ يتكلم إليه بصوت خفيض ـ وكأنه يتحدث إلى مريض ـ بل إنه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئاً أخف من المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة ، وأخذ يروي له النوادر ، فإذا بالحزين ينسى نفسه ويضحك . . ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلى وجومه ، وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

وأخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده ، بل إن لذة الحرية ، التي عادت إليه حديثاً ، جعلته أكثر احتمالاً لحياة الوحدة ، فقد أصبح في وسعه أن يغير مواعيد طعامه ، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر إلى تقديم حساب عن حركاته ، وأن يمد أطرافه على طول السرير وعرضه إذا ما شعر بالتعب . وهكذا أخذ يعنى بنفسه ويرفّهها ، ويستمرئ ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية !

ولقد عاد عليه موت زوجته ـ فوق كل هذا ـ بنفع في مهنته ليس باليسير ، إذ ظل الناس شهراً بعد وفاتها يرددون : «يا للشاب المسكين ! . . ويا

لنكبته ! . . وذاع اسمه ، فازداد الإقبال على عيادته . . كما أصبح يذهب إلى (برتو) كلما شاء . . كان لديه أمل دون ما هدف واضح . . وفي نفسه سعادة غامضة ! . . وأخذ يلاحظ ، كلّما سوى لحيته بالمحَسّة أمام المرآة أن وجهه يزداد سماحة !

*

وفي يوم من الأيام وصل شارل إلى (برتو) حوالى الساعة الثالثة ، والقوم في الحقول ، فدلف إلى المطبخ . . ولم يفطن في البداية إلى أن «إيما» كانت هناك ، إذ كانت النوافذ مغلقة . ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقي على الأرض خيطاً دقيقاً من أشعتها طويلاً ، يتكسر على زوايا قطع الأثاث ، ويتذبذب على السقف . . وكانت «إيما» تجلس بين النافذة والمدفأة ، وهي منهمكة في الحياكة . . ولم تكن ترتدي وشاحها ، فلاحظ «شارل» أن قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين .

وعرضت عليه ـ كعادة أهل الريف ـ أن تأتيه بشيء من الشراب ، فتمنع . . وألحّ ، ثم دعته أخيراً ـ ضاحكة ـ إلى أن يتناول معها كأساً من الخمر . وأحضرت من الصوان زجاجة شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت إحداهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تصبّ في الأخرى شيئاً ، وقدمت إليه الأولى ، وبعد أن قرعتها بالثانية ، رفعت هذه إلى شفتيها ، ولمّا كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت إلى أن تطوح رأسها إلى الوراء ، لترشف ما بها من قطرات . . وأخذت تضحك ـ وهي على هذا الوضع ، وشفتاها ممدودتان إلى الأمام ، ورقبتها مشدودة ـ إذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فمها ، بينما امتد لسانها من بين أسنانها الدقيقة ليلعق ما في القعر !

وعادت إلى الجلوس ، مستأنفة عملها في رفو جورب أبيض من القطن ، وقد نكست رأسها ، وكفّت عن الكلام . وظل «شارل» صامتاً هو الآخر . . وكان الهواء ينساب من أسفل الباب ، حاملاً بعض الغبار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض في رأسه يختلط بنقنقة دجاجة

تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء . وكانت «إيما» ترطب وجنتيها ـ بين آن وآخر ـ بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة .

وكانت منذ أوائل الموسم تعاني دواراً ، فسألت «شارل» عمّا إذا كان الاستحمام في البحر يفيدها . . ثم تطرقت إلى الحديث عن الدير الذي تعلّمت فيه ، فتحدّث «شارل» بدوره عن مدرسته . . وهكذا اتصل الحديث بينهما . وما لبثا أن صعدا إلى غرفتها ، حيث أطلعته على كراساتها الموسيقية ، والكتيبات التي نالتها كجوائز ، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التي كانت تحتفظ بها في قاع صوان . . كما حدثته عن أمها ، وعن المقبرة . . بل لقد أرشدته ـ في الحديقة ـ إلى الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الأول من كل شهر ، لتضعها على قبر أمها . . بيد أن البستاني الذي يعنى بالحديقة ، لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئاً . . كذلك كان الخدم جميعاً . . أغبياء لا تجني من ورائهم إلاّ المتاعب !

وكم كانت تتمنى أن تعيش في المدينة ، ولو في الشتاء ـ على الأقل ـ وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف أكثر مللاً في هذا الفصل منه في الشتاء . . وكان صوتها يتغيّر تبعاً لما تقول : فهو تارة صاف ، وأخرى حاد . . وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به إلى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها . . ثم إذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً . . وعيناها ! . . كانتا تحدقان في براءة ، ثم إذا بهما في نصف إغماضة ، إذ يشرد فكر صاحبتهما أو تغرق في السآمة !

وفي أثناء عودته في المساء أخذ «شارل» يستعيد عباراتها واحدة بعد واحدة ، يحاول أن يتذكرها ، وأن يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل أن يعرفها . غير أنه لم يستطع قط أن يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول . . أو تلك التي تركها عليها في الوداع القريب . . وساءل نفسه عمّا قد تصير إليه إذا ما تزوجت . . ثم بمن تتزوج؟ . . وأسفاه ! . . إن الأب «روو» واسع الثراء . .

وهي ! . . كم هي جميلة !

وكان وجه «إيما» لا يلبث أن يعود ليستقر أمام عينيه في إصرار . . وأخذ يتردّد في أذنيه صوت رتيب ، في طنين مستمر ملحّ : «هب أنك تزوجت ! . . نعم ، ماذا لو تزوجت !؟» .

•

في تلك الليلة لم يجد إلى النوم سبيلاً . . كان يحس بضيق وظمإ . . وما لبث أن نهض ليشرب من الإبريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم . . كان النسيم دافئاً . . وتناهى إليه من بعد نباح الكلاب . . ثم أدار رأسه في اتجاه (برتو) .

وخطر له أنه لن يخسر شيئاً على أية حال ، فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة . . غير أن تهيبه وحيرته في اختيار العبارة المناسبة كانا يعتقلان لسانه كلما واتته الفرصة التي ينتظر .

والحق أنه لم يكن ليضير الأب «روو» أن يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته . . وكان يلتمس لها ـ في قرارة نفسه ـ العذر ، إذ كان يدرك أنها أذكى من أن تشتغل بالزراعة . . تلك الحرفة التي لعنتها السماء ، حتى أن أحداً لم يصبح ـ باشتغاله بها ـ من أصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلاً من أن يجني من ورائها ثراء . . فبالرغم من تفوقه في المساومة ، وإلمامه بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعة بمعناها الكامل ـ وبما تنطوي عليه من فنون إدارة المزارع ـ أقل ملاءمة له منها لبقية الناس .

وحين لاحظ أن وجنتي «شارل» كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع أن يطلب منه يدها يوماً ما ، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدماً . . كان يراه وضيعاً بعض الشيء ، لا يتمثل فيه الصهر الذي كان يتمناه . . غير أنه كان يعرف عنه حسن السلوك ، والاقتصاد . . وكان متعلماً . . ويلوح أنه لن يساوم كثيراً فيما يتعلق «بالدوطة» التي سيقدمها الأب لابنته ! . . وإذ كان مضطراً إلى أن يبيع اثنين وعشرين فداناً من أرضه ، ليتخلّص من دين كبير عليه للبناء

والنجار ، ولإصلاح دولاب المعصرة ، فقد أسرّ لنفسه قائلاً : «سوف أعطيه «إيما» إذا طلب يدها» ! .

•

وفي عيد القديس ميخائيل ذهب «شارل» إلى (برتو) ليقضي ثلاثة أيام ، وانقضى اليوم الأخير كسابقيه ، في تردّد وإرجاء . . فلمّا تأهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة . . وسلكا طريقاً وعراً كثير الحفر ، حتى إذا أوشكا على الافتراق ، دار بخلد «شارل» أن الساعة قد أزفت ، إذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة . . ولم يكد يجاوزه ، حتى تمتم قائلاً : «سيد روو . . أريد أن أفاتحك في أمر» . . ووقف السيد ، ولكن «شارل» لزم الصمت !

وقال الأب ضاحكاً في رفق : «حدثني بأمرك . . أوتظن أنني لم أدرك كل شيء؟» . فتمتم «شارل» قائلاً : «أيها الأب روو . . أيها الأب روو ! . .» .

وواصل المزارع حديثه قائلاً : «إنني شخصياً لا أتمنى أفضل منك . . ولكن للفتاة رأيها ، ولا بد من سؤالها . . فأبطئ في مشيتك ريثما أعود إلى البيت . . وليس من الضروري أن ترجع ـ إذا ما أجابت بالقبول ـ حتى لا يفطن الناس إلى شيء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال . . ولكن ، لا تقس على أعصابك . . سأدفع مصراعي النافذة إلى الجدار ، وأفتحهما على وسعهما ، إشارة بذلك . . وتستطيع أن تتبين هذه الإشارة من الخلف إذا ما انحنيت على السياج» .

وابتعد الأب . . وربط «شارل» جواده إلى شجرة ، وهرع إلى الطريق الخلفي الضيق ، وأخذ ينتظر . . وانقضى نصف ساعة . . وأحصى بعده تسع عشرة دقيقة . . وفجأة ، سمع صوت ارتطام . . فقد فتح مصراعا النافذة . . وظلا يهتزان إثر اصطدامهما بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، حتى كان في المزرعة ! وتضرج وجه «إيما» حين دخل الدار ، وإن حاولت أن تضحك قليلاً لتبدو متمالكة لنفسها . وقبل «شارل» صهر المستقبل . . ثم أخذوا يتحدثون في

المسائل المالية ، وإن كانت أمامهم فسحة من الزمن ، إذ لم يروا أن يتم الزواج قبل أن ينتهي حداد «شارل» أي في ربيع العام التالي تقريباً .

*

ومضى الشتاء في ترقب ورجاء . . وشغلت الآنسة «روو» بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من (روان) ، وحاكت لنفسها منامات وقلنسوات للنوم على نماذج استعارتها ، وكانوا ـ خلال زيارات «شارل» للمزرعة ـ يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون بأصناف الطعام التي ستقدم ويتناقشون في الصنف الذي ستفتتح به الوليمة !

وكانت «إيما» تفضل أن يتم الزفاف في منتصف الليل ، على ضوء المشاعل ، بيد أن الأب «روو» لم يستسغ هذه الفكرة .

وهكذا أقيمت وليمة العرس أخيراً فحضرها ثلاثة وأربعون مدعواً ، التفّوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة في اليوم التالي ، والأيام التي أعقبته . .

ـ 4 ـ

بدأ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، في عربات متباينة ، ومن القرى المجاورة أقبل شبان في عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم إلى حوافها الخارجية كي لا يسقطوا منها وهي تخب بهم مهتزة في عنف . وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة ، مثل (جودرفيل) و(نورمانفيل) و(دوكاني) . . إذ كان أهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الأسرتين ، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء ، وكتبوا إلى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن بعيد !

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت إلى آخر خلف السياج ، فيفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الأولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطون أذرعهم ،

وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين أزياء المدن ، وكان الأطفال في ثياب شبيهة بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم أنهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة . . وإلى جوارهم سارت فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وقد ارتدين ملابس حفلة «التناول» الأول ، بعد أن أطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة ! . .

ولـمّا لم يكن عدد السياس كافياً ، فقد شمّر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التي تباينت تبعاً لمراكزهم الاجتماعية . . وكلها من الملابس التي تعنى بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات إلا في المناسبات ! . . وكان الرجال الذين سيجلسون في ذيل المائدة يرتدون «أقمصة المناسبات» ذات الياقة المسدلة على الكتفين ، والثنيات الرفيعة في الظهر ، وقد شدت تحت الخصر بحزام مثبت في ثناياها . كما شدت فوق الصدور ـ بفعل النشاء والكي ـ فبدت كأنها دروع !

*

كانت دار العمدة تقع على مسافة أربعة كيلومترات من المزرعة ، فذهبوا إليها على الأقدام . . وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تم الاحتفال في الكنيسة . وكان الموكب متماسكاً في بادئ الأمر ، فبدا كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء . . ثم لم يلبث أن استطال ، وتجزأ إلى مجموعات شغلها الحديث عن اللحاق بغيرها .

أمّا العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حلّيت بالأشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الأهل ، فالأصدقاء ، دون ما ترتيب . . وفي المؤخرة ، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفطن إليهم أحد .

وكان ثوب «إيما» مسرف الطول ، فكان ذيله يتجرر خلفها ، فتقف بين وقت وآخر لترفعه ، ولتنتزع عنه ـ بأصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز ـ ما علق به من أعشاب خشنة وأشواك ، بينما يقف «شارل» ساكناً في انتظارها ! . . وكان

الأب «روو» يرتدي قبعته الحريرية الجديدة ، ومعطفه الأسود الذي يبلغ كماه أظفار يديه ، وقد تأبط ذراع السيدة «بوفاري» الأم . . أما السيد «بوفاري» الأب ـ الذي كان يحتقر في قرارة نفسه كل هؤلاء الناس ، والذي لم يرتد سوى سترة طويلة ذات صف واحد من الأزرار ، على نمط الملابس العسكرية ـ فقد أخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تتضرجان لها ، دون أن تدري بماذا تجيب ! . . في حين انصرف بقية الحضور إلى الحديث في شؤونهم ، أو إلى التغامز خفية ـ بعضهم على بعض ـ أو إلى استثارة المرح في أنفسهم تأهباً للحفل المرتقب . .

ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وفي أركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبداً كثيفاً حول سداداتها . وأترعت الأقداح مقدماً بالنبيذ إلى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء تترجرج في أطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من اسمي العروسين في زخرفة عربية جميلة .

وكانوا قد عهدوا بإعداد الحلوى والفطائر إلى صانع من (إيفتو) استقر بالبلدة حديثاً ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد أحضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الإعجاب من الحاضرين . . إذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبداً ذا أروقة وأعمدة تحف بها التماثيل . . وتناثرت في الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب . . وفي الطابق الثاني منها ، صنع الرجل برجاً من فطير «سافوا» ، تحيط به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال . . وفوق سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً أخضر به صخور غارقة في بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق . . وفي الحقل أرجوحة من الشكولا تعلق بها تمثال صغير للحب ، وقد توج عمودا الأرجوحة ببرعمين من الورد الطبيعي !

وظل القوم يأكلون حتى المساء . . وكلما أمضهم طول الجلوس ، نهضوا يتمشون في الأفنية ، أو يمارسون بعض الألعاب في المخزن . . ثم لا يلبثون أن

يعودوا إلى المائدة ! . . وغلب النوم بعضهم قبيل الختام ، فتصاعد غطيطهم ، بيد أن النشاط لم يلبث أن سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الأغاني ، ويتبارون في ألعاب القوى وحمل الأثقال والحيل التي تعتمد على المهارة اليدوية . . وتبارى بعضهم في رفع العربات فوق أكتافهم . . وفي تبادل النكات ، وتقبيل السيدات !!

وفي المساء ، تأهبوا للرحيل ، ولكن شد الخيول إلى العربات ـ بعد أن اتخمت بالشوفان ـ كان من أصعب العمليات ، إذ راحت تركل ، وتتمرد ، وتكسر الأعنة ، وأصحابها يسبون أو يضحكون . . وكنت ترى طوال الليل ـ وفي ضوء القمر ـ عربات انطلقت على طول الطريق ، تعدو خيولها الجامحة ، فتهبط بها في الحفر حيناً ، وتقفز بها فوق أكوام الأحجار حيناً آخر . . ثم إذا بها تتسلق المنحدرات ، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة !

أما من بقي في (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل يشربون في المطبخ ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد .

أمّا السيدة «بوفاري» ـ الأم ـ فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ، إذ لم يحفل أحد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، أو إعداد الوليمة . وما لبثت أن أوت إلى فراشها في وقت مبكر . . وبدلاً من أن يتبعها زوجها ، أرسل في طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقي حتى الصباح يدخن ، ويحتسي مزيجاً من الخمور لم يكن مألوفاً لدى أهل الريف ، ما رفع من شأنه في أعينهم !

وما كان «شارل» يوماً حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق في حفل عرسه ، بل إنه كان يردّ في غباء على ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة . .

على أنه لاح في اليوم التالي رجلاً آخر يناقض ذاك الذي كان في الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر !

أمّا العروس ، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول في نفسها ، حتى إن

أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع أن يتكهن بشيء عن حالتها النفسية ، واكتفوا بأن راحوا ينعمون في التحديق في وجهها كلما مرت على مقربة منهم ! . .
على أن «شارل» لم يعمد إلى شيء من التكلف ، بل أخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها في غير كلفة ، ويسأل عنها كل إنسان ، ويبحث عنها في كل مكان ـ دون ما حرج ـ كلّما افتقدها ! . . وكثيراً ما كان يقتادها إلى الأفنية ودروب الحديقة . . وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، أو وهو يسير إلى جوارها ، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوي المنشّى !

*

رحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، إذ لم يكن «شارل» ليملك أن يغيب عن مرضاه أمداً أطول مما غاب عنهم .

وصحبهما الأب «روو» في عربة حتى (فاسونفيل) حيث قبّل ابنته مودعاً ، ثم عاد أدراجه . . ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريباً حتى توقف ، ثم التفت إلى العربة ، فلمّا رآها تبتعد وقد أخذت عجلاتها تثير الغبار من خلفها ، أرسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والأيام الخوالي . .

آه ! . . لقد تلاشى كل ذلك في أدراج الزمان ! . . ولو أن طفلهما الأول عاش ، لكان اليوم في الثلاثين من عمره !

والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق . . وغشيته كآبة موحشة ، وقد خيل إليه أن نفسه غدت كالبيت الخاوي المهجور ! . . وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الأليمة في رأسه الذي أثقله الشراب . . وأحس برغبة في أن يعرج على الكنيسة ، بيد أنه خشي أن تزداد شجونه ، فيمّم وجهه صوب داره .

ووصل السيد «شارل» وزوجته إلى (توست) في نحو الساعة السادسة ، فإذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم . .

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما ، واعتذرت لأن العشاء لم يكن أُعدّ بعد ، ثم سألت السيدة أن تتفقد منزلها ، ريثما تعد المائدة .

- ٥ -

كان المنزل مبنياً من الآجرّ ، وواجهته تطل على الطريق . . وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقاً مع عنان جواد ، وقلنسوة من الجلد الأسود . . وعلى الأرض ، انزوى في أحد الأركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف . . وإلى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون . . وقد علقت إلى أحد الجدران ، الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفي طرفها الأعلى باقة من الزهر الباهت . وكانت الستائر القطنية البيضاء ـ المحلاة بشرائط حمراء ـ تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلمع على حافة المدفأة الضيقة بندول ساعة يعلوه رأس «أبقراط» ، وقد قام إلى جانبيه شمعدانان من الفضة تحت مظلتين بيضويّتين .

وفي الناحية الأخرى من المدخل ، كان مكتب «شارل» . . غرفة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً ، تضم منضدة وثلاثة مقاعد ، فضلاً عن مقعد خاص للمكتب . . واحتل الأرفف الستة في مكتبه ، من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التي لم تفض صفحاتها بعد ، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !

وكانت رائحة الطعام تنساب من المطبخ متسربة خلال جدران غرفة المكتب في أثناء الكشف على المرضى . . كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع في المطبخ ، فضلاً عن قصصهم بحذافيرها !

وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل على الفناء الذي يضم الحظيرة ، وكانت تحوي فرناً ، غير أنها كانت تستخدم كمخزن للحطب ، والأغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهملة ، وأكداس من أشياء أخرى علتها الغبرة ، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه . أما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جداران من الطين ـ حفت بهما أشجار المشمش ـ وتنتهي بسياج من الأشواك

يفصل بينها وبين الحقول . وكانت تتوسطها «مزولة» ـ ساعة شمسية ـ من الأردواز ، أقيمت على قاعدة حجرية . . وأربعة أحواض من نبات «النسرين» تحيط ـ في انتظام ـ بحوض خامس زرعت فيه نباتات أكثر نفعاً . . وتحت شجيرات السرو ، في الطرف الأقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قساً يقرأ في كتاب الصلوات !

صعدت «إيما» إلى الطابق العلوي ، فإذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الأثاث تقريباً ! . . أما الحجرة الثانية ـ وهي مخدع العروسين ـ فكانت تضم سريراً من خشب «الأكاجو» داخل فجوة في الجدار أحاطت بها ستائر حمراء ! وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف . . وإلى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها أشرطة من الحرير الأبيض . . وكانت باقة عروس . . العروس الأولى !!

ولاحظ «شارل» اتجاه نظرات «إيما» إلى الزهور ، فتناولها وذهب بها إلى المخزن . . وجلست «إيما» في مقعد مريح في أثناء ترتيب حاجياتها ، وقد سرح خاطرها إلى باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوّى . . وساءلت نفسها ـ وهي مسترسلة مع أحلامها ـ عما يمكن أن يحل بتلك الباقة . . لو أنها ماتت بدورها هي الأخرى !

*

أمضت «إيما» الأيام الأولى في تدبير التعديلات التي شاءت أن تجريها في البيت ، فنزعت المظلات ـ «الأباجورات» ـ عن المشاعل وألصقت بها كساء جديداً من الورق ، وأعادت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة ـ في الحديقة ـ بعض المقاعد . . بل إنها راحت تفكر في الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك !

ولمّا كان زوجها يعلم أنها تحب النزهة في العربات ، فقد وفق إلى عربة مستعملة ، زوّدها بمصابيح جديدة ، و«رفارف» من الجلد . وأمسى «شارل» هانئ البال ، لا يحمل هماً . . حياته وجبات يتناولها مع «إيما» . . ونزهات

مسائية برفقتها في الطريق العام . وكان يستشعر متعة في العبث بضفائرها ، وفي رؤية قبعتها الخصوصية معلقة إلى مزلاج النافذة . . وفي كثير من الأمور الشبيهة ، التي لم يخطر له يوماً ببال أنها يمكن أن تكون مبعث سرور !

وكان ، إذا ما استيقظ في الصباح وظل مستلقياً إلى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان طرفا قلنسوة النوم يتسدلان إلى منتصفيهما . . وكان إذا حدّق في عينيها عن قرب ، خالهما أكثر اتساعاً . . ولا سيما حين تفتح أجفانها وتطبقها مرات متتابعة ، ريثما تألف عيناها الضوء عند اليقظة ! . . وكانتا تبدوان سوداوين في الظلال ، وزرقاوين قاتمتين في ضوء النهار . . بل لقد يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في أغوار الحدقة ، ثم تشف شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من السطح !

*

وكان إذا ما نهض وتهيأ للخروج ، وقفت «إيما» عند النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة إلى حافتها بين آنيتين من زهور «الجيرانيوم» ، وهي في ثوب فضفاض . . وبينما ينهمك ـ وهو في الفناء ـ في تثبيت مهمازيه ، رافعاً قدميه تباعاً إلى حافة السور ، كانت تأخذ في الحديث إليه من أعلى ، وهي تلتقط بفمها نتفاً من الزهر أو من العشب الأخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتتطاير في الهواء مرفرفة في حركة نصف دائرية كالعصفور ، حتى تعلق بالشعر الأشعث المنتشر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدى الباب بلا حراك . . وما إن يعتلي «شارل» صهوة الجواد ، حتى يرسل إليها قبلة في الهواء ، فترد بإيماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو في رحلته ، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له ، ويمضي في دروب بين الأشجار الوارفة ، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها إلى الركبة . . والشمس تستلقي على منكبيه ، وهواء الصباح يملأ خياشيمه . . وقد أفعم فؤاده بما ناله في ليله من لذات . . وسرت الطمأنينة إلى نفسه ، والراحة إلى جسده !

وكان يواصل رحلته وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ بعد الغداء مما خلفه «عش الغراب» في فمه من طعم ! . . متى كانت الحياة رفيقة به كما هي الآن؟ . . أفي أيام الدراسة ، حين كان محبوساً بين جدران المدرسة وحيداً وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعاباً للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه ، ويعيّرونه بأن أحداً لا يزوره كما كانت أمهاتهم يفدن لرؤيتهم ـ في حجرة الاستقبال بالمدرسة ـ وقد حملن لهم الفطائر؟ ! . أم في فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن أن تغدو عشيقته؟ ! . . أم في الشهور الأربعة عشر التي عاشها زوجاً لتلك الأرملة التي كانت قدماها تستحيلان ـ في السرير ـ إلى قطعتين من الثلج؟ !

ما أبعد كل هذا عن حاضره ، وقد أصبح يمتلك ـ ما عاش ـ هذه المرأة الجميلة التي يهيم بها ! . . لقد أصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط منامتها الحريرية !

وكان يلوم نفسه إذ يخيل إليه أنه لا يحبها كما يجب ! . . وما كان ليطيق عنها بعداً ، فيتعجّل العودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل إلى حجرتها في هدوء ليفاجئها وهي تتزين ، فيطبع على ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده . . فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن أن تتحسا دوماً مشطها وخواتمها وشالها . . وكان يطبع على وجنتيها قبلات كبيرة أحياناً ، بملء فمه ، أو يغطي ذراعيها بقبلات خفيفة من أطراف أصابعها حتى كتفيها ، وهي تدفعه في مزيج من الضيق والابتسام ، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا !

والواقع أن «إيما» كانت تعتقد قبل الزواج أنها قد وقعت في الحب ، فلمّا لم تحصل على ما كانت تخاله مترتباً على هذا الحب من سعادة ، توهمت أنها كانت على خطإ ، وأخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهر أنفاسها وتثير إحساسها !

ـ ٦ ـ

كانت قد قرأت رواية «بول وفرجيني»(*) ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على أعواد الغاب ، وبالعبد «دومينغو» والكلب الأمين . . كما أحست ـ بوجه خاص ـ بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها أبراج الكنائس . . أو يعدو على الرمال حافياً وقد حمل إلينا عش عصفور !

ولمّا بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، اصطحبها أبوها إلى المدينة ليلحقها بالدير ، فنزلا في فندق بحي (سان جرفيه) ، حيث قدم لها العشاء في صحاف موشاة برسوم تمثل حياة «مدموازيل دي لافاليير» . . وكانت التفصيلات الخرافية ـ التي تناهت إلى أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة ـ تنطوي على تمجيد البلاط الملكي ، وإظهاره في إطار من التديّن ، ورقة المشاعر ، وأبهة المنظر !

ولم تستشعر سأماً من حياتها بالدير ـ في الأيام الأولى ـ بل إنها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللائي كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها إلى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام بأروقة طويلة . . ولم تكن تلعب في أوقات الفراغ إلاّ نادراً ، إذ كانت تحرص على استذكار مبادئ الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائماً بالإجابة على الأسئلة الصعبة الدقيقة التي كان القس يوجهها إلى الفتيات في الكنيسة !

على هذا النحو عاشت في جو حجرات الدراسة الدافئ لا تجاوزه ، وبين أولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التي تتدلى منها الصلبان النحاسية . . وفي رفق ولين ، أخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور المذبح ، وأحواض مياه التبرّك ، وأضواء الشموع ! . . وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة بإطار سماوي اللون ، في

(*) للكاتب الفرنسي برناردان دو سان بيير (١٧٣٧ - ١٨١٤) .

كتاب الدين . . فأحبت (الحمل المريض) و(القلب المقدس) الذي تخترقه السهام ، والمسيح المعذّب الذي يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوماً بأكمله لتروض روحها . . وتجهد رأسها في ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب إلى «كرسي الاعتراف» تبتدع خطايا صغيرة تزعمها لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال ، فتصغي إلى همس القس ، ويداها مضمومتان ، ووجهها أمام السياج المحيط بالكرسي !! وكانت الأوصاف المجازية التي تتناول «الخطيب» ، و«الزوج» ، و«العاشق الإلـهي» ، و«الزواج الأبدي» ، والتي كانت تتردد في المواعظ ، تثير في أعماقها نشوة غريبة !

وفي المساء ، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستذكار ـ قبل الصلاة ـ نصوصاً دينية ، كن يخترنها في أيام الأسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس ، أو من محاضرات الراعي «فراياسينوس» . . أما في أيام الآحاد ، فكن يقرأن فقرات من «عبقرية المسيحية» على سبيل الترويح . . وكم كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي ، والتي كانت أصداؤها تتردّد بين الأرض والسماء !

ولو أنها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحي تجاري ، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة ، التي لا تسري إلينا عادة إلا إذا ترجمها لنا الكتّاب . . ولكنها عاشت تلك الطفولة في الريف ، فتشنّفت ثغاء القطعان ، واعتادت الألبان ، والمحاريث ! . . ولـمّا كانت قد ألفت المناظر الهادئة ، فقد أخذت تتجه إلى نقيضها . . إلى المناظر المثيرة ! . . ومن ثم لم تعد تحب في البحر إلا أنواءه ، ولا تعجب بالخضرة إلا منتشرة وسط الخرائب . . كان لا بد لها من الحصول على منفعة شخصية من الأشياء ، فلم تكن ترى نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشراً لقلبها ، إذ كان مزاجها حسيّاً عاطفياً ، أكثر منه فنيّاً . . وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة أكثر مما تبحث عن المنظر !

في تلك الفترة كانت تفد على الدير امرأة عانس تقضي أسبوعاً من كل

شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلّق بالملابس والأغطية . ولـمّا كان المطران يرعاها لانتمائها إلى أسرة عريقة من أسر النبلاء التي حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعام في القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات . . ثم تجاذبهن الحديث قبل أن تصعد إلى عملها . وكثيراً ما كانت التلميذات يتسلّلن من قاعة الاستذكار إلى حيث تعمل ، إذ كانت تردد في همس ـ وهي تحرك إبرتها في القماش ـ بعض أغنيات غرامية من القرن الماضي ، تحفظها عن ظهر قلب ! . . وكانت تقص النوادر ، وتروي الأنباء ، وتقضي الحاجات من المدينة ، وتعير التلميذات الكبيرات ـ سرّاً ـ روايات كانت تحتفظ بها دائماً في جيب مريلتها . . ولا تكف عن «التهام» فصول طويلة منها ، بين فترات عملها ! . . وما كان أمثال هذه الروايات ليدور إلاّ عن الحب والمحبين ، ونساء معذبات يُغمى عليهن في خلوات منعزلة ، وسياس يقتلون في كل رحلة ، وخيل تنفق في كل صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود ، وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق في ضوء القمر ، وبلابل في الخمائل ، وسادة في شجاعة الأسود ووداعة الحملان ، أوتوا من الشهامة قدراً لا مثيل له . . محتفظين بأناقتهم دائماً . . ويبكون ، فتسيل دموعهم كالمطر الهتون !

وعلى هذا ظلت «إيما» خلال أشهر ستة من عامها السادس عشر ، تنفض بأصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة . ثم أرشدها «والتر سكوت»(*) ـ بعد ذلك ـ إلى التاريخ ، فراحت تحلم بالأثاث والرياش ، وقاعات الحرس ، والشعراء البوهيميين الذين يغنون أشعارهم على القيثارة ، وكانت تتمنى لو أنها عاشت في أحد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل اللاتي كنّ يقضين أيامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطي ، وقد اعتمدن بمرافقهن على الأحجار ، وأسندن ذقونهن إلى راحات أيديهن ، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذي ريشة بيضاء يعدو بين الحقول على صهوة جواد أسود ! . وأنزلت «إيما» الملكة الإنكليزية «ماري

(*) كاتب وشاعر إسكتلندي (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) .

ستيوارت» من نفسها منزلة القداسة ، وأكبرت ـ في حماسة ـ النساء الشهيرات ، المنكوبات : فكانت «جان دارك» ، و«هيلويز» ، و«آنييس سوريل» ، و«فيرونيير» الفاتنة ، و«كليمانس هيزور» . كل أولئك كنّ ـ في نظرها ـ كواكب في ظلمات التاريخ اللانهائية ! . . وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل «سان لويس» وبلوطته التي كان يجلس تحتها ، واحتضار «بايار» ، وفظائع لويس الحادي عشر ، ولمحات من «سان بارتلمي» ، وغطرسة «كونت بيارين» . . ثم ـ ودائماً ـ ذكرى الصحاف التي نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !

ولم يكن في الأغنيات ـ التي كانت تغنيها في أثناء دروس الموسيقى ـ سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى مقدسات ، وقنوات يسبح فيها الجندول . . أغان ساذجة كانت تلمح ـ خلال أسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة ـ صوراً متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض الزميلات يحملن إلى الدير ما يُهدى إليهن في عيد رأس السنة من كتب أنيقة ، كان إخفاؤها مشكلة عويصة بالنسبة إليهن !

على أنهنّ كنّ يقرأنها في «عنبر»النوم ، فكانت «إيما» تقلب بين يديها ـ في رفق ـ تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق توقيعاتهم ـ في نهايات القصص ـ لقب «كونت» أو «فيكونت» . . وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور ، فلا يلبث أن ينثني ثم ينزلق مستوياً على الصفحات !

وكان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب أبيض ، ثبتت إلى حزامها كيس الصدقات . . كما كانت هناك صور بعض الإنكليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية . . وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق ، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء ، وتجري أمامها كلاب الصيد الرشيقة . . بينما

استلقت أخريات على الأرائك مستغرقات في الأحلام ، وإلى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء ! . . كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان أقفاص من الطراز القوطي ، وقد سال الدمع على وجناتهن . . وأخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على أكتافهن ، وأخذن ينثرن أوراق زهر المرغريت بأصابعهن المدببة التي تشبه مناسر الصقور !!

وكان المصباح المعلق إلى الحائط فوق رأس «إيما» يضيء كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا ، فتتتابع أمام بصرها ، و«عنبر» النوم غارق في صمت ، يعكره في بعض الأحيان ضجيج يتناهى من بعيد ، منبعثاً من عربة تذرع الطريق ، بعد أن اقترب الليل !

وقد بكت «إيما» كثيراً في الأيام الأولى لوفاة أمها ، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة» . وأرسلت خطاباً إلى (برتو) مليئاً بأفكار قاتمة عن الحياة ، طلبت فيه أن تدفن ـ إذا ما حان أجلها ـ في المقبرة التي ضمت أمها . وجزع أبوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها . . وأحست «إيما» في أعماقها بالرضى ، إذ رأت نفسها تقفز فجأة إلى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التي لا تتطلع إليها النفوس التافهة !

وهكذا ، ألفت نفسها تنزلق إلى ألوان الخيال «اللامارتينية» ـ أي التي كانت تسود مؤلفات «لامارتين(*)» ـ فتنصت إلى القيثارات على البحيرات ، وأناشيد البجع المحتضر ، وإلى صوت سقوط الأوراق الذابلة ، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات إلى السماء ، وإلى صوت السماء يتردد في الوديان !!

وما لبثت أن ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ في البداية أن تعترف بالملل ، بل استمرت في هذه الخيالات ـ بحكم العادة ، في أول الأمر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! ـ ولكنها وجدت السكينة تغمرها في النهاية ، فلا الفؤاد حزين ، ولا تجاعيد في الجبين !

(*) ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومانسية .

وكانت دهشة الراهبات ـ اللاتي أحسن الظن باستعدادها ـ بالغة ، إذ لاحظن أن الآنسة «روو» قد أخذت تفلت من رعايتهن . . والواقع أنهن كن قد أكثرن عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ ، وأسرفن في تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفي إزجاء النصائح التي تستهدف إخضاع الجسد وخلاص الروح ، حتى أصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب بالعنان . . ثم قدّر لها أن تقف وأن يخرج العنان من بين أسنانها !

وما ذلك إلاّ لأن تلك الروح الإيجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا النشاط الديني . . تلك الروح التي أحبت الكنيسة من أجل زهورها ، والأغاني بسبب كلماتها العاطفية ، والأدب من أجل مثيراته الحسية . . هذه الروح لم تلبث أن تمردت على أسرار الإيمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذي كان يتعارض مع مزاجها . . حتى إن أحداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من الدير . . بل إن الرئيسة شكت من أنها غدت في الأيام الأخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير !

ووجدت «إيما» ـ في الفترة الأولى التي تلت عودتها إلى البيت ـ لذة في أن تصدر الأوامر إلى الخدم . بيد أنها لم تلبث أن أبغضت الريف ، وحنّت إلى الدير مرة أخرى !

وعندما وفد «شارل» إلى (برتو) لأول مرة ، أحسّت بخيبة أمل ، إذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه أو تحس به ! . . بيد أن شوقها الملهوف إلى شيء جديد ، والقلق الذي ساورها لتغيّر ظروفها ـ أو لعله الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل ـ كانا كافيين لكي يحملاها على أن توقن بأنها قد أصابت أخيراً تلك العاطفة الخارقة ، التي كانت تتراءى لها ـ حتى ذاك الحين ـ كعصفور كبير ذي ريش وردي ، يحلق ببهاء في سماوات الشعر . . عاطفة الحب ! . . وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش فيها هي . . السعادة التي كانت تحلم بها من قبل !

ـ ٧ ـ

كانت «إيما» رغم ذلك تخال أحياناً أن الأيام المقبلة ستكون أجمل أيام حياتها . . أيام شهر العسل ، كما يسمونه ! . . بيد أنها كانت ترى لزاماً ـ لكي تتذوق حلاوة ذلك «العسل» كاملة ـ أن ترحل إلى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التي تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء . . والتي يصعد المرء فيها ـ على مهل ـ طرقاً وعرة ، في عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت إلى أنشودة السائس تردّدها قمم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط . . ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء ـ عند حواف الخلجان ـ عبير أشجار الليمون ، حتى إذا أرخى الليل سدوله خلا العروسان إلى أنفسهما في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت أصابعهما ، وأخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل إليها أن في الدنيا بقاعاً تنبت السعادة ، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت إلاّ في تربة معينة لا تنمو لها في غيرها ! ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها أن تتكئ على حافة شرفة منزل خشبي فوق جبال سويسرا ، أو أن تحبس شجونها في كوخ باسكتلندا ، مع زوج يرتدي حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ ، وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، وأكماماً منشاة؟ ! . . لكم تمنت لو تفضي لأحد بهذه الخواطر جميعاً . . ولكن ، كيف السبيل إلى الإفصاح عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه ، والذي تتبدل صوره كالسحاب ، ويعصف بنفسها كالرياح؟ . . وهكذا ، كانت تعوزها الألفاظ ، كما أعوزتها الفرصة والجرأة !

ومع ذلك . . آه ، لو أراد «شارل» . . لو خطر بباله . . لو التقت نظراته مرة بخواطرها . . إذاً ، لتفتّح قلبها ـ فيما تظن ـ عن فيض مفاجئ ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدي ! . . بيد أن الأمر كان يجري على النقيض من ذلك . . فكلّما ازدادت الألفة بينهما كلما ازداد شعورها بانطواء روحي ، واتسعت الهوة التي تفصله عنها !

كان حديث «شارل» سطحياً . . كسطح إفريز الطريق ، تمر عليه آراء الناس في لباسها العادي ، فلا تثير فيه انفعالاً ، أو ضحكاً ، أو خيالاً ! . . فهو لم يحس بحب الاستطلاع ـ كما كان يقول ـ يدفعه لأن يذهب إلى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، أيام كان يقيم في (روان) . . ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا إطلاق الرصاص . . وعجز مرة عن أن يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية ، صادفتها في إحدى الروايات التي قرأتها !

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر على العكس من ذلك ، فيعرف الرجل كل شيء . . أن يكون مبرزاً في كثير من نواحي النشاط ليدرب زوجته عليها . . أن يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة . . وبكل الأسرار ؟ ! . . لقد كان «شارل» على العكس من هذا كله ، فلا هو عرّفها بشيء ، ولا كان يعرف شيئاً . . بل إنه لم يكن يطمح إلى شيء !!

كان يظنها سعيدة ، وهي في الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن . . بل تنقم عليه أن حظي بتلك السعادة التي أتاحتها له !

وكان يحلو لها أحياناً أن ترسم ، فكان «شارل» يجد تسلية ممتعة في أن يقف جامداً يتأملها وهي عاكفة على لوحتها ، أو وهي تنعم النظر إلى الرسم وقد ضاقت حدقتاها إمعاناً في الدقة ، أو هي تعبث بقطعة من لباب الخبز تكوّرها بين أصابعها . . أمّا إذا عزفت على «البيانو» ، فكان إعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة ! . . كانت توقع النغمات في ثقة ، وتجري أصابعها على المفاتيح من أعلى إلى أسفل دون توقف ، فتنقر أوتار الآلة القديمة ، حتى ليصل صوتها إلى أقصى القرية إذا كانت النافذة مفتوحة . . وكثيراً ما يحدث أن يكون محضر القرية ماراً في الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ في الإصغاء وهو عاري الرأس ، وأوراقه تحت إبطه !

*

وكانت «إيما» ـ من ناحية أخرى ـ تحسن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأتعاب الاستشارات الطبية ، دون أن يشتمّوا منها رائحة المطالبة ! . . وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء ـ في أيام الآحاد ـ كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض ملامح الأناقة في تقديم أصناف الطعام . . كأن ترص أهرامات من البرقوق على ورق العنب ، أو تصوغ الحلوى في قوالب تصبها على الأطباق . . بل إنها أخذت تعرب عن رغبتها في شراء آنية تملأ بالماء ، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى ! . .

وكان كل هذا مدعاة إلى رفع شأن أسرة «بوفاري» في أنظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل إلى أن ازداد تقديره لنفسه ، إذ وفق إلى مثل هذه الزوجة ! . . وكان يطلع زائريه مزهواً على لوحتين صغيرتين رسمتهما «إيما» بالفحم ، وصنع لهما إطارين عريضين ، وعلقهما إلى الحائط بشريطين أخضرين . . وكثيراً ما أصبح يُرى واقفاً أمام باب منزله ـ بعد مبارحة الكنيسة ـ وفي قدميه خفّان بديعا التطريز يختال بهما فخوراً !

وكان يعود إلى المنزل في بعض الأحيان متأخراً ـ في الساعة العاشرة ، وربما في منتصف الليل ـ فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت إلى فراشها ، وعند ذاك كانت «إيما» تتولى إعداد المائدة له ، فيخلع سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح ، وينطلق في سرد أسماء جميع من قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من عقاقير . . ثم يأتي ـ وهو راض عن نفسه ـ على ما تبقى أمامه من «الحساء» ، ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ في قضم تفاحة ، وفي إفراغ إبريق النبيذ في جوفه . . ولا يلبث أن يذهب إلى السرير فينطرح عليه ، ويمضي في نوم عميق بزفير وشهيق !

وكان قد عدل عن القلنسوة القطنية التي اعتاد لبسها في السرير ، وألف أن يلف حول رأسه وشاحاً لا يكاد يستقر على أذنيه ، فيصحو في الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على وجهه ، وقد علق به بعض حشو الوسادة التي تكون أشرطتها قد انحلّت في أثناء نومه . .

كذلك كان يرتدي في النهار نعلين كبيرين ، لكل منهما رقبة عالية ، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعبي القدمين . . أما وجه الحذاء فكان دائماً مستوياً في خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب . وكان يردد دائماً : «هذا هو النوع المناسب للريف» !

وكانت أمه تؤيده في هذا الاقتصاد ، إذا ما جاءت لزيارته ـ كلما وقعت في خلاف مع زوجها ـ كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى ! . . وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضاً ، إذ كانت ترى أساليبها مدعاة لإسراف يفوق مستوى ثرائهم . . فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة . . وكمية الجمر التي كانت تحرق في المطبخ تكفي لطهو عشرين صنفاً من الطعام ! . . وكانت تعمد إلى ترتيب «بياضات» زوجة ابنها في الصوان ، وتعلمها كيف تحاسب الجزار إذا ما أحضر اللحم ، فكانت «إيما» تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس ! . . وكانت كلمتا «ابنتي» و«أمي» تتبادلان طوال النهار ، مصحوبتين برعشة في الشفاه ، إذ كانت السيدتان تلفظان أعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!

كانت الأم العجوز تشعر في عهد مدام «دوبيك» الراحلة بأنها ما زالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها . . أمّا الآن ، فقد بدا لها حب «شارل» لإيما بمثابة فرار من حنانها ، أو انتقاص لما كان لها . . فأخذت ترقب سعادة ابنها في صمت كئيب ، كإنسان أفلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلى أغراب احتلوا داره القديمة . . وكانت تروي له مشقاتها وتضحياتها ـ على سبيل الذكرى ـ وتقارنها بإهمال «إيما» عسى أن يستنتج أن ليس من الحكمة أن يتعشّق السيدة الشابة على هذا النحو الذي يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن «شارل» يدري كيف يتصرف . . فهو يحترم أمه ، كما يحب زوجته حباً لا حدّ له . . وكان يعتبر أمه معصومة من الخطإ ، ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يكن يرى في مسلك زوجته مدعاة للوم والتخطيء ! . . وكان يستجمع جرأته ـ بعد أن ترحل مدام بوفاري ـ فيردد في استحياء ـ بألفاظ أمه نفسها ـ

بعضاً من أهون المآخذ التي يكون قد سمعها منها . . ولكن «إيما» كانت ـ بكلمة واحدة ـ تقنعه بأنه على خطإ ، وترسله إلى مرضاه ! . . ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تحبه وفقاً للنظريات التي كانت تؤمن بها ! . . كانت تردّد على مسمعه ـ في الحديقة ، وفي ضوء القمر ـ ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغني له ـ وهي تتنهد ـ بعض الألحان الشجية . . غير أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما أن «شارل» لم يكن يبدو أكثر حباً ولا انفعالاً مما كان عليه قبل الشعر والغناء !

وهكذا لم تلبث ـ بعد أن قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة ـ أن انساقت إلى إقناع نفسها بأن حب «شارل» خال من الحرارة ! . . فقد أصبحت أوقات انطلاقه وتحلّله منتظمة . . وهو يقبّلها في «مواعيد» معينة ، وكأنه يمارس عادة من العادات ! . . أو كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء رتيب !

*

وفي يوم حدث أن عالج الطبيب أحد الحراس من التهاب رئوي ، فأهدى الحارس زوجته كلبة إيطالية صغيرة أخذت تصحبها في نزهاتها ، إذ كانت تخرج أحياناً كي تخلو إلى نفسها ، وحتى تريح بصرها بعض الشيء من النظر إلى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة ! . . كانت تمضي حتى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة من البناء المهجور الذي تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية إلى الحقول . . وهناك وسط الأعشاب النامية في الخندق ، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة ، كانت تتأمل ما حولها لتتبيّن ما إذا كان قد ألمّ بالمكان أي تغير عمّا كان عليه في آخر مرة وطئته . . فكانت ترى زهور «الريجتيالا» والقرنفل في منابتها نفسها ، والنباتات الشوكية تحيط بالأحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافذ الثلاث ـ في المبنى المهجور ـ التي كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب عبرها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التي علاها الصدأ .

وكانت أفكارها لا تعتّم أن تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التي كانت تجري في

حلقات خلال الحقول ، وترسل تباحها خلف الفراشات الصفراء ، وتطارد الجرذان أو تعضعض الخشخاش النامي على حافة حقل القمح . ثم تأخذ أفكارها في التركز شيئاً فشيئاً ، فتردّد لنفسها وهي تفترش الحشائش التي كانت تعبث بها بطرف مظلتها : «يا إلـهي ! . . لماذا تزوجت؟ !» .

وكانت تسائل نفسها أيضاً : «أولم تجد المصادفات طريقاً آخر تدفعها فيه لتلتقي برجل آخر؟ . .» ثم تمضي في تخيل الأحداث التي كانت تترتب على ذلك . . الأحداث التي لم تقع ، والحياة التي تغاير حياتها الحالية ، والزوج الذي لم تعرفه . . فلا مراء في أن الأزواج ليسوا جميعاً مثل زوجها ! . . كان من الممكن أن يكون زوجها جميلاً ، مرحاً ، أنيقاً ، جذاباً ، مثل أولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها في الدير ! . . ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن في المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، وأضواء المسارح ، وصخب المراقص؟ . . إنهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب ، وتنتعش الحواس . . أمّا هي ، فإن حياتها باردة كالمخزن الرطب الذي أوتي نافذة شمالية ! والملل؟ ! . . ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يغزل نسيجه في الظلال ، في كل ركن من أركان قلبها !

وتذكرت أيام توزيع الجوائز ـ في أثناء الدراسة ـ حين كانت تصعد إلى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ، وقد بدت بديعة بشعرها المجدول ، وثوبها الأسود . . وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة ، إذا ما عادت إلى مكانها . . ويطلون من نوافذ العربات التي تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها ! . . كما كان مدرس الموسيقى يحييها إذ يمر بها حاملاً قيثارته . . أواه ! . . لكم أصبح كل هذا بعيداً . . آه ، لشدّ ما بعد !

•

وكانت تنادي كلبتها «جالي» فتضعها على ركبتيها ، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : «هيا . . قبّلي سيدتك ! . . قبّليها يا من لا تثقل الهموم قلبها !» .

وكان ضوء النهار ينبعث خلال أوراق الشجر ، مستعيراً لونها الأخضر ، فينعكس على العشب القصير الذي يئن في رفق تحت قدميها . . ولا تلبث الشمس أن تجنح إلى المغيب ، فتحمر السماء ، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام في خط مستقيم ، كأنها أعمدة قائمة على صفحة من الذهب . . وتسري الرهبة إلى نفس «إيما» فتنادي كلبتها «جالي» وتسرع إلى (توست) . . ثم تستلقي على مقعد مريح ، وتظل صامتة بقية الليل !

•

وقد اعترض حياتها ـ في أواخر أيلول/ سبتمبر ـ حادث غير عادي ، إذ دعيت إلى (فوبيسار) لزيارة مركيز «أندفيليه» ! . . ولـمّا كان المركيز قد تولى الوزارة من قبل ـ عند عودة الملكية ـ فإنه أخذ يتطلع للعودة إلى الحياة السياسية ، وبكّر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب . . فكان في الشتاء يوزع الحطب ، وكان في مجلس المقاطعة يطالب متحمساً بإصلاح الطرق في دائرته . . فلمّا جاء الصيف بحرّه اللافح ، أصيب بدمل في فمه ، استطاع «شارل» أن يريحه منه ـ بما يشبه المعجزة ـ بحركة من مبضعه على وجهه في الوقت المناسب !

وعندما عاد المندوب الذي أرسله المركيز إلى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكر لسيده أن في حديقة الطبيب نوعاً ممتازاً من «الكريز» الذي كان نمو بذوره متعذراً في حدائق (فوبيسار) . . فطلب المركيز بعض «العقل» . . وعني بأن يذهب بنفسه إلى الطبيب ليشكره . . وهناك وقع بصره على «إيما» ، فلاحظ قوامها الأهيف ، واسترعى انتباهه أنها لا تنحني بالتحية كالفلاحات . . ولم يرَ أي مغالاة في التواضع ، أو أيّ خرق للتقاليد ، في دعوة الزوجين الشابين إلى قصره !

وفي الساعة الثالثة من أحد أيام الأربعاء ، رحل السيد والسيدة «بوفاري» إلى (فوبيسار) في عربة شدت إلى سطحها حقيبة كبيرة . . ووضع أمام مقعدها صندوق للقبعات ، فضلاً عن أن «شارل» حمل على فخذيه صندوقاً من الورق المقوى .

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء لتنير الطريق للعربات الوافدة .

- ٨ -

كان قصر المركيز مبنياً على الطراز الإيطالي الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضي إلى شرفات ذات درجات . . وأمام السلم الأوسط وقفت عربة «شارل» فظهر الخدم . . وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلى البهو ، الذي رصفت أرضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه إلى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدى كالذي يتردد في الكنائس . وفي أقصى البهو كان يوجد سلم مستقيم . . وإلى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة ، وتؤدي إلى قاعة «البلياردو» التي كانت أصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها .

وبينما كانت «إيما» في طريقها إلى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة ، وقد استقرت ذقونهم فوق أربطة رقابهم العالية . . وكانوا جميعاً يحملون الأوسمة ، ويبتسمون في صمت وهم مكبّون على مائدة «البلياردو» . . وفوق الخشب الداكن الذي يكسو الجدران ، كانت ثمة إطارات مذهبة ، نقشت على حوافها السفلى أسماء بحروف سوداء ، قرأت «إيما» منها «جان أنطوان دو أندفيليه دي إيفربونفيل ، كونت دي فوبيسار ، وبارون دي فريناي ، الذي قتل في موقعة (كوترا) في ٢٠ تشرين الثاني/ أكتوبر سنة ١٥٨٧» . وقرأت تحت إطار آخر : جان أنطوان هنري غي دو أندفيليه دي فوبيسار ، أميرال فرنسا ، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل ، الذي جرح في موقعة (هوغ سان فاست) في ٢٩ أيار/ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومات في (فوبيسار) في ٢٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٦٩٣» . . أما بقية الأسماء ، فلم يسهل على «إيما» تبينها ، إذ كانت أضواء المصابيح المنعكسة من مائدة «البلياردو» الخضراء تلقي ظلالاً قاتمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الأفقية ، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة . . ومن

خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة بإطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك أجزاء أكثر وضوحاً في اللوحة : جبهة شاحبة ، أو عينان حادتان ، أو شعر مستعار يتهدل على الكتفين فوق ملابس حمراء . .

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت إحدى السيدات ـ وهي المركيزة نفسها ـ واستقبلت «إيما» وأجلستها في مقعد إلى جوارها ، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي ، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد ! . . كانت سيدة في نحو الأربعين ، أوتيت كتفين بديعتين ، وأنفاً حاداً ، وصوتاً ليناً . . وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي ـ في ذلك المساء ـ شالاً من «الدانتيلا» ، ينسدل على ظهرها في شكل مثلث . . وإلى جوارها ، كانت تجلس شابة ، في مقعد عالي الظهر ، ورجال حلّيت عرى ستراتهم بورود صغيرة ، وقد أخذوا في الحديث مع السيدات حول المدفأة .

*

أُعد طعام العشاء في الساعة السابعة ، فجلس الرجال ـ وكانوا أكثر عدداً من السيدات ـ حول المائدة الأولى في قاعة الطعام ، بينما جلست السيدات حول المائدة الثانية التي كان يرأسها المركيز والمركيزة .

وجلس في أقصى المائدة ـ وحيداً بين السيدات ـ شيخ انحنى على طبقه المليء ، وقد ربط منشفته إلى صدره كالطفل ، وأخذت قطرات «الصلصة» تتساقط من فمه وهو يأكل . . وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم . . ذاك كان والد زوجة المركيز : «دوق فرديير» المسن ، الذي كان ذا حظوة لدى «كونت دارتوا» فيما مضى ، أيام نزهات الصيد في (فودري) عند المركيز «دي كونفيان» . . والذي قيل إنه كان عشيقاً للملكة «ماري أنطوانيت» إلى جانب عشيقيها الآخرين «دي كويني» و«دي لوزون» !

وكان الدوق قد عاش حياة عربيدة صاخبة ، حفلت بالمبارزات والمراهنات ، وبالنساء اللواتي كان يغويهن . . وقد بدد ثروته ، وأزعج أسرته كلها !

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة ، التي كانت ترسل في جسد «إيما»

كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رأت الرمان في حياتها من قبل ، ولا أكلت الأناناس ! . . بل إن مسحوق السكر الناعم بدا لها أنصع بياضاً وأكثر نعومة منه في أي مكان آخر !

وما لبثت السيدات أن صعدن إلى حجراتهن ليتخذن أهبتهن للحفلة الراقصة . . فعنيت «إيما» بزينتها في دقة الممثلة التي تستعد لليلة ظهورها الأول ، ونسقت شعرها وفقاً لنصائح المزيّن ، وأخذت ترتدي ثوبها الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً على السرير ، بينما كان «شارل» يشد بنطلونه إلى وسطه . .

وقطع «شارل» الصمت قائلاً : «سوف يضايقني السير الجلدي ـ الذي يشد الحذاءين إلى البنطلون ـ في أثناء الرقص» .

فهتفت في استنكار : «الرقص؟ !» .

ولمّا أجاب : «نعم» ، قالت : «هل طاش عقلك؟ . . سوف يسخرون منك ! . . الزم مقعدك !» . . ثم أردفت : «إن هذا أليق بمكانتك كطبيب» !!

ولزم «شارل» الصمت ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ريثما تفرغ «إيما» من ارتداء ثيابها . . كان يراها من الخلف ـ على صفحة المرآة ـ بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها أشد سواداً مما عهدهما . . وخصلات شعرها المنسدلة في تموج على أذنيها تلمع ببريق أزرق ، وقد ثبتت في لفافة شعرها المكور في مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، تناثرت على أوراقها قطرات من الماء ! . أما ثوبها ، فكان ذا لون أصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعي أحيط بالخضرة . .

وتقدم «شارل» فطبع على كتفها قبلة . فما كان إلا أن هتفت : «ابتعد عني لئلا تلف اتساق ملابسي !» .

وسمعت «إيما» أنغام قيثارة ، ودويّ بوق ، فهبطت السلم وهي تمسك نفسها بعناء عن الجري . . وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت ، وأخذ المدعوون يتدافعون ، فجلست في مقعد مستطيل إلى جوار الباب . . حتى إذا

انتهت الرقصة ، خلت الحلبة إلا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون في زيهم الرسمي وقد حملوا الصحاف الكبيرة . . وعلى طول الصف الذي ضم النساء كانت المراوح تهتز ، وباقات الورد تحجب جانباً من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها ، وضغطت على معاصمها .

وخفق قلب «إيما» قليلاً عندما تقدمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف ، انتظاراً لحركة قوس عازف القيثار ، إيذاناً ببدء الرقص ، وقد أمسك زميلها بأطراف أناملها . . وما إن انسابت الأنغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت إلى الأمام على إيقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً . . وأخذت ترتسم على شفتيها ابتسامة ، تزداد اتساعاً كلّما أبدع عازف القيثار ، حين ينفرد بالعزف أحياناً وتكف الآلات الأخرى عن مشاركته ! . . كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الأخضر ، فوق موائد الميسر في الغرفة المجاورة . . ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود إلى العزف المشترك فجأة ، ويرسل البوق أنغامه الرنانة ، فتدق الأقدام في إيقاع ، وترفرف أطراف الأثواب الوسيعة وتتلامس ، بينما تتشابك الأيدي ثم تفترق . . والعيون التي تغض عنك لا تلبث أن تعود إلى التحديق في عينيك !

كان ثمة خمسة عشر رجلاً تقريباً ، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والأربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، أو يتبادلون الأحاديث عند الأبواب ، وقد امتازوا عن الباقين ـ على تباين أعمارهم وزيناتهم وأشكال وجوههم ـ بسيماء عراقة الأصل ! . . وبينما كانت أمارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج . . أما نظراتهم غير المكترثة ، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجد كل يوم رياً وإشباعاً ! . . ومن خلال حركاتهم الرشيقة ، كان ينبثق ذلك الاعتداد الذي يولده اعتياد السيطرة على ما في اليد من أشياء ، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصيلة . . ومصاحبة الغواني !

وعلى بعد ثلاث خطوات من «إيما» ، أخذ أحد فرسان حلبة الرقص ـ وكان في ثياب زرقاء ـ يتحدث عن إيطاليا ، إلى شابة شاحبة اللون تتحلى باللآلئ . . وراحا يعبران عن إعجابهما بضخامة أعمدة كنيسة القديس بطرس ، والتريفولي ، وبركان فيزوف ، والكاستلاماري ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم في ضوء القمر !

وبالأذن الثانية ، أخذت «إيما» تنصت إلى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها . . إذ أحاطت جماعة بشاب يافع كان جواده قد فاز في سباق الأسبوع الماضي ، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في إنكلترا . وكان بعض أفراد الجماعة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم ، بينما كان فريق آخر يشكو من أخطاء مطبعية حرّفت أسماء جيادهم في الصحف !

•

وهدأ صخب المرقص ، وأخذت أضواء المصابيح تخفت ، والجمع ينصرف إلى قاعة «البلياردو» . . وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج . . وإذ أدارت مدام «بوفاري» رأسها نحو الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع إلى ما يجري بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت إلى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة ، وأبيها تحت أشجار التفاح مرتدياً قميصه ! . بل إنها رأت نفسها ـ كما كانت في الماضي ـ تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن ! . . غير أن حياتها الماضية ـ التي كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة ـ سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب في أنها عاشتها يوماً ! . . ولم تعد تعيش إلاّ في حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها . . وأخذت تتناول المثلجات في كأس مطعمة بالذهب أمسكتها بيسراها ، وراحت تسبل أجفانها وهي ترفع الملعقة إلى فمها !

وكانت إلى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : «هل لك يا سيدي أن تتفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء

هذه الأريكة» . . وانحنى السيد . . وفيما كان يلتقط المروحة ، لمحت «إيما» السيدة تلقي في قبعته بشيء أبيض مطوي على شكل مثلث ، وما لبث السيد أن قدم المروحة باحترام إلى السيدة ، فشكرته بهزة من رأسها ، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء أخذت العربات ترحل تباعاً ، وأضواء مصابيحها تبدو ـ من خلف الستائر الحريرية ـ مترنحة في جوف الظلام . وبدأت المقاعد تخلو . . غير أن بعض المقامرين تخلفوا . . وراح الموسيقيون يلعقون أطراف أصابعهم ليرطبوها . . واستسلم «شارل» إلى شبه إغفاءة وقد أسند ظهره إلى أحد الأبواب . .

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدأ رقص «الكوتيون» . ولم تكن «إيما» على دراية برقصة «الفالس» ، بينما راحت بقية الحاضرات ـ حتى الآنسة دو أندفيليه والمركيزة نفسها ـ يرقصنها . . ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصاً تقريباً هم نزلاء القصر . على أن أحد راقصي «الفالس» ـ وكان شاباً يرتدي صداراً واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب ، ويدعوه القوم بلقب «الفيكونت» ـ تقدم من مدام «بوفاري» يدعوها لمراقصته ، مؤكداً لها أنه سيرشدها فلا تلبث أن تتقن الرقصة !

•

وشرعا يرقصان في بطء ، ثم ازدادت السرعة ، وأخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح ، وأثاث ، وجدران ، وأرض ! . . وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت أرجلهما ، وخفض بصره نحوها ، ورفعت هي بصرها نحوه ، وعلى الفور أحست بدبيب مخدر يسري في أعصابها ! . . وتوقفا عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه . . وإذا «الفيكونت» يقود «إيما» بحركة رشيقة إلى نهاية البهو ، حيث اختفى معها . وكانت قد أوشكت أن تسقط لاهثة الأنفاس ، فأسندت رأسها هنيهة إلى صدره . . ثم عاودا الدوران في حركة أهدأ من ذي قبل ، حتى عاد

«الفيكونت» بها إلى مكانهما الأول ، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط ، وغطت عينيها براحتيها !

وعندما فتحت عينيها من جديد ، رأت سيدة تجلس على مقعد في منتصف الصالون ، وقد انحنى أمامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها شريكة في الرقص ، ولم تلبث السيدة أن اختارت «الفيكونت» وعادت القيثارة إلى العزف . . واتجهت الأنظار إلى الراقصين اللذين أخذا يروحان ويجيئان ، وجسم السيدة ثابت في استقامته ، وذقنها منكسة إلى أسفل ، كذلك كان «الفيكونت» مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد رفع رأسه . . ولم يكن ثمة شك في أن السيدة تجيد «الفالس» . . وقد استمرا في الرقص وقتاً طويلاً حتى أنهكا الموسيقيين وبقية الراقصين !

•

انتهى الرقص . . ودار الحديث لبضع دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات الوداع ، أو بالأحرى ـ تحيات الصباح ـ ثم انصرف نزلاء القصر إلى مخادعهم . .

وصعد «شارل» السلم وهو يجر نفسه جراً ، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله ، بعد أن ظل واقفاً خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئاً ! . . وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من نعليه !

أما «إيما» ، فقد غطت كتفيها بالشال ، وفتحت النافذة على حافتها . .

كان الليل حالكاً ، والمطر يتساقط رذاذاً . . وأخذت «إيما» تستنشق – في نهم – الهواء الرطب الذي بعث في كيانها انتعاشاً . . وكانت موسيقى الرقص لا تزال تطن في أذنيها . . وجهدت لتظل ساهرة ، كي تمكن خيالها من أن ينعم ، أطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من مغادرتها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ، محاولة أن تتصور ما كان يجري في مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة الماضية ، وكأنها تود

لو عرفت حياتهم ، وتسللت إليها ! . . ثم فطنت إلى أنها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابها ، واندست تحت الأغطية إلى جوار «شارل» . . الذي كان قد استغرق في النوم !

وفي اليوم التالي ، حضر الغداء عدد كبير ، ولكن جلوسهم إلى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق . . وأدهش الطبيب أن لم تقدم خلال الوجبة أية خمور . . وما لبثت الآنسة «دو أندفيليه» أن جمعت قطعاً من الخبز في سلة لتحملها إلى البجع في بركة الماء . . بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي أعدت لإنماء نباتات المناطق الحارة ! . .

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة إلى حظائر الخيل ، على سبيل التسلية وتمضية الوقت . . وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المذاود الشبيهة بالسلال ، تحمل أسماء الخيول بحروف سوداء . . وكانت كل دابة تتحرك في مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر أحد على مقربة منها . . وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنها أرضية صالون . . وكانت أطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عمودين ملتفين ، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط . .

وفي تلك الأثناء ، ذهب «شارل» يرجو خادماً أن يعد عربته التي كانت قد اقتيدت إلى المدخل . . حتى إذا حملت إليها الحقائب ، قدم الزوجان «بوفاري» تحياتهما إلى المركيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين إلى (توست) .

•

راحت «إيما» ترقب في صمت العجلات وهي تدور ، بينما كان «شارل» يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الساقين ، والجواد الصغير يخب بين ذراعي العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضربات منتظمة . .

وعندما وصلا إلى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر أمامهما فجأة عدد من

الفرسان يتضاحكون ولفافات السيجار في أفواههم . . وخيل لإيما أنها تعرفت بينهم على «الفيكونت» فالتفتت ، غير أنها لم تر في الأفق سوى رؤوس تتحرك في ارتفاع وانخفاض ، مع حركات الخيل في عدوها وخببها . .

وما إن قطعا نصف المسافة حتى اضطرا إلى التوقف ، كي يصلا بالحبال ما انقطع من «السير» الذي يربط الجواد إلى العربة . . وفيما كان «شارل» يلقي نظرة أخيرة على الطاقم بعد أن أصلحه ، لمح بين قوائم الجواد ـ على الأرض ـ حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن أنها لشخص من ذوي الألقاب فقال : «إن بها سيجارين سأدخنهما بعد العشاء الليلة» .

فسألته «إيما» : «إذاً فأنت تدخن !» .

قال : «أحياناً . . عندما تسنح لي فرصة» .

ووضع «غنيمته» في جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذي اندفع بالعربة . .

ولم يجدا العشاء معداً حين بلغا دارهما ، فاحتدت «إيما» ، ولـمّا أجابتها الخادم «نستازي» في قحة . . صاحت بها :

ـ اخرجي من هنا ! . . هذه وقاحة مشينة ! . . أنت مطرودة من هنا !

وتحولت تعد العشاء بنفسها . . وكان يتكوّن من حساء بالبصل ، وقطعة من لحم العجول . . وجلس شارل أمام «إيما» يفرك يديه ويقول في غبطة : «ما أمتع أن يعود المرء إلى داره !» .

وتناهى إليهما صوت «نستازي» وهي تبكي . . وكان «شارل» ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التي مرت به أيام حزنه ، كما كانت أول من عرفه من أهل المنطقة ، حين بدأ يمارس مهنته فيها . . فلم يلبث أن سأل زوجته : «أحقاً طردتها؟» .

وردت «إيما» في حنق : «أجل . . من يمنعني من ذلك؟ !» .

وبعد العشاء ، التمسا الدفء في المطبخ ، حيث أخذ «شارل» يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق في كل لحظة ، ويضطجع في استمراء عند كل نفثة

دخان ! . . فما لبثت «إيما» أن قالت له في استهجان : «سوف تؤذي نفسك» ! . . ومن ثم وضع السيجار جانباً ، ثم جرى إلى المضخة ينشد كوباً من الماء البارد . . وإذ ذاك تناولت «إيما» حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان . .

*

وبدا لها اليوم التالي طويلاً ، فأخذت تمشي في حديقتها الصغيرة جيئة وذهاباً ، متوقفة من حين إلى آخر أمام الأحواض أو عرائش الكروم أو تمثال القش المصنوع من الجص ، تتأمل في دهشة هذه الأشياء القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل . . لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة ! . . ترى من ذا الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها؟ ! . . لقد تركت رحلتها إلى (فوبيسار) ثغرة في حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال أحياناً ، في ليلة واحدة !

على أنها تقبّلت الواقع في استسلام ، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان ، وبينها حذاءاها الحريريان ، وقد اصفر نعلاهما من أثر الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق أرض حلبة الرقص ! . . تماماً كما انطبع في قلبها ـ بعد احتكاكه بالثراء ـ أثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت ـ حين تستيقظ في صباح الأربعاء من كل أسبوع ـ تهمس لنفسها : «آه ! . . لقد انقضى عليها أسبوع . . مضى أسبوعان . . مرت ثلاثة أسابيع . . مذ كنت هناك !» . . وشيئاً فشيئاً ، أخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل في ذاكرتها ، فنسيت ألحان الرقص ، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات في وضوح . . فقد ذهبت بعض التفصيلات . . وبقيت لها الحسرات !

- ٩ -

كَثُرَ ما كانت «إيما» تسعى إلى الصوان ـ إذا ما غادر «شارل» المنزل ـ فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التي دستها بينها ،

وتروح تتأملها ، وتفتحها . . بل إنها كانت تتنشّق رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ ! . . ترى لمن كانت تلك الحافظة؟ . . أتراها كانت للفيكونت؟ ! . . لعلها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها له على إطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيداً عن أعين الفضوليين جميعاً ! . . ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالاً ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج . . ولا بد أن نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من إبرتها أملاً أو ذكرى ! . كان الخيوط الحريرية في امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت ! . . حتى إذا فرغت منها في النهاية ، حملها «الفيكونت» ! . . ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الإطار العريض ، بين أصص الزهور وساعات «بمبادور» البندولية ؟!

وكانت «إيما» ترتد من هذا الحلم إلى التفكير في نفسها . . ها هي ذي في (توست) و«الفيكونت» في باريس . . بعيداً . . ترى كيف هي باريس؟ . . يا للاسم العظيم ! . . وراحت ترى ترده لنفسها هامسة وهي تستشعر متعة في تكراره ! . . . كان يرن في أذنيها رنين ناقوس الكنيسة . . بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يترامى حتى يصل إلى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون في الليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون أناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصغي إلى قرقعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها في النهاية ، بعد أن تبارح العربات البلدة . . وعندئذ تحدث نفسها قائلة : «لسوف يصلون إليها غداً !» . .

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع بأصبعها معالمها ، وتقوم بجولات وهمية في أحيائها : تسير في الشوارع الكبيرة ، وتقف عند الأماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل . . حتى إذا تعبت عيناها ، أطبقت أجفانهما . . وإذ ذاك ، كانت ترى على صفحة

الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها ، وأبواب العربات تفتح في صخب أمام أبهاء المسارح !

واشتركت في صحيفة «الاكوربي» - النسوية - ومجلة «سيلف»(*) الاجتماعية ، وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما ، دون أن تغفل كلمة من أنباء حفلات العرض الأول للمسرحيات ، وحفلات السباق والسهرات . . وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، أو بافتتاح متجر ! . . وأخذت تتعرف كذلك على الأزياء الحديثة ، وتحفظ عناوين أمهر الحائكين والحائكات ، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي أن يخرج فيها للنزهة في الغابة ، أو للسهر في الأوبرا ! . . وقرأت لبلزاك(**) وجورج صاند(***) وهي تنشد إشباعاً وهمياً لمطامعها الشخصية ! . . وبلغ من شغفها هذا أن كانت تحمل كتابها معها إلى المائدة وتقلّب صفحاته ، بينما يكون «شارل» منهمكاً في الأكل والحديث . . وكانت ذكرى «الفيكونت» لا تفتأ تعاودها في أثناء قراءاتها ، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات . على أن الدائرة التي كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئاً فشيئاً . . وأخذت هالة الرواء ، التي أحاطته بها ، تفارقه رويداً رويداً لتمتد إلى مسافات أبعد ، حيث تضيء أحلاماً أخرى !

وهكذا باتت «إيما» ترى باريس أكثر اتساعاً من المحيط ، وقد راحت تتألق أمام عينيها في جو قرمزي !

*

لكنّ ألوان الحياة المصطخبة في هذا الخضم ، كانت - عند «إيما» - مقسمة إلى أجزاء ، ومرتبة في لوحات متباينة . . . ولم تكن «إيما» تتبيّن من العوالم التي تضمها باريس سوى اثنين أو ثلاثة تطغى على ما عداها ، كما لو كانت الإنسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ، يخطرون فيها فوق أرض لامعة ، في صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضوية

(*) Sylphe وتعني الحورية ، أو الجنية .
(**) أونوريه دو بلزاك ، قصصي فرنسي (١٧٩٩ - ١٨٥٠) .
(***) جورج صاند اسم عرفت به الأديبة الفرنسية أورور دوبين (١٨٠٤ - ١٨٧٦) .

مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب ! . . وفي هذا العالم أثواب ذات ذيول جرارة ، وأسرار خطيرة ، ومآس تختفي وراء الابتسامات ! . . ويلي ذلك ، عالم الدوقات . . حيث تكتسي الوجوه شحوباً ، ويستيقظ الرجال في الساعة الرابعة ! . . وترتدي النساء أثواباً وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة . . أما ما عدا هذه من عوالم ، فقد كان في نظر «إيما» مضيعاً ، تائهاً ، لا مكان له ولا وجود !

وكانت «إيما» من أولئك اللاتي يزهدن في أقرب الأشياء إليهن . . فكلما قربت الأشياء منها ، ازدادت نفسها عنها نفوراً . . فكل ما يحيط بها مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية . . . كل هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة ، ومصادفات خاصة «تورطت» فيها . . بينما كان يمتد خلفها جميعاً ـ وإلى ما لا نهاية ـ عالم اللذات والانفعالات !

واختلطت في أحاسيسها من ثمَّ لذات البذخ المادية بمسرات القلب ، ورقي العادات برقة المشاعر . . أفلا يحتاج الحب ـ كما تحتاج نباتات الهند ـ إلى تربة خصبة ودرجة حرارة معيّنة؟ . . فالزفرات في ضوء القمر ، والعناق الطويل ، والدموع التي تنهمر على الأيدي المستسلمة ، وحمى الجسد ، ورقة الحنان . . . كل هذه أمور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية ، والطنافس السميكة ، وأصص الزهور ، والأسرة المقامة على منصات مرتفعة عن أسطح الأرض ، وبريق الأحجار الكريمة .

*

كان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس ، فيعبر المدخل في حذاءيه الخشبيين الكبيرين وسترته التي تتخللها الثقوب ، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء به ! . . فإذا انتهى من عمله ، انصرف إلى حيث لا رجعة له بقية النهار ، إذ إن «شارل» كان يتولى بنفسه ـ عند عودته ـ إيواء الفرس في الحظيرة ، ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل إليها الخادم حزمة من

القش ترميها في المذود كيفما اتفق !

وكانت «نستازي» المطرودة قد غادرت (توست) أخيراً ، وهي تذرف الدمع مدراراً ، فاستعاضت «إيما» عنها بفتاة في الرابعة عشرة ، يتيمة ، مليحة القسمات ، حظرت عليها لبس «الطاقية» القطنية ، وعلمتها كيف تخاطبها في احترام ، ودربتها على أن تحمل كوب الماء في طبق ، وأن تطرق الباب قبل الدخول ، وأن تكوي الثياب وتكسوها بالنشاء ، وأن تساعدها على ارتداء ثيابها . . كل ذلك لأنها أرادت أن تجعل منها وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجديدة أن تطيع في غير تذمر حتى لا تطرد ! . . وإذا كانت السيدة قد ألفت أن تترك المفتاح في خزانة المطبخ ، فإن «فليسيتيه» ـ الخادم ـ كانت في كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها ، حين تخلو إلى نفسها في فراشها ، بعد أن تؤدي الصلاة ! . . أما في الفترات التي كانت السيدة تلزم فيها مخدعها في الطابق العلوي ـ بعد ظهر كل يوم ـ فكانت الفتاة تسعى أحياناً إلى السياس الموجودين في المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم أطراف الحديث !

وابتاعت «إيما» أوراقاً للكتابة ، وأوراق نشاف ، وريشة ، ومظاريف وورقاً للرسائل ، وإن لم يكن ثمة من تكتب إليه ! . . وكانت تنفض الغبار عن الرف ، وتتطلع في المرآة ، ثم تتناول كتاباً فلا تلبث أن تراودها الأحلام بين سطوره فتنشغل عنه ويسقط بين ركبتيها ! . . وأخذت تتوق إلى القيام برحلات ، أو إلى العودة للدير كي تعيش فيه ! . . كانت تتمنى المتناقضات في آن واحد . . أن تموت . . وأن تعيش في باريس !

أمّا «شارل» فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية ـ المفضية إلى المزارع والقرى ـ تحت المطر والجليد ، يأكل «العجة» على موائد الريف ، ويدس يديه في الأسرّة الرطبة التي يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافئ المنبثق من الفصاد ، ويسمع الحشرجات ، ويفحص البطون ، ويرفع الثياب القذرة عن أجساد المعلولين ! . . لكنه كان يجد في كل مساء ناراً

مستعرة ، ومائدة معدة ، وأثاثاً مريحاً ، وزوجة في أبدع زينة ، تتضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه : أهو قميصها ، أم بشرتها؟ !

وكانت تفتنه بمبتكراتها ، التي كانت تتمثل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حيناً آخر في ثنية تغير موضعها في ثوبها ، أو في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام أخفقت الخادم في صنعه ، فلا يصد إخفاقها «شارل» عن التهام الصنف حتى يأتي عليه كله !

ورأت «إيما» في (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلي الزائفة ، فابتاعت حلياً زائفة ! . . ورأت أن تزين رف مدفأتها بآنيتي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث أن ضمت إليهما صندوقاً من العاج لأدوات الحياكة ، و«كشتباناً» من العقيق ! . . وكان «شارل» كلما ازداد عجزاً عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة كلما ازداد انصياعاً لسحرها ، إذ كانت تضفي على حواسه لذة ، وعلى داره رواء . . وكأنها غبار ذهبي ينتثر على طول طريق حياته الضيق !

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقاً ، وشهرته مستقرة منيعة ! . . كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطرساً ، بل كان يداعب أطفالهم ! . . ولم يكن يغشى الحانات . . وكان في خلقه ـ فوق ذلك ـ ما يوحي بالثقة والطمأنينة . . وقد نجح ـ بوجه خاص ـ في علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية ! . . والواقع أن «شارل» كان يخشى دائماً أن يقتل مرضاه ، ولذلك لم يكن يوصي لهم إلا بالعقاقير المهدئة للألم ! ! . . وكان يوصي ـ بين حين وآخر ـ بشراب مقيّئ ، وبحمام القدم ، وباستخدام العلق (الدود) الذي يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف في فصدهم بالعلق في سخاء ، وكأنهم جياد ! . . أما في اقتلاع الأضراس ، فقد كانت له قبضة حديدية !

*

ورأى كي يظل على دراية بما يستحدث في الطب ، أن يشترك في مجلة

«الخلية الطبية» بعد أن تسلّم إعلاناً عنها . وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب العشاء ، ولكن دفء الغرفة ، والاسترخاء الذي يدب في الجسم في أثناء عملية الهضم ، كانا يسلمانه إلى النوم بعد خمس دقائق . . فيظل مسترخياً ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل ـ كالعرف ـ حتى أسفل المصباح ، و«إيما» ترقبه ، ثم تهز كتفيها ! . . لماذا لم تحظ بزوج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون في النهاية ـ إذا ما بلغوا الستين ، سن «الروماتيزم» ـ وساماً على شكل الصليب ، فوق بزاتهم السوداء؟ . . لكم كانت تشتهي أن يغدو اسم «بوفاري» ذائعاً ، وأن تراه معروضاً عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه فرنسا بأسرها !

بيد أن «شارل» لم يكن يعرف الطموح أبداً !

ولقد حدث أن أهانه يوماً طبيب من (إيف تو) ـ اجتمع معه للتشاور ـ أمام فراش مريض ، وعلى مسمع من أقاربه المحيطين بهما ، فلمّا روى الحادث لإيما في المساء ، ثارت في حنق على ذلك الزميل إلى درجة جعلت «شارل» يتأثر بالفعل ، ويقبّلها في جبينها وهو دامع العينين . . ولكنها كانت تغلي لفرط إحساسها بالخزي لما ناله ، حتى لقد ودّت لو تضربه ! . . ولكنها لم تملك إلاّ أن تسير إلى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها . . وأخذت تعض شفتها وتردد في صوت خفيض : «يا له من رجل مسكين ! . . يا له من رجل مسكين !» .

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات . . فقد أخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدّم السن . . كان يلهو ـ عند تناول الحلوى ـ بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة . . وكان يلعق أسنانه بلسانه بعد الأكل . . كما كان يرشف الحساء بصوت منكر . . ولما كانت البدانة قد أصابته ، فإن وجنتيه المتفختين دفعتا بعينيه الصغيرتين إلى أعلى نحو الصدغين !

وكانت مع هذا كله لا تني تنتظر في أعماق نفسها حدثاً ما ! . . كانت ، كالملاح التائه ، تسرح ببصرها القانط في وحشة حياتها ، بحثاً عن شراع أبيض

في ضباب الأفق البعيد ! . . وما كانت تدري كنه ذلك الحدث ، ولا أي ريح ستسوقه إليها ، ولا إلى أي شاطئ سيدفعها . . وهل هو زورق ، أو سفينة ذات ثلاثة طوابق . . وهل يكون مفعماً بالأسى ، أو طافحاً بالهناءة ! . . ولكنها كانت إذا استيقظت في كل صباح تمنت لو يواتيها في يومها .

وجاء الربيع مرة أخرى ، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التي تهب حين تزهر أشجار الكمثرى . . حتى إذا بدا شهر تموز/ يوليو ، أخذت تعد الأسابيع على أصابعها في ارتقاب شهر تشرين الأول/ أكتوبر ، على أمل أن يقيم «المركيز دو أندفيليه» حفلاً راقصاً آخر في (فوبيسار) ! . . بيد أن شهر أيلول/ سبتمبر انصرم دون خطابات أو دعوات !

*

وشعرت مرة ثانية ـ بعد انقضاء المرارة التي خلفتها خيبة الرجاء ـ بفراغ في فؤادها . . وبدأت من جديد سلسلة الأيام الرتيبة الرهيبة ، التي لا تتغير ، ولا تأتي بجديد ! . . لقد كان يصادف حياة سواها ـ مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة ـ حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف . . ولقد تؤدي مغامرة واحدة ـ أحياناً ـ إلى سلسلة لا تنتهي من الأحداث التي تغيّر نمط الحياة . . أمّا هي ، فلم يكن يصادفها شيء . . كما لو كانت تلك هي إرادة الله ! . . كان المستقبل يمتد أمامها كسرداب مظلم ينتهي بباب محكم الإغلاق !

وكان أن أهملت الموسيقى . . فلماذا تعزف ، ومن ذا الذي يسمعها؟ ! . . لم يكن ثمة ما يدعو إلى بذل الجهد في المران ، ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح «البيانو» العاجية في حفل عام ، وقد ارتدت ثوباً من المخمل قصير الكمين ! . . كذلك أبقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان . . فما جدواها؟ . . وأي نفع منها؟ . . أمّا الحياكة ، فقد أصبحت تثير أعصابها ! . . حتى القراءة ؛ انصرفت عنها قائلة لنفسها : «لقد قرأت كل شيء . . كل شيء !» .

*

وأقبل الشتاء قاسياً ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كل صباح ، فيبدو ـ حين يخترقه الضوء ـ كالزجاج «المصنفر» . وفي ذلك الجو المتجهم ، كان لا بد من إضاءة المصباح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر .

وكانت «إيما» تهبط إلى الحديقة في الأيام الرائقة ، فإذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشياً من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى أخرى . . ولم تكن زقزقة العصافير تتردد ، بل كان كل شيء يبدو مخلداً إلى النوم ، وحده تمثال القس ذي القلنسوة كان ماضياً في قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قروحاً بيضاء !

ولا تلبث «إيما» أن تصعد إلى مخدعها فتغلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث في نفسها مللاً تخاله ثقلاً فادحاً يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم ، لولا أن يمنعها الحياء !

وكان صبرها يغدو أقرب ما يكون إلى النفاد والانهيار في أوقات الوجبات ، في تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضي ، حيث الموقد الذي لا ينفك عن إرسال الدخان ، والباب الذي يبعث صريراً ، والجدران المنداة ، والأرضية الرطبة . . كان يخيل لها إذ ذاك أن مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها ! . . ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الإعياء والضيق ! . . ولـمّا كان «شارل» بطيئاً في الأكل ، فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة ، أو تعتمد بمرفقيها على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على غطائها !

وراحت تهمل كل شيء في دارها . . فلمّا أقبلت مدام «بوفاري» الأم إلى (توست) لتقضي بضعة أيام في أثناء الصوم ، راعها هذا التغير ، فإن «إيما» التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ، حريصة على أناقتها ، أصبحت تمكث أياماً بطولها دون أن ترتدي ملابس زينتها ، وهي تروح وتغدو في جوربين

ومادين من القطن . . كما أصبحت تقتصر على استخدام الشموع في إضاءة البيت ، مرددة أن لا بد من الاقتصاد لأنهم ليسوا من أهل الثراء ! . . وكانت تضيف إلى هذا أنها سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضى ، وأن (توست) تروق لها . . وأمثال هذه العبارات الجديدة التي كانت تغلق فم حماتها عن اللوم !

على أن «إيما» أضحت ـ إلى جانب ذلك ـ تبدي عدم استعداد لتقبل إرشادات حماتها ! . . وقد حدث مرة أن بدا لمدام «بوفاري» الأم أن تشير إلى أن من واجب المخدومين أن يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين ، فأجابتها «إيما» بنظرة تتّقد غضباً ، وابتسامة تفيض برودا ، ما حدا بالسيدة إلى أن تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !وأصبحت «إيما» حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الأطوار . . فهي تطلب ألواناً معينة من الطعام ثم لا تقربها . . وقد تصر يوماً على أن لا تتناول سوى اللبن الصافي ، ثم تقبل في اليوم التالي على شرب عشرات من أقداح الشاي ! . . وكانت تقرر أحياناً عدم الخروج فتضيق أنفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدي ثوباً خفيفاً ! . . وكانت تعنف مع الخادم ، ثم لا تلبث أن تسترضيها بالهدايا ، أو ترسلها للنزهة لدى الجيران ! . . كذلك كانت أحياناً تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من نقود فضية ، رغم أنها لم تكن يوماً رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات المعوزين !

*

وفي نهاية شهر شباط/ فبراير تقريباً ، حمل الأب «روو» ـ بنفسه ـ إلى صهره ديكاً رومياً بديعاً ، رمزاً لذكرى شفائه ، وأقام في (توست) ثلاثة أيام ، ولـمّا كان «شارل» في تلك الأثناء مشغولاً بمرضاه ، فقد بات على «إيما» وحدها عبء مصاحبته ، فأمضّها منه أنه كان يدخن في الغرفة ، ويبصق في المدفأة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والأبقار والدجاج والمجلس البلدي . . حتى لقد عجبت من نفسها إذ أحست بشعور من الارتياح يداخلها حين أغلقت الباب خلفه عقب رحيله ! . . والواقع أنها لم تعد تتحرج من أن تبدي

احتقارها لشيء أو ازدراءها لأحد . . وكانت تصدر عنها أحياناً آراء غريبة ، فتنتقد ما يرضاه الناس ، وتحبذ أموراً لا تستقيم مع الأخلاق ، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولاً !

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : أيلازمها هذا البؤس أبد السنين؟ ! . . أوليس هناك من مخرج؟ ! . . إنها لا تقل عن أولئك اللاتي يعشن في سعادة . . بل لقد رأت في (فوبيسار) دوقات أسوأ منها قواماً ، وأقل رقة وتهذيباً ! . . وأخذت تسخط على ظلم الأقدار . . وتسند رأسها إلى الجدار لتبكي ! . . كانت تحسد أولئك الذين يحظون بحياة صاخبة ، ويقضون الليالي في حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يثير سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها إلى الشحوب ، واضطربت دقات قلبها ، فأعطاها «شارل» دواء يهدئ أعصابها ، ووصف لها حمامات الكافور . . ولكن محاولاته لم تزدها إلاّ هياجاً ! . . وكانت في بعض الأيام تثرثر في فيض محموم ، ثم لا يلبث أن يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجئ ، لا تنطق خلاله بلفظ ، ولا تأتي بحركة . . ولم يكن ينعشها في تلك اللحظة سوى زجاجة من ماء «الكولونيا» تسكبها على ذراعيها !

وإذ أخذت تشكو من جو (توست) بلا انقطاع ، فقد حدس «شارل» أن مرضها ناشئ عن سبب محلي ، ورسخ في نفسه هذا الرأي ، حتى أنه أخذ يفكر جدياً في أن يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه .

ومن ثمّ عمدت إلى شرب الخل لتزداد نحافة ، فأصيبت بسعال بسيط جاف ، وفقدت شهيتها إلى الطعام تماماً ! . . وكان يعز على «شارل» أن يرحل عن (توست) بعد أن أقام بها أربع سنوات توطد خلالها مركزه . . ولكنه مع ذلك لم يلبث أن خضع لأحكام الضرورة ، عندما صحبها إلى أستاذه القديم في (روان) ، فتبيّن له ـ بعد أن فحصها ـ أنها تعاني من مرض عصبي ، لا بد لعلاجه من أن تبدل الجو الذي تعيش فيه !

وراح «شارل» يتحرى هنا وهناك ، حتى علم أن في مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (أيونفيل ـ الدير) غادرها طبيبها ـ وكان من البولانديين اللاجئين ـ منذ أسبوع ، فكتب إلى صيدلي القرية يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التي تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب ، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام . . إلى ما هنالك ممّا يهمّه . ووجد في الرد ـ حين جاءه ـ ما أرضاه ، فقرر أن ينتقل إلى تلك القرية في الربيع التالي ، إذا ظلت صحة «إيما» دون أي تحسن !

وفيما كانت «إيما» تستعد للسفر ، أصيب أحد أصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها ، وهي ترتب أحد الأدراج ذات يوم . كانت براعم البرتقال ـ في الباقة ـ قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، وأخذت الأشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل . . ولم تحجم «إيما» عن إلقاء الباقة في نار المدفأة ، فإذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف . . وما لبثت النيران أن التهمتها ، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الأسلاك ، وانصهرت الأشرطة المعدنية ، وتيبست أوراق الزهر الصناعي . . ثم أخذت أشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الأسود . . وما لبث أن تطايرت خلال المدفأة !

وعندما غادر الزوجان (توست) في شهر آذار/ مارس ، كانت مدام «بوفاري» حاملاً !

القسم الثاني

- ١ -

لم يكن في منطقة «نيو شاتل» ـ حتى سنة ١٨٣٥ ـ طريق ممهد يفضي إلى (أيونفيل) . بيد أن طريقاً ريفياً فرعياً أُنشئ في ذلك العام ، فوصل بين طريقي (أبفيل) و(أميان) ، وأصبحت تجري عليه أحياناً عربات النقل الذاهبة من (روان) إلى (الفلاندر) . .

على أن (أيونفيل – الدير) ظلت على حالها ، بالرغم من الإصلاحات الجديدة ، فبدلاً من أن ينشط أهلها لتحسين الزراعة بها ، ظلوا متشبثين بالمراعي على انخفاض دخلها وقيمتها . وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل ، وتتبع في اتساعها مجرى النهر ، حتى أن الرائي يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقر يقيل على حافة الماء !

وعند نهاية جسر مقام على النهر ـ في أسفل الهضبة ـ يمتد طريق تحف بجانبيه أشجار الحور الصغيرة ، يفضي بك مباشرة إلى طليعة منازل القرية . . وهي بيوت تحيط بها أسوار ، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الأشجار المتشابكة التي تستند إليها سلالم متنقلة ، أو تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمناجل . .

وكانت الأسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها ، إذ كانت تكاد تخفي ثلث النوافذ المنخفضة ، التي كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه في عقدة كقاع الزجاجة . . وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة أعمدة خشبية سوداء ، كنت ترى أحياناً شجرة من شجيرات الكمثرى الهزيلة . . وعند الباب الخارجي لكل دار كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذي يتسلل إلى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح . . وكلما تقدمت في السير نحو القرية كلما صغرت أفنية الدور ، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها . . وقد ترى هنا حزمة من نبات «السرخس» تهتز في نهاية عصا

مكنســة تحت إحدى النوافذ . . وهناك حانوت بيطار ، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة . . وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد أمامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال «كيوبيد» وإحدى أصابعه على شفتيه . . وإلى جانبي قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس . . وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن أن هذا بيت موثق العقود . . أجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة ، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، يحتضنها سياج في ارتفاع صدر الإنسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى أصبحت الأحجار القديمة في مستوى الأرض ، تؤلف فيما بينها رصيفاً طويلاً ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلى مربعات . . وكان مبنى الكنيسة قد جدّد في عهد شارل العاشر ، فأخذ سقفها الخشبي يبلى عند قمته . . وفي المكان المخصص للأرغن ـ فوق الباب ـ أقيمت شرفة للرجال ، يؤدي إليها سلم حلزوني يهتز تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط في انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت ـ هنا وهناك ـ بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة «مقعد السيد فلان» . وعلى مسافة قليلة ، يضيق دهليز الكنيسة ، ثم يقوم كرسي الاعتراف إلى أحد الجانبين ، وإلى الجانب الآخر تمثال للعذراء في ثوب من الحرير ، وعلى رأسها نقاب من التول مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر كما لو كانت وثناً من أوثان جزر «سندويتش» ! ! . . وأخيراً ، تطل على المذبح المرتفع صورة «الأسرة المقدسة ـ مهداة من وزير الداخلية» ، بين أربعة شمعدانات . أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت باهتة دون طلاء .

•

وكانت السوق ـ أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على

عشرين عموداً تقريباً ـ تشغل حوالى نصف الميدان العام في «أيونفيل» . . أما دار البلدية ـ التي شيدت وفقاً لرسم أعده مهندس من باريس ـ فكانت تشبه معبداً إغريقياً ، وترسم مع حانوت الصيدلي شكل زاوية . وكانت في الطابق الأرضي ثلاثة أعمدة يونانية . . وفي الطابق الأول بهو نصف دائري تعلوه قبة يشغلها تمثال «ديك الغال» ، وقد اعتمد على قائمة استقرت على وثيقة الدستور ، بينما أمسك بقائمته الأخرى ميزان العدالة !

على أن أكثر ما كان يسترعي الانتباه ، هو صيدلية السيد «هوميه» التي تقع في مواجهة فندق «الأسد الذهبي» . . ولا سيما في المساء حين يضاء المصباح فيرسل أشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء ، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون . . وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكئ إلى مكتبه يبدو كما لو كان غارقاً في أضواء القوارير ! . . وكانت داره مكسوة بإعلانات كتبت بخط اليد أو بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة .

ولم يكن ثمة ما يشاهد في «أيونفيل» عدا ذلك ، فإن الشارع الأوحد ـ الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت على جانبيه ـ كان لا يلبث أن ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي . . فإذا تركه المرء وانحرف إلى اليمين في محاذاة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل إلى المقابر . . وكان القوم ، عندما تفشت «الكوليرا» ، قد هدموا جانباً من جدارها ، وضموا إليها بضعة أفدنة لتوسيعها ، بيد أن القطعة الجديدة بقيت شبه خالية ، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل .

ولم يتغير شيء في «أيونفيل» منذ ذلك الوقت . فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصفيح ، يدور فوق الكنيسة . . وما زالت ترفرف على متجر الأقمشة رايتان من البفتة . . والأجنة التي يحتفظ بها الكيميائي محنطة كحزم الصوفان الأبيض آخذة في التحلل يوماً بعد يوم في كحولها المعكر ! . . وما زال تمثال الأسد الذهبي الحائل اللون يقعي على الباب الأمامي للفندق ،

يطالع المارة بلبدته الشبيهة بفروة الكلب !

*

وفي مساء اليوم الذي كان مقدراً أن يصل فيه «بوفاري» وزوجته إلى «أيونفيل» ، كانت الأرملة «لو فرانسوا» ـ صاحبة الفندق ـ كثيرة المشاغل إلى حد أن العرق أخذ ينضح منها في قطرات كبيرة وهي تروح وتغدو بآنية المطبخ ! . . كان اليوم التالي هو يوم السوق ، ولا بد من أن تقطع اللحم مقدماً ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة . كما كان عليها ـ فوق ذلك ـ أن تجهز للنزلاء غداءهم ، وأن تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء . . وكانت تتردد في قاعة «البلياردو» ضحكات صاخبة ، وفي غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون في طلب الخمر ! . . وكانت النار تتأجج في خشب الموقد ، والآنية النحاسية تئز فوقها بعد أن بدأت محتوياتها في الغليان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة ، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التي كانت أوراق «السبانخ» تقطع فوقها . . ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجاج الذي كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه !

ووقف بجوار المدفأة ـ يدفئ ظهره ـ رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري ، وقد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات «شرابات» ذهبية . . ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم إلا الرضى عن نفسه ، وقد بدا أنه مطمئن إلى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه . . كان ذلك الرجل هو : الصيدلي !

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفندق : «أرتميز . . شقي بعض الخشب ، واملأي الدوارق ، وأحضري بعض الخمر ، وأيقظي حواسك . . آه ، لشد ما أنا حائرة في اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه ! . . يا للسماء الرحيمة ! . . ها هم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم في غرفة «البليادرو» بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب ! . . إن

«العصفورة» ـ (اسم عربة) ـ قد تصطدم بها إذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها إلى الحظيرة . . تصور يا مسيو هوميه أنهم لعبوا نحو خمسة عشر دوراً منذ الصباح ، وشربوا ثماني زجاجات من نبيذ التفاح ! . . إنهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة «البليياردو» !

وأخذت تتأملهم عن كثب ، بينما أجاب السيد هوميه : «لن يكون الضرر كبيراً ، فإنك منقادة حتماً إلى شراء غيرها» .

فهتفت الأرملة مأخوذة : «منضدة أخرى للبلياردو؟» .

ـ أجل ، إذ إن هذه أوشكت أن تتداعى يا مدام «لوفرانسوا» . . إنني أكرر ما قلت من قبل ، فإنك تؤذين نفسك أبلغ إيذاء ! . . ثم إن اللاعبين يطلبون الآن جيوباً ضيقة وعصياً ثقيلة للبلياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسي الآن . لقد تغيّر كل شيء ! يجب أن يجاري المرء الزمن ! . . ألا فانظري إلى «تلييه» !» .

فقطعت عليه صاحبة النزل حديثه قائلة ، وهي تهز كتفيها السمينتين : «إن الصعاليك أمثاله لا يزعجونني . . على رسلك يا مسيو هوميه ! . . لسوف يفد الناس على فندق «الأسد الذهبي» طالما ظل على قيد الوجود . . ليس لدينا ما يدعو إلى القلق ، في حين أنك لن تلبث أن ترى فندق المقهى الفرنسي يوماً مغلقاً ، وقد سمرت أبوابه» ! . . واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : «أغيّر «بلياردي» ! . . المائدة التي أعتمد عليها في طي الغسيل ، والتي هيأت فوقها فراشاً لستة نزلاء في موسم الصيد ! . . ولكن ذلك المتسكع «هيفير» لم يصل بعد . .» .

ـ هل ترجئين العشاء لنزلائك حتى وصوله؟

ـ وهل أملك هذا؟ . . ماذا يفعل السيد بينيه؟ . . ما إن تبدأ الساعة في إعلان السادسة حتى تراه مقبلاً ، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد ! . . ولا بد من أن يكون مقعده معداً في قاعة الجلوس الصغيرة ، فإنه يؤثر الموت على أن يتناول العشاء في أي مكان آخر . . وهو حريص على

الدقة ، شديد العناية باختيار شرابه ! فهو ليس مثل السيد «اليون» الذي يفد أحياناً في السابعة ، بل وفي السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم إليه من طعام . . ما أظرفه ! . . إنه لم يتلفظ مطلقاً بكلمة نابية !» .

ـ لا أشك في أنك تدركين أن ثمة فارقاً شاسعاً بين الرجل المثقف وبين جندي متقاعد أصبح اليوم محصلاً !

*

ودقت الساعة معلنة السادسة ، فدخل «بينيه» . . كان يرتدي سترة طويلة زرقاء تستوي على جسده الناحل في استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت إلى رأسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثراً عليه ! . . وكان يرتدي كذلك صداراً أسود وياقة من الفرو وسروالاً رمادياً . . ثم حذاءين بالغي النظافة ، يتنقل بهما طوال العام ، وقد برز في جانبيهما نتوءان بشيان بموقعي إصبعي قدميه الكبيرتين ! . . ولم تكن ثمة شعرة واحدة في سوالفه تشذ عن النظام ! . . وقد كانت هذه السوالف تستطيل إلى فكيه على نمط العشب الذي يحيط بالحديقة ، محتضنة وجهه الجامد الطويل ، ذي العينين الصغيرتين والأنف المعقوف . . وكان بارعاً في جميع الألعاب ، ماهراً في الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غيرة الفنان وأنانية الثري ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

واتجه نحو قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن . . كان لا بد من إخراج الطحانين الثلاثة منها أولاً ! . . وظل «بينيه» صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه إعداد المائدة ، حتى إذا تم له ذلك ، أغلق الباب وخلع قلنسوته جرياً على عادته !

وما إن خلا الصيدلي إلى صاحبة النزل ثانية ، حتى ابتدرها قائلاً : «ما كان إلقاء التحية لينقص شيئاً من لسانه !» .

فأجابته : «إنه لا يتكلم قط أكثر مما تدعو إليه الحاجة . لقد كان لدينا في

الأسبوع الماضي نزيلان من تجار الأقمشة . . وكانا مرحين ، فظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني أبكي من كثرة الضحك . . بينما كان هو قابعاً كالسمكة ، فلم ينبس قط بكلمة !» .

قال الصيدلي : «أجل . . لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شيء مما يكوّن رجل المجتمع» .

فقالت محتجة : «ومع ذلك ، فإنهم يقولون إن له أصدقاء ومجالس» !

ـ مجالس ! . . مجالس ! . من المحتمل أن تكون على شاكلته !

وما لبث أن استطرد قائلاً : «إنني أدرك أن التاجر ذا الصلات الواسعة ، والقنصل ، والطبيب ، والصيدلي ، يجدون من أعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم ، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الأطوار ، أو جافاً . . إن التاريخ حافل بقصص هؤلاء . ولكن المهم أن عذرهم في هذا راجع إلى أن لديهم ما يشغل تفكيرهم . . فأنا مثلاً كثيراً ما أبحث عن قلمي على المكتب لأدوّن تذكرة ، فلا ألبث أن أتبيّن في النهاية أنني وضعته خلف أذني ! . .» .

وفي تلك اللحظة ، سارت مدام «الوفرانسوا» إلى الباب لترى إذا كانت العربة المرتقبة ـ «العصفورة» مقبلة . . ولكنها أجفلت إذ ولج المطبخ فجأة رجل في ثياب سوداء . . وكان في وسع المرء أن يتبيّن على ضوء آخر خيوط الغسق ، إن له وجهاً متورداً ، وجسماً رياضياً . .

وسألته ربة النزل وهي تتناول من فوق المدفأة أحد الشمعدانات النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : «أية خدمة أملك أن أؤديها لك يا سيدي القس؟ هل لك في تناول شراب ما؟ . . جرعة من نبيذ «كاسي» الأسود؟ . . أو زجاجة من النبيذ الأحمر؟ !» .

وهز رجل الدين رأسه في أدب بالغ ، وقال إنه جاء من أجل مظلته التي نسيها منذ أيام في دير «إيرنمو» . وبعد أن سأل مدام «الوفرانسوا» أن تعمل على إرسالها إليه في دار «الخوري» في المساء ، انصرف إلى الكنيسة التي كان ناقوسها يدق مؤذناً بصلاة المساء . .

وما إن اطمأن الصيدلي إلى أنه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في الميدان، حتى أبدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه ناب! .. فقد بدا رفضه ـ في رأي الصيدلي ـ أبغض ألوان الرياء، إذ إن كل القساوسة يحتسون الخمر في الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها!

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة: «إنه رغم قولك يستطيع أن يطوي أربعة من أمثالك على ركبتيه! .. لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف في العام الماضي، فبلغ من قوته أنه كان يحمل ستاً من الحزم في آن واحد»! .. فهتف الصيدلي: «مرحى! .. أرسلوا بناتكم إذاً ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف! .. لو أنني كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة في كل شهر. أجل يا مدام «الوفرانسوا» .. في كل شهر .. وفصداً جيداً، في سبيل مصلحة الشرطة والأخلاق»!!

ـ كفّ عن هذا يا مسيو هوميه، فأنت كافر، لا دين لك!

فأجاب الصيدلي: «بل لي دين .. ديني الخاص .. وإن لدي من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعاً، رغم نفاقهم ودجلهم .. إنني على العكس أعبد الله .. أؤمن بالكائن الأعلى .. أؤمن بوجود خالق، كيفما يكن كنهه .. ومهما يكن هذا الخالق الذي أوجدنا هنا لنؤدي واجباتنا كمواطنين وأرباب أسر .. ولكني في غير حاجة إلى أن أذهب إلى الكنيسة لأقبّل أطباقاً فضية، ولأسمن من مالي رجالاً لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم، ويحظون بمعيشة أنعم مما نحظى! ..

وأمسك الصيدلي عن الكلام، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهوراً يحيط به .. فقد ظن في ثورة انفعاله أنه في قاعة المجلس البلدي! .. على أن ربة النزل لم تكن تنصت إليه، بل أصاخت بسمعها تحاول أن تستبين صوتاً انبعث عن بعد، اختلط فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض .. وما لبث (العصفورة) أن توقفت أمام باب الفندق أخيراً!

*

كانت (العصفورة) تتكون من صندوق أصفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما إلى مستوى سقفه، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق، ويلطخان أكتافهم بالقاذورات! .. وكان أقبل على الميدان عدد من أهالي (أيونفيل)، أخذوا يتكلمون معاً في آن واحد: يتساءلون عن الأخبار، ويستفسرون عن سلال الهدايا. ولم يكن (هيفير) ـ السائق ـ يدري أيهم يجيب أولاً، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان)، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الأحذية، والحديد للبيطار، وبرميل (الرنجة) لمخدومته ـ ربة النزل ـ والقبعات من صانعها، والشعور المستعارة من الحلاق .. وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الأسوار صائحاً بملء فيه، والخيل ماضية بالعربة!

وكان تأخره في العودة راجعاً إلى حادث بسيط، فقد هربت كلبة مدام (بوفاري) في الحقول، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها .. بل إن (هيفير) رجع مسافة طويلة أملاً في العثور عليها، متوهماً في كل لحظة أنه قد لمحها! .. وبكت (إيما)، وسخطت، واتهمت (شارل) بأنه كان السبب. وقد حاول السيد (ليريه) ـ تاجر الأقمشة الذي كان يرافقهما في العربة ـ أن يواسيها، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم (اهتدت) إلى أصحابها بعد سنوات طويلة! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد إلى باريس من القسطنطينية! .. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلاً في خط مستقيم، وسبح عبر أربعة أنهار! .. وتمادى فذكر لها أن أباه كان يملك كلباً فقده اثني عشر عاماً، ثم فوجئ به يقفز على ظهره ذات مساء، وهو في طريقه لتناول العشاء في المدينة!

ـ ٢ ـ

توقفت العربة إذاً .. وكانت «إيما» أول من هبط من العربة، وتبعتها «فيليسيته»، فالسيد «ليريه»، فمرضع .. واضطروا إلى أن يوقظوا «شارل» الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق، مذ أرخى الليل سدوله!

وقدّم «هوميه» نفسه ، مزجياً احتراماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معرباً عن شدة اغتباطه إذ أتيح له أن يؤدي لهما بعض الخدمات . . وأضاف في لهجة الصديق أنه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما ، إذ إن زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دخلت مدام «بوفاري» إلى المطبخ ، اقتربت من الموقد ، وأمسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيها ، ثم مدت قدميها بنعليها الأسودين نحو اللهب ، فوق «الفخذة» التي كانت تتز ، فإذا اللهب يضيء كل كيانها ، ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها ، ومسام جلدها البض الأملس ، بل وفي جفون عينيها اللتين أخذت تغمضهما من وقت إلى آخر ! . . ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجاً دافئاً هب عليها . . وكان ثمة شاب أشقر يرقبها في صمت من الجانب الآخر للمدفأة . .

كان السيد «ليون ديبوي» ـ الشاب الأشقر ـ ثاني النزلاء الدائمين في فندق «الأسد الذهبي» ، وقد اعتاد أن يؤخر تناول عشائه في كل مساء على أمل أن ينزل بالفندق مسافر يستطيع أن يجاذبه الحديث ، إذ كان قد اشتد به السأم في «أيونفيل» حيث كان يعمل كاتباً لدى الأستاذ «جوپومان» موثق العقود . . غير أنه لم يكن يملك ـ إذا ما فرغ من عمله ـ سوى أن يعود إلى الفندق ، ومن ثم يضطر إلى مصاحبة «بينيه» طوال العشاء ، لهذا رحب مغتبطاً في تلك الليلة باقتراح ربة الفندق أن يتناول عشاءه في صحبة القادمين في القاعة الكبرى ، حيث أبدعت مدام «لوفرانسوا» في إعداد المائدة لأربعة أشخاص !

وأبدى «هوميه» رجاءه في أن يسمحوا له بأن يظل مرتدياً طاقيته الإفريقية خشية «الأنفلونزا» ، ثم التفت إلى جارته قائلاً : «لا ريب في أن السيدة متعبة فإن «عصفورتنا» ترجّ المرء رجّاً» .

وأجابت «إيما» : «هذا صحيح ، بيد أن السفر يلذ لي ، فأنا أحب التنقل من مكان إلى آخر» !

وتنهد «ليون» قائلاً : «من أسوأ ما يسقم النفس أن يظل المرء مرتبطاً بمكان

واحد» ! . . فسأله «شارل» : «وماذا كنت تفعل لو أنك مضطر مثلي إلى امتطاء جوادك دائماً؟» . . فأجاب «ليون» وهو يتجه بحديثه إلى مدام «بوفاري» : «ولكني لا أرى شيئاً أكثر إمتاعاً من هذا ، لو كان في إمكان المرء . .» .

وهنا قال الصيدلي : «على أن ممارسة الطب ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من العالم ، إذ إن طرقنا تسمح باستخدام العربات . . ولمّا كان المزارعون في حالة من اليسر ، فإنهم يدفعون بسخاء عادة ! . . ومن الناحية الطبية لدينا ـ فضلاً عن الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشُعبية والأمراض الناشئة عن الصفراء . . . إلخ ـ بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت إلى آخر في موسم الحصاد . وعلى العموم ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة حالات ملفتة تستدعي الانتباه إلى كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة ، وهي كثرة مرجعها بلا شك إلى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين . . آه ، لسوف تضطر يا سيد «بوفاري» إلى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم . . فهم ما زالوا يلجأون إلى الرقى والتمائم ، وإلى القس ، بدلاً من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلى الطبيب أو الصيدلي ! . . على أن الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق ، حتى إنك لتجد في المقاطعة أفراداً في العقد التاسع من أعمارهم ! . . .

وفي ذلك الوقت كانت «إيما» تواصل حديثها مع «ليون» قائلة : « . . على أنك ولا بد تجد مجالاً للنزهة . . في البقاع المجاورة على الأقل» .

وأجاب الشاب : «إنها جد قليلة . . فهناك مكان يسمونه (لاباتير) ـ أي المراعي ـ على قمة التل عند حافة الغابة . . وإليه أسعى أحياناً ، في أيام الآحاد ، فأمكث في صحبة كتاب حتى أشهد مغيب الشمس» .

فقالت له معقبة : «ما أحسب أن هناك ما هو أبدع من غروب الشمس ، خصوصاً عند شاطئ البحر» .

فهتف ليون : «آه . . إنني أعشق البحر!» .

ـ ثم ، ألا ترى أن الذهن يكون أكثر صفاءً وتحرراً في الفضاء الذي لا حد له ، والذي يسمو تأمله بالنفس ، ويوحي بأفكار عن اللانهاية . . والخيال المثالي؟

ـ كذلك حال المناظر الجبلية . . فإن لي ابن عم سافر إلى سويسرا في العام الماضي ، وحين عاد قال لي إن المرء لا يستطيع أن يتصور ما في البحيرات من شاعرية ، وما في مساقط المياه من سحر ، وما للأنهار من أثر هائل في النفس . . فالمرء يرى هناك أشجار الصنوبر ، التي لا يتصور العقل حجمها ، عبر الممرات التي حفرتها السيول . . والأكواخ معلقة على حواف الوهاد . . وتحت قدميّ المرء بألف قدم ، تبدو ـ إذا ما انقشعت السحب ـ وديان فسيحة . . مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر ، وتبعث الشوق في النفس إلى العبادة والتأملات السامية . . ومن ثم لم أعد أعجب من ذلك الموسيقي المبرز الذي اعتاد أن يوقظ إلهامه بأن يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر!

فسألته : «هل تعرف شيئاً من الموسيقى؟» .

ـ لا ، ولكني جد مشغوف بها .

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال وهو ينحني على طبقه : «آه! . . لا تلقي إليه سمعاً يا مدام «بوفاري» . . هذا مجرد تواضع . . كيف يا عزيزي وقد كنت منذ أيام تغني «الملاك الحارس» في إبداع يملك الحواس؟ . . لقد سمعتك من المعمل ، فإذا بك تؤديها كما لو كنت مغنياً محترفاً!» .

وبالفعل كان «ليون» يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل الصيدلي تطل على الميدان . . وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذي كان قد تحول إلى الطبيب وأخذ يحصي له أهم سكان «أيونفيل» ، واحداً واحداً ويروي له تفصيلات ، ونوادر . . فمثلاً لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان «آل توفاش» يظهرون في أفخم مظهر!

وعادت «إيما» تقول : «وأي موسيقى تؤثر؟» .

ـ آه ، الموسيقى الألمانية . . تلك التي تسلمك إلى عالم الأحلام!!

ـ وهل ذهبت إلى الأوبرا؟

ـ لم أذهب بعد ، ولكني سأفعل في العام التالي ، حين أسافر إلى باريس لأتم دراسة القانون . . .

وقطع الصيدلي الحديث مرة أخرى قائلاً : «إنكما ستجدان ـ بفضل فرار ذلك المسكين «يانودا» وبفضل حماقاته ـ أن بوسعكما ، كما تشرفت بشرح الأمر للسيد زوجك ، أن تستمتعا ببيت من أفضل بيوت «أيونفيل» . . وأبدع ميزاته بالنسبة إلى طبيب هي أن له باباً يفضي إلى الحارة ، يستطيع المرء أن يلج وأن يخرج من طريقه دون أن يراه أحد ، كما أنه مستوف لجميع الاحتياجات المنزلية . وإذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين ، ففي وسعها . .» .

وإذ ذاك قال «شارل» : «إن زوجتي لا تحفل بهذه الأعمال . . ومع أنه أشير عليها بالرياضة والحركة ، إلا أنها تؤثر أن تقضي الوقت في غرفتها تقرأ الكتب!» .

فقال «ليون» : «إنها مثلي . . فأي شيء أجمل في الواقع من أن يقضي المرء ساعات المساء مع كتاب إلى جوار المدفأة ، والريح تلفح زجاج النافذة ، والمصباح يشتعل؟» .

قالت «إيما» وهي تحدق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين . «أليس كذلك؟» .

ومضى يقول : «إن المرء لا يفكر في شيء حينذاك . . والساعات تمر متلاحقة ونحن نتنقل ـ دون أن نتحرك من مكاننا ـ بين بلدان نخال أننا نراها . . وأفكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، ولتوضح لك معالم المغامرات . . إنها تندمج في الشخصيات حتى لتخال أن قلبك هو الذي ينبض تحت ثيابها!» .

قالت : «هذا حق! . . هذا صحيح!» .

واستأنف «ليون» الحديث قائلاً : «أولم يحدث لك قط أن عثرت في كتاب

على فكرة مبهمة كانت قد راودتك . . أو على صورة معتمة تعود إليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن أدق أحاسيسك؟» . . فأجابت : «لقد شعرت بهذا فعلاً» .

قال : «هذا هو السر في أنني أحب الشعراء ، فإني أجد الشعر أكثر رقة من النثر . . إنه يشجي المرء بسهولة حتى ليبكيه !» .

قالت «إيما» : «على أن الشعر لا يلبث مع طول الوقت أن يثير السأم . . إنني الآن أهيم ـ على العكس ـ بالقصص التي تبهر الأنفاس ، وتثير الخوف . . وأكره الأبطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى في الطبيعة»!!

قال «ليون» : «الواقع أنني أرى أن هذه الكتب ـ التي لا تمس القلب ـ تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن . ما أعذب أن ينتقل المرء بفكره من أحزان الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصور للسعادة ، إنني ـ إذ أقيم هنا بمنأى عن الدنيا ـ أجد في هذا ملهاتي الوحيدة . . بيد أن (أيونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل»!

فردت «إيما» قائلة : «إنها ولا بد مثل (توست) ، ولذلك اشتركت في مكتبة تعير الكتب» .

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة فقال : «هل للسيدة أن تشرفني بالإفادة من مكتبتي الخاصة . . إن لديّ ـ تحت تصرفها ـ مكتبة تضم خيرة المؤلفين ، مثل : فولتير ، وروسو ، ودوليل ، وولتر سكوت ، وصحيفة «صدى الأدب» . . . كما أنني أتلقى صحفاً كثيرة ، بينها «منار روان» اليومية ، إذ إنني مراسلها في مناطق بوشي ، وفورج ، ونيوشاتل ، وأيونفيل وما حولها .

*

ومضت عليهم وهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة ، إذ كانت الخادم «أرتميز» تحضر طبقاً بعد آخر في بطء ، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط ، وقد غفلت عن كل شيء ، وأخذت في كل مرة تنسى إغلاق باب حجرة البلياردو ، فيرتطم بالجدار .

وكان «ليون» قد وضع قدمه على أحد قضبان مقعد مدام «بوفاري» ـ في أثناء الحديث ـ دون أن يشعر ! . . وكانت «إيما» تلف حول عنقها وشاحاً حريرياً أزرق صغيراً ، يشد ياقة «مكشكشة» مجعدة من «الباتيستة» . وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوّص برفق في ذلك الوشاح أو يرتفع عنه ، تبعاً لحركات رأسها ! . . وبينما كان «شارل» والصيدلي يثرثران ، اندمج الشابان ـ اللذان تجاور مقعداهما ـ في أحد تلك الأحاديث المبهمة التي تقودك العبارات خلالها دائماً إلى مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر . . فتحدثا عن مسارح باريس ، وعناوين القصص ، وأنواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذي لم يكونا يعرفانه ، و(توست) التي كانت «إيما» تقيم فيها ، و(أيونفيل) حيث كانا في ذلك الحين . . وتناقشا حتى نهاية العشاء في كل موضوع خطر في باليهما !

وبعد أن تناولوا القهوة ، ذهبت «فيليسيته» لتعد المخدع في المنزل الجديد ، وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد قليل ، فإذا مدام «لو فرانسوا» قد أغفت على مقربة من النار المحتضرة ، بينما كان السائس في انتظار السيد «بوفاري» وزوجته ، وهو يحمل مصباحاً ليرشدهما إلى منزلهما ، وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الأخرى مظلة القس .

كانت البلدة قد هجعت ، وأعمدة السوق تلقي ظلالاً كبيرة على الأرض الرمادية ، كما كانت تبدو في ليالي الصيف . . ولمّا كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة ، فإن القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم تفرّقوا .

وما إن ولجت «إيما» الردهة حتى أحست برطوبة الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش . . وكانت الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير . . وفي المخدع ـ بالطابق الأول ـ كان ثمة ضوء يميل إلى البياض ، ينفذ خلال النوافذ التي لم تحجبها ستائر . . ولاحت لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى في أحضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر على طول مجرى النهر . . وفي وسط الحجرة ، تناثرت في غير نظام أدراج

الخزائن ، والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصي من المعدن المطلي . . وعلى المقاعد كانت ثمة حشايا ، وعلى الأرض أوان وأوعية . . فقد ترك الرجلان اللذان حملا الأثاث كل شيء في غير ترتيب .

تلك كانت المرة الرابعة التي تنام «إيما» فيها في مكان لم تألفه . . كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدير ، والثانية يوم انتقلت إلى (توست) بعد زفافها ، والثالثة في (فوبيسار) . . وها هي ذي الرابعة ! . . وكانت كل مرة بداية لمرحلة جديدة . . ولم تكن تعتقد أن الأمور تجري على وتيرة واحدة في كل مكان . . ولـمّا كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئاً ، فقد وقر في نفسها أن الشطر الباقي سيكون أفضل .

- ٣ -

عندما استيقظت «إيما» في اليوم التالي ، لمحت «ليون» يسير في الميدان . . وكانت في ثوب المنزل ساعتئذ ، ورفع الشاب رأسه إليها محيّياً ، فردت بإيماءة سريعة ، وأغلقت النافذة ! . . وقضى «ليون» نهاره كله في ارتقاب الساعة السادسة . . ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد «بينيه» يجلس إلى المائدة !

كان عشاء الليلة الماضية مناسبة هامة في نظره ، إذ لم يُتح له قبل ذلك أبداً أن يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع (سيدة) ، فكيف إذاً وسعه أن يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الأمور التي لم يكن ـ من قبل ـ يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذي كان في العادة خجولاً ، يلتزم ذلك التحفظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آن واحد !؟ لقد كان أهل (أيونفيل) يعتبرونه حسن التربية ، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي ، وهذه خلة هامة بالنسبة إلى أي شاب ! . . فضلاً عن أنه كان موهوباً ، يرسم بالألوان المائية ، وعلى إلمام بمبادئ الموسيقى ، ويستطيب الحديث في الأدب بعد العشاء ، إذا لم يلعب الورق . وكان السيد «هوميه» يحترمه لثقافته ، ومدام «هوميه» تحبه لطيبته ، إذ كثيراً ما كان يصحب

أبناءهما إلى الحديقة ! . .

وأثبت «هوميه» أنه خير جار ، إذ كان يرشد مدام (بوفاري) إلى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ثم يستوثق من أن القوارير وضعت كما ينبغي في قبو البيت ! . . كما كان يرشدها إلى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد ، ويتفق مع «ليستيبودوا» الذي كان ـ إلى جانب مهامه الكنسية والجنائزية ـ يتعهد حدائق الدور الكبرى في (أيونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة أو بالعام .

ولم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي إلى كل هذا التودد والمروءة ، بل إنه كان يخفي قصداً آخر . . إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون ١٩ (فنتوز) من العام الحادي عشر للثورة ـ وهي المادة التي تحظر على كل من لا يحمل شهادة أن يزاول مهنة الطب ـ حتى إنه استُدعي إلى (روان) بناء عى بلاغات قدمت ضده من مجهولين ، فمثل أمام وكيل النيابة في مكتبه الخاص . . وقد استقبله النائب بوشاحه واقفاً ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنسوته . وكان ذلك في الصباح ، قبل أن تفتح المحكمة أبوابها . . وكان يسمع وقع أحذية رجال الشرطة الثقيلة في الردهة ، وصوتاً ينبعث عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق . . وأحس الصيدلي بطنين في أذنيه كذاك الذي يسبق نزلة الشلل . . ورأى بعين الخيال أعماق الزنزانات ، وأسرته في دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها . . حتى لقد اضطر إلى أن يلجأ إلى مقهى تناول فيه كأساً من (الروم) الممزوج بماء (سلتز) ليتمالك جأشه !

غير أن ذكرى هذا الإنذار ما لبثت أن أخذت في الاضمحلال ، وعاد إلى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها في الغرفة الخلفية بالصيدلية . غير أن العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه يغارون منه ، فكان لا بد له من أن يحسب حساباً لكل شيء ، ومن ثم رأى أن السيد (بوفاري) سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات ، وسيحمله الاعتراف بالجميل على أن

يمسك لسانه إذا ما لمح شيئاً ! . . ومن ثم اعتاد أن يحمل إليه الصحيفة في كل صباح ، وأن يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب !

وكان «شارل» مكتئباً لأن العملاء لم يقبلوا عليه . . وكان يجلس ساعات طويلة دون أن ينبس ببنت شفة ، أو يلجأ إلى مكتبه لينام ، أو يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياكة . ثم أخذ يعمل في البيت كالأجير ليتلهى عن أفكاره . . بل إنه حاول أن يطلي جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون . . بيد أن الشؤون المالية كانت تشغل باله ، فقد أنفق الكثير في الإصلاحات التي أدخلها على دارته في (توست) ، وفي توفير أدوات الزينة لزوجته ، وفي نقل الأثاث ، حتى إن البائنة ـ التي نالها عند زواجه ـ تسربت كلها خلال عامين ، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف فرنك . . وكم من أشياء تلفت أو ضاعت في أثناء نقلها من (توست) إلى (أيونفيل) . . ناهيك بتمثال القس الذي هوى من العربة إثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكامبوا) شذر مذر .

•

ثم جاءته مهمة مفرحة تشغله عن أفكاره . . تلك هي : حمل زوجته ! . . وكان كلما اقترب موعد الوضع كلما ازداد حدباً عليها . . فهذه رابطة أخرى ـ من لحم ـ تعزز صلتهما وتقوّي فيهما إحساساً مستمراً بالرباط المشترك . وكان إذا رآها عن بعد تمشي متثاقلة ، وقوامها يلتف في طراوة فوق ردفيها ، بعد أن تحرر من الحزام الذي كان يشده ، أطال النظر إليها . . فإذا جلسا متقابلين ، راح يتأملها في تمعن وهي تتململ متقلبة ذات اليمين وذات الشمال في مقعدها ، فتفيض به السعادة ، فينهض فيقبّلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديها بالأم الصغيرة ، ويسعى لحملها على الرقص ، ويروي لها ـ بين الضحك والبكاء ـ جميع النكات اللطيفة التي تتبادر إلى ذهنه ! . . كانت تطربه فكرة إنجاب طفل . . ومن ثم لم يعد يعوزه شيء آخر ، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها إلى نهايتها ، فكان يتدبرها في خاطره مطمئناً ساكن النفس !

وبدت «إيما» في دهشة بالغة ـ في البداية ـ ثم أصبحت تتوق إلى أن تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة ! . . ولما لم تكن تملك أن تنفق عن سعة لتعد للطفل مهداً متأرجحاً ـ على شكل زورق ـ ذا ستائر من الحرير الوردي ، وطاقيات مطرزة ، فقد عدلت ـ والمرارة تمضها ـ عن كل هذا ، وعهدت إلى امرأة تشتغل بالتطريز في إحدى القرى بإعداد ما يلزم ، دون أن تختار بنفسها شيئاً ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكي الحنان في الأمهات ، حتى لقد بدا أن حبها للصغير قد فتر ـ بعض الشيء ـ عمّا كان عليه في البداية ! . . على أنها لم تلبث أن أخذت تفكر فيه باسترسال متواصل ، إذ كان «شارل» لا يفتأ يتحدث عنه مع كل وجبة !

وتمنت أن ترزق بولد ، قوي ، أسمر ، تسميه «جورج» ! . . وكانت تحبّذ الفكرة كما لو كان إنجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كل ما أصابها في الماضي من قصور واستضعاف . فالرجل حر . . يستطيع على الأقل أن يجتاز جميع الانفعالات ، وأن يجوب الأقطار ، وأن يتخطى العقاب ، وأن يتذوق أبعد الملذات منالاً ! . . في حين أن المرأة تتعثر دائماً في المثبطات . . فإذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث أن تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها ، عوامل تقعد بها . . وما أشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف في الهواء !

•

وفاجأها المخاض في نحو الساعة السادسة من صباح يوم من أيام الآحاد ، والشمس تشرق . . وما لبث «شارل» أن هتف : (إنها بنت !) . . فأشاحت برأسها ، وراحت في شبه إغماءة !

وأقبلت مدام «هوميه» ومدام «لوفرانسوا» ـ صاحبة نزل الأسد الذهبي ـ مسرعتين لتقبلاها ، فور سماعهما النبأ . . أما الصيدلي ، فقد اكتفى ـ كرجل مهذب ، حيي ! ـ بأن أزجى إليها بعض التهاني خلال الباب المنفرج ، ثم رغب في رؤية الوليدة ، وأعرب عن ارتياحه إلى حسن تكوينها !

وشغلت «إيما» كثيراً ـ خلال فترة النقاهة ـ باختيار اسم لابنتها . . فاتجهت في أول الأمر إلى الأسماء التي تنتهي بمقاطع معينة ، على الطريقة الإيطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، وأماندا ، وأتالا . . ومالت كثيراً إلى اسم «جالسويند» . . وكانت أكثر ميلاً إلى «إيزولته» أو «ليوكادي» ورغب «شارل» في أن تحمل الطفلة اسم أمه ، ولكن «إيما» عارضته . . ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من أسماء القديسات ، وأخذا يستشيران الأصدقاء والأغراب . فقال الصيدلي : كنت أتحدث منذ أيام مع السيد «ليون» فأبدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم «مادلين» الذي يقبل الجميع عليه في هذه الفترة !

ولكن مدام «بوفاري» الأم ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذي كانت تحمله إحدى الخاطئات ! . . أما السيد «هوميه» ، فكان يفضل الأسماء التي تبعث إلى الذهن ذكرى عظيم ، أو واقعة بهيجة ، أو فكرة كريمة . . وعلى هذا النحو سمى أبناءه الأربعة ، فكان «نابليون» يمثل المجد ، و«فرانكلين» رمزاً للحرية ، وربما كان اسم «إرما» مظهراً لتأثره بالخيال القصصي العاطفي . . أما اسم «أتالي» فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية ! . .

وتذكرت «إيما» أخيراً أنها سمعت المركيزة في قصر (فوبيسار) تنادي شابة باسم «بيرت» . . ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم ! . . ولـمّا لم يستطع السيد «روو» الحضور ، فقد سُئل السيد «هوميه» أن يكون إشبيناً للطفلة . . وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقنينة مملوءة بإكسير مقو ، وثلاث أنابيب من معجون الشيح ، فضلاً عن ست أصابع من سكر النبات عثر عليها في أحد الصوانات . وفي أمسية الاحتفال ، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللها هرج ومرج . . وعندما حان موعد الشراب ، أخذ السيد «هوميه» ينشد : (الله رب العالمين) ، وغنى السيد «ليون» إحدى أغاني الجندول ، وغنّت مدام «بوفاري» الكبيرة ـ وكانت إشبينة الطفلة ـ إحدى أغاني العصر الأمبراطوري العاطفية ! . . وأخيراً ، أصر مسيو «بوفاري» ـ الكبير ـ على

إحضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوباً من الشمبانيا . . وأثارت هذه السخرية من أقدس الشعائر الدينية غضب الأب «بورنيزيان» ، فرد عليه «بوفاري» الشيخ بفقرة من كتاب : (حرب الآلهة) ! . . وهمّ القس بالخروج ، فتضرعت إليه النسوة ، وتدخل السيد «هوميه» ، حتى أفلحوا في حمل القس على الجلوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقي في قدح القهوة بهدوء !

وبقي مسيو «بوفاري» الكبير شهراً في (أيونفيل) يبهر خلاله أهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضي ، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونه في الميدان ! . . ولـمّا كان من عادته الإفراط في الشراب ، فكثيراً ما كان يوفد الخادم إلى فندق (الأسد الذهبي) لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه . واستنفد ـ ليعطر مناديله ـ كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء (الكولونيا) ، بيد أن هذه الأخيرة لم تكن تضيق بصحبته إطلاقاً ، إذ كان قد جاب الأقطار ، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورغ ، وعن أيام الجندية ، وعن العشيقات اللاتي أحببنه ، والولائم الحافلة التي أقامها ! . . ثم إنه كان لطيفاً . . بل لقد كان في بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه ـ على السلم أو في الحديقة ـ ويصيح : (شارل . . احترس لنفسك !) .

إذ ذاك خشيت السيدة «بوفاري» ـ الأم ـ على سعادة ابنها ، وخافت أن ينتهي زوجها مع مرور الوقت إلى أن يترك أثراً غير خلقي في ما للمرأة من آراء وأفكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل . . ولعلها كانت تكتم أسباباً أخطر من ذلك لقلقها ، إذ إن السيد «بوفاري» لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئاً ! !

وأحست «إيما» يوماً برغبة مفاجئة في أن ترى ابنتها ـ التي كانت قد أسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها ـ ودون أن ترجع للتقويم لتتبيّن ما إذا كانت أسابيع العذراء الستة قد انقضت ، انطلقت إلى بيت «روليه» ـ النجار ـ في الطرف الأقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول . . وكان الوقت

ظهراً ، وقد أوصدت أبواب الدور ونوافذها ، وتألقت السقوف الأردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شرراً من أبراجها ! . . وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت «إيما» أن شعرت خلال سيرها بوهن ، وأخذت أحجار الأرصفة تؤلم قدميها . . وترددت بين أن تعود إلى البيت ثانية ، أو أن تلوذ بأي مكان . . وفي هذه اللحظة ، برز السيد «ليون» من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحيتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة أمام حانوت «روليه» .

أعلمته مدام «بوفاري» أنها في طريقها لرؤية ابنتها ، بيد أن التعب أخذ يشتد بها ، فقال «ليون» : «هل لك . . .» ثم أمسك لا يجرؤ على أن يتم عبارته ، فسألته : «هل لديك أي عمل يشغلك الآن؟» . . ولـمّا أجابها بالنفي ، رجته أن يصحبها . . فلم يحن المساء حتى كانت «أيونفيل» بأسرها قد عرفت النبأ . وصرحت مدام «توفاش» ـ زوجة العمدة ـ أمام خادمتها بأن «مدام بوفاري أوقعت نفسها في ورطة !» .

•

كان لا بد لـ«إيما» ، كي تصل إلى بيت المرضع ، من أن تعرج إلى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى إلى المقابر ، ثم تسلك ـ بين الدور والأفنية ـ طريقاً ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة ، وبالعوسج المنبعث من الأحراج . وخلال ثغرات في الأسيجة ، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الأشجار . . وسارا في هوادة ، جنباً إلى جنب ، وقد استندت «إيما» إلى زميلها الذي كان يضيق من خطاه كي تلائم خطاها ! . . وكان يحوم أمامهما سرب من الذباب يطن في الهواء الدافئ . .

وتعرّفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله ، وكان بيتاً منخفضاً ، مغطى بقرميد بني اللون ، وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضع تحمل على ذراعها طفلاً يُرضع ، وتسحب باليد الأخرى طفلاً هزيلاً

مسكيناً كست وجهه البثور ، وكان ابن صانع قبعات في (روان) ، تركه أبواه في الريف لفرط انصرافهما إلى تجارتهما . وقالت المرضع : «تفضلي . . إن طفلتك نائمة هناك ! . .» .

كانت الغرفة ، في الطابق الأرضي ، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد أقيم لصق الجدار ـ في أقصاها ـ سرير واسع دون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذي تخلله النافذة ، وقد ألصق في مكان الزجاج المكسور فيها ورق أزرق . . وفي الركن القائم خلف الباب رصت أحذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار زجاجة دست في فوهتها ريشة . وكانت طفلة «إيما» ترقد في سرير من الغاب ، فحملتها في الغطاء الذي كان يلفها وأخذت تغني لها برفق وهي تهزها . . ومضى «ليون» يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب أن يرى سيدة جميلة في ثوب أنيق وسط كل هذا البؤس والفاقة . . وتضرجت وجنتا مدام «بوفاري» ، فأشاح ببصره إذ خطر له أن نظرة فضولية بدت في عينيه . . وما لبثت الأم أن ردت الطفلة إلى مهدها بعد أن تقيأت على صدر مرولتها ، فأقبلت المرضع لمسح القيء فوراً ، مؤكدة أنه لن يخلف أثراً . . وقالت : «كم من أفعال لها تشغلني ، فإنني أحرص على تنظيفها باستمرار ، ولو أنك تفضلت فأمرت «كاميس» البدال بأن يعطيني بعض الصابون ، لكان هذا أدعى لراحتك ، لأنني لن أضطر إلى إزعاجك» ! .

فقالت «إيما» : «حسناً . . ليكن ! . . طاب يومك يا سيدة روليه» .

وخرجت وهي تمسح نعليها عند العتبة . . وتبعتها المرضع حتى نهاية الحديقة ، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذي تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : «إن الضنى يبلغ بي أحياناً أن أستغرق في النعاس وأنا جالسة في مقعدي ، وأعتقد أنه يخلق بك أن تمنحيني رطلاً على الأقل من البن المحروش ، يكفيني شهراً ، لأتناول منه قدحاً مع الحليب في كل صباح» .

وانصرفت مدام «بوفاري» بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر . على أنها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتى انتبهت إلى وقع حذاءين خشبيين . .

وإذا بالمرضع ، فسألتها : «ماذا هناك؟» . . وإذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف إحدى أشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذي أوتي حرفة ، لا تدر عليه غير النزر الضئيل . . وقاطعتها «إيما» قائلة : «أسرعي !» ، فاستأنفت وهي تتنهد بين كل كلمة وأخرى : «آه . . أخشى أن يغتم إذا رآني أتناول القهوة وحدي . . فأنت تعرفين الرجال . . .» .

قالت «إيما» : لسوف تحصلين على البن . . سأعطيك إياه . . إنك تضايقينني !» .

ـ أواه يا سيدتي العزيزة المسكينة ! . . إنه يعاني ـ بسبب جراحة ـ من انقباضات مزعجة في الصدر . . ويقول إن شراب التفاح يضعفه !

ـ عجّلي أيتها الأم «روليه» !

فاستطردت المرضع وهي تنحني احتراماً : «إذاً ، فإذا لم أكن قد تماديت . .» ، وانحنت مرة أخرى . . «فلو تكرمت» . . وبدت في عينيها ضراعة ، ثم أفضت بغايتها أخيراً : « . . . بقنينة براندي ! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك ، فهما رقيقتان كاللسان !» .

•

وما إن تخلصت «إيما» من المرضع ، حتى أمسكت بذراع «ليون» وسارت مسرعة بعض الوقت ، ثم تباطأت . . وفيما كانت تتطلع إلى الأمام ، وقع بصرها على كتف الشاب الذي كانت لسترته ياقة من المخمل الأسود ، يتدلى فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية ، ولاحظت أن أظفاره كانت أطول مما اعتاد الناس في «أيونفيل» أن يتركوا عليه أظفارهم ! . . وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التي تشغله . . ومن ثم كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك !

وعادا إلى «أيونفيل» سائرين بمحاذاة مجرى الماء . . فلم تسمع الشابة وزميلها أي صوت وهما يسيران ، اللهم إلاّ وقع خطواتهما على أرض الطريق ، والكلمات التي كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب «إيما» . .

وكانت أسوار الحدائق ـ التي بدت من فوقها قطع الزجاج ـ ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين أحجارها ، فكانت مدام «بوفاري» تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهي تمر بها ، فتتساقط تراباً أصفر . . كما كان يشتبك بحافة المظلة أحياناً غصن من اللبلاب المتدلي ، ويتأرجح فوق حريرها لحظة . .

كانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الإسبانيين مرتقبة الوصول إلى مسرح (روان) ، فسألته : «هل ستذهب لرؤيتها؟» . . فأجاب : «إذا استطعت» ! . .

هل لم يكن لديهما ما يقال غير هذا؟ ! . . كانت عيونهما مفعمة بحديث أكثر جدية . . وكانا ، إذ يجهدان أنفسهما في البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسري فيهما . . ذاك كان همس الروح . . همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما ! . . وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما أن يتكلما عن هذا الإحساس أو أن يبحثا عن سببه . . فإن المسرات في إقبالها تلقي ـ كالشواطئ الاستوائية ـ على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية ، وتبعث في الجو نسيماً متضوعاً . . فإذا هذه النشوة تسلمنا إلى إغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نجهله !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام «بوفاري» الباب ، وطوت السلالم عدواً ، واختفت . . فعاد «ليون» إلى مكتبه ـ وكان رئيسه غائباً ـ فألقى على الملفات نظرة ، وشحذ لنفسه قلماً ، ثم تناول قبعته أخيراً وانصرف متجهاً إلى المرج بأعلى هضبة (أرجي) ـ عند مدخل الغابة ـ حيث استلقى على الأرض تحت أشجار الصنوبر ، وأخذ يتطلع إلى السماء من خلال أصابعه ، محدثاً نفسه : «ما أشد ضجري !» .

كان يحس أنه خليق بالرثاء لإقامته في هذه القرية ، حيث لا صديق سوى «هوميه» . . ومع السيد «جويومان» رئيسه ! . . وكان الأخير ، بمنظاره ذي الإطار الذهبي ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، ينكبّ على عمله ، ولا

يفقه شيئاً من المتع الفكرية ، وإن اتخذ لنفسه مظهراً إنكليزياً صارماً بهر الكاتب في الأيام الأولى !

أما زوجة الصيدلي ، فكانت خير زوجة في (نورمانديا) . . وديعة كالحمل ، تحب أولادها وأباها وأمها وبني عمومتها ، وتبكي لأحزان الآخرين ، مهملة في الوقت نفسه كل شؤون دارها ! . . وكانت تكره المشادات ، غير أنها كانت بطيئة الحركة ، مملة الحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان أحد ليتصور أنها تصلح زوجة لغير الصيدلي ، أو أنها أوتيت شيئاً من خصائص جنسها فيما عدا الثوب ! . . وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو ـ أي «ليون» ـ في العشرين ، وكان مخدعه ملاصقاً لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يومياً !

ثم . . ماذا كان هناك غير ذلك ! . . «بينيه» ، وبعض أصحاب الحوانيت ، واثنان أو ثلاثة من أصحاب الحانات ، والقس ، وأخيراً مسيو «توفاش» ، العمدة ، وأولاده : وكلهم ثراة ، متغطرسون ، أغبياء ، يزرعون الأرض بأنفسهم ، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لا تطاق صحبتهم !

ولكن . . ماذا عن «إيما»؟ . . لقد كانت تقف بمعزل عن كل الإطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية . . وبعيداً عنه هو الآخر ، إذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة ! . . كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرات في البداية ، فلم يبد «شارل» ميلاً واضحاً إلى أن يراه مرة أخرى ، فلم يدرِ «ليون» ماذا يفعل ، إذ حار بين الخوف من أن يبدو متطفلاً والرغبة في إلفة جميلة تكاد تبدو مستحيلة !

ـ 4 ـ

عندما بدأ الشتاء نقلت «إيما» مخدعها إلى حجرة الجلوس . . وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف ، استقرت على رف مدفأتها ـ أمام المرآة ـ حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد أهل القرية وهم يمرون على الإفريز .

وكان «ليون» يسعى بين مكتبه وفندق «الأسد الذهبي» مرتين في اليوم ، فكانت «إيما» إذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع ، بينما يمر الشاب دون

أن يلتفت ، فتراه من خلف الستائر في المظهر والملبس نفسه دائماً . . ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها على ركبتيها ، وتستند بذقنها إلى يدها اليسرى ـ عند الغروب ـ كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت ! . . وكانت لا تلبث أن تنهض ، وتأمر بإعداد المائدة .

وكان السيد «هوميه» يصل في أثناء العشاء ، وطاقيته الإغريقية في يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كي لا يزعج أحداً ، وهو يردد العبارة نفسها دائماً : «مساء الخير أيها الزملاء !» . . فإذا اتخذ مجلسه إلى مائدة الزوجين ، سأل الطبيب عن أنباء المرضى ، فيستشيره هذا فيما يقدر من أتعاب ، ثم يخوضان في الحديث عما جاء بالصحيفة التي يكون «هوميه» قد استظهر كل ما فيها تقريباً ! . . فكان يرويه ، مع التعليقات ، كما كان يروي جميع النكبات الفردية التي وقعت في فرنسا أو في الخارج . ولم يكن يتوانى ـ إذا ما نضب موضوع الحديث ـ عن أن يلقي بعض الملاحظات عن أصناف الطعام التي يراها ! . . بل إنه كان ينهض أحياناً عن مقعده ليرشد السيدة إلى أطرى قطع اللحم ، أو يتحول إلى الخادم يوجه إليها إرشادات في معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل . . ويتكلم عن البهار ، وأنواع العصير والهلام (الجيلاتين) . . على نحو مدهش ! . . ولـمّا كان رأس «هوميه» يحفل بتركيبات تفوق في الكثرة ما تزخر به صيدليته من قوارير ، فإنه كان يحذق صنع جميع أنواع المربيات ، والخل ، والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملماً بجميع المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية ، فضلاً عن أصول صيانة الجبن .

وكان «جوستان» يأتي في الساعة الثامنة يستدعيه لإغلاق الصيدلية ، فيرمقه السيد «هوميه» بنظرة خبيثة ، ولا سيما إذا كانت «فيليسيتيه» واقفة ، إذ كان قد فطن إلى أن مساعده يميل إلى التردد على بيت الطبيب ! . . وكان يقول : «إن هذا «الفحل» بدأ يفكر . . وليأخذني الشيطان إذا كنت مخطئاً في ظني أنه يحب خادمتكما !» .

بيد أن أدهى عيب كان يؤاخذ «جوستان» عليه ، هو أنه كان ينصت دوماً إلى الحديث ، فلم يكن من السهل إبعاده عن «الصالون» في يوم الأحد مثلاً ، عندما تناديه مدام «هوميه» لينقل الأطفال الذين ناموا في مقاعدهم ، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها ! . . ولم يكن يحضر سهرات الصيدلي أناس كثيرون ، إذ نجح ميله للخوض في الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه . على أن الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان إذا سمع جرس الباب بادر مسرعاً إلى استقبال مدام «بوفاري» فيأخذ عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلي الخفين السميكين المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاميها إذا كان الجليد يملأ الشوارع .

وكانوا يلعبون أدواراً من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١ ، ثم ينفرد السيد «هوميه» باللعب مع «إيما» ، و«ليون» من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمداً بيديه على ظهر مقعدها ، محدقاً في أسنان المشط التي تعض عقصة شعرها . وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لإلقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب على ظهرها ، ويأخذ في الشحوب تدريجياً ، حتى يتلاشى في الظلال . . ثم يتهدل ثوبها على جانبي المقعد ، منتفخاً ، مليئاً بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الأرض . . فإذا أحس (ليون) بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلاً وكأنما داس شخصاً !

وعندما كان ينتهي لعب الورق ، كان الصيدلي والطبيب يلعبان (الدومينو) ، فتنتقل «إيما» إلى مقعد آخر لتتكئ على المائدة وتقلب صفحات مجلة (الألستراسيون) . . كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس «ليون» يتأمل الصور إلى جانبها ، ويتريث أحدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر . وكثيراً ما كانت ترجوه أن ينشدها شعراً ، فكان «ليون» يفعل بصوت متراخ كان يعنى بخفضه عند العبارات الغرامية ، لتطغى عليه جلبة (الدومينو) ! . . وكان السيد «هوميه» بارعاً في هذه اللعبة ، إلى حد أنه كان يفوز على «شارل» بدورين ؛ حتى إذا فرغا من الدور الثالث ، اضطجعا

معاً أمام المدفأة ، فلا يلبثان أن يغفوا ! . . وتموت النار . . ويخلو إبريق الشاي . . و«ليون» ماض في القراءة ، و«إيما» تنصت إليه ، وهي تعبث بمظلة المصباح في حركة آلية ، وتحدق في الرسوم المنقوشة عليها : من عصافير في عربات ، إلى راقصين على الحبال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم . . وكان «ليون» لا يلبث أن يمسك عن القراءة ليشير بإيماءة إلى النائمين . . وإذ ذاك يشرعان في الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لهما أعذب من أي حديث ، لأن أحداً لم يكن يسمعه !

وهكذا توثقت بينهما عرى صداقة من نوع خاص ، وأخذا يتبادلان الكتب والروايات . ولم يكن السيد «بوفاري» ليشغل باله بهذا . . فقد كان قليل الانسياق للغيرة !

وتلقى «شارل» في عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الأزرق ، لبيان الجهاز العصبي ، وقد انتشرت عليه الأرقام والبيانات حتى القفص الصدري ! . . تلك كانت هدية من الكاتب الذي أخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات ، حتى لقد كان يقضي للطبيب حوائجه في (روان) . وكان أحد الروائيين قد أورد في كتاب له فصلاً عن نبات (الصبار) جعله بدعة لقيت رواجاً ، فابتاع «ليون» بعض نبات منه لمدام بوفاري ، وقد أدمى بعض أشواكها أصابعه ، إذ حملها في (العصفورة) على ركبتيه ! . . وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص . . ولمّا كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد أخذ كل منهما يشاهد الآخر وهو يعنى بأزهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها أكبر قدر من النشاط . . فطيلة أيام الآحاد ـ نهارها ومساؤها ـ وبعد ظهر كل يوم ، حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظراً جانبياً لوجه (بينيه) وقد انحنى على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتى صار يسمع في فندق (الأسد الذهبي) .

وولج «ليون» غرفته ذات يوم ، فألفى فيها سجادة من المخمل والصوف ، نقشت عليها أفنان على قاعدة شاحبة ، فاستدعى مدام «هوميه» والسيد «هوميه» و«جوستان» والأطفال والطباخة ليشهدوها ! . . وتحدث إلى رئيسه عنها . . ورغب الجميع في أن يروا هذه السجادة ، وهم يسائلون أنفسهم : ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب هدايا؟ . . إنه لأمر جد عجيب ! . . ووقر في نفوسهم أنها لا بد حبيبته ، ولا سيما أنه كان في مسلكه ما يبرر هذا الظن ، إذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه «بينيه» مرة في عنف قاس : «وماذا يعنيني من أمرها وأنا لست من أصدقائها؟ ! .» .

وأخذ «ليون» يجهد ذهنه بحثاً عن وسيلة يعلن حبه لها . . فقد كان يتردد بين الخوف من أن يثير استياءها وبين الخجل من جبنه ! . . كان يبكي من الرغبة وعدم الجرأة ، ثم لا يلبث أن يستجمع عزيمته ويعمد إلى كتابة خطابات يمزقها بعد أن ينتهي منها ، ويرجئ الأمر إلى أوقات أخرى ، ثم يعود فيرجئه من جديد ! . . وكثيراً ما كان يهم بمواجهة الأمر في عزم ، فلا تكاد تحضر «إيما» حتى يتبدد هذا العزم ! . . وكان إذا دعاه «شارل» إلى مرافقته في عربته لعيادة مريض في قرية مجاورة لبى الدعوة فوراً ، فيحيي السيدة وينصرف . . ولم لا ، أليس زوجها جزءاً منها؟

أما «إيما» ، فلم تسائل نفسها قط عما إذا كانت تحبه ، فهي تعتقد أن الحب يفد فجأة مصحوباً برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض ، فتقلب كيانها ، وتنتزع الإرادات انتزاعها لأوراق الشجر ، وتجرف القلب ! . . ولم تفطن إلى أن المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت الميازيب مغلقة . . وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجأة صدعاً في الجدار . . جدار قلبها انصدع فوقع !!

- ٥ -

وحدث في أصيل يوم أحد من شهر شباط/ فبراير ، والجليد يتساقط . . وهم جميعاً ـ السيد بوفاري وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون ـ على بعد

نصف فرسخ من (أيونفيل) ، أن خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً لإقامته في الوادي . . وكان الصيدلي قد اصطحب معه ولديه «نابوليون» و«أتالي» للرياضة ، كما رافقهم «جوستان» حاملاً المظلات على كتفه .

غير أنهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يثير الفضول . . مساحة أرض واسعة ، خالية ، تناثرت في أرجائها بين أكداس الرمل والحصى الملقاة في غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ ، ووسط هذه الأرض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة . . ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذي علقت بإحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة . . وانطلق «هوميه» يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من أهمية ، وما ستكون عليه أرضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك . . وأبدى أسفه إذ لم يملك عصا للقياس كتلك التي كان السيد «بينيه» يقتنيها لمآرب أخرى !

كان يتأبط ذراع «إيما» التي راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشيء ، لتتطلع إلى الشمس التي كان قرصها يرسل من بعد ـ خلال الضباب ـ ضوءاً أخذ يسطع في شحوب . . وحانت منها التفاتة ، فرأت «شارل» قد ضغط قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ، ما أضفى على وجهه مزيداً من الغباء ! . . حتى ظهره . . ظهره الساكن . . كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على سترته مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفيما كانت تتأمل زوجها ، مستشعرة في اشمئزازها لوناً من المتعة الشاذة ، اقترب «ليون» خطوة ، وقد لاح أن البرد الذي أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء . . وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء ، تكشف ـ بين الرقبة ورباطها ـ عن بشرته . . ويرز طرف أذنه من خلال خصلة من الشعر . . وخيل لإيما أن عينيه الواسعتين الزرقاوين ـ اللتين تتطلعان إلى

السحب ـ أكثر صفاء وجمالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس لون السماء على مياهها !

وهتف الصيدلي فجأة : «يا للشقي !» . . ثم عدا نحو ابنه الذي قفز إلى كومة من الجير ليطلي حذاءيه بلون أبيض . . وراح «نابوليون» يصرخ إذ انهال عليه توبيخ أبيه ، بينما أسرع «جوستان» ينظف له حذاءيه بحزمة من القش ، بيد أنه احتاج إلى سكين ، فقدم إليه «شارل» واحدة . . وعندئذ حدثت «إيما» نفسها قائلة : «آه ! . . إنه يحمل سكيناً في جيبه كالفلاحين !» .

وتساقط الثلج ، فعادوا إلى «أيونفيل» . . ولم تذهب مدام «بوفاري» لزيارة جيرانها في ذلك المساء . . ولما غادرها «شارل» وخلت إلى نفسها ، عادت إليها المقارنة بوضوح الإحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً ، وبالعمق الذي تخلعه الذاكرة على الأشياء ! . . وتمثل لعينيها ـ وهي تتأمل من سريرها النار وهي تستعر صافية في المدفأة ـ المنظر الذي رأته هناك ، وكأنه لا يزال أمام عينيها : «ليون» وقد وقف يثني عصاه بإحدى يديه ، ويمسك «أتالي» باليد الأخرى ، وهي تستحلب في هدوء قطعة من الثلج . . وبدا لها فاتناً ! . . ولما لم تستطع أن تنتزع نفسها عنه ، أخذت تستعيد مواقف أخرى له في أيام غير ذاك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجرس صوته ، وكل كيانه . . ومضت تردد وهي تمط شفتيها كأنها تقبل أحداً : «أجل . . فاتن . . فاتن ! . . ألا تراه قد أحب؟ . . ومن عساه أحب؟ . . أنا؟ !» .

وأخذت الأدلة تتوضح أمامها ، فقفز قلبها . . وألقى وهج النار على السقف ضوءاً راح يتراقص في مرح ، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها . . وإذ ذاك بدا الرثاء الأبدي : «أواه . . ليت السماء تدفعه إلى حبي . . ولم لا؟ . . ما الذي يحول دون ذلك؟ !» .

وبدت ـ حين عاد «شارل» في منتصف الليل ـ وكأنها استيقظت لتوها . . وشكت من صداع ، إذ أخذ يخلع ثيابه في جلبة ، ثم سألته عرضاً عما حدث في السهرة فقال : «لقد غادرنا السيد «ليون» مبكراً وأوى إلى غرفته» !

ولم تتمالك أن ابتسمت ، ونامت ، ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد طرأ عليها !

•

وزارها السيد «لوريه» تاجر الأقمشة عند غروب شمس اليوم التالي ، وكان بائعاً ماهراً ، جمع بين لباقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل (كو) . وبعد أن ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقاً أخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة ـ في أدب جم ـ من أنه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلاً إن من الصحيح أن حانوته الفقير لم يكن أهلاً لأن يجتذب «سيدة أنيقة» ـ وضغط على هاتين الكلمتين ـ مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى أن تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأي شيء تبغيه من الخردوات أو الثياب الداخلية أو القبعات أو الكماليات ، لأنه يتردد على المدينة بانتظام أربع مرات في الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها . . وتستطيع أن تسأل عنه في «التروافرير» و«البارب دور» و«الجران سوفاج» فإن أصحاب هذه المتاجر جميعاً يعرفونه معرفتهم لما في جيوبهم ! ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة ـ إذ مر بدارها ـ بضع سلع قدر له أن يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم أخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة ، فحصتها مدام بوفاري ثم قالت : «لست في حاجة إلى شيء !» . . وعندها عرض في رفق ثلاثة من شالات الجزائر ، وعدة مجموعات من الإبر الإنكليزية ، وزوجاً من النعال القش ، وأخيراً ، أربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة . ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه ، وراح يرقب «إيما» ـ التي كانت تجول بين سلعه مترددة ـ وقد انحنى إلى الأمام وفغر فاه . . وسألته أخيراً : «ما ثمنها؟» . . فأجاب : «لا شيء في الواقع . . ثمن ضئيل لا يذكر . . ولا داعي للعجلة ، بل ادفعي حين يحلو لك . . فلسنا يهوداً !» .

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت إلى رفض عرض السيد «لوريه» من

جديد ، فأجاب غير آبه لرفضها : «حسناً . . سيفهم كل منا الآخر شيئاً فشيئاً . لقد اعتدت دائماً أن أوفق إلى إرضاء السيدات ، وإن لم أفلح في إرضاء زوجتي !» .

وابتسمت «إيما» ، بينما استطرد قائلاً في طيبة قلب ، بعد النكتة : «إنما أحببت أن أنبئك بأن النقود ليست بالشيء الذي يقلقني ، بل إني على استعداد لأن أقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة إليه !» .

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة ، فبادر قائلاً بصوت خفيض : «آه ، لن أضطر إلى أن أذهب بعيداً للحصول على ما تريدين ، ثقي بي !» .

وتحول يسأل عن الأب «تيلييه» ـ صاحب «المقهى الفرنسي» ـ الذي كان السيد «بوفاري» يعالجه . ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم أردف وهو يتأمل الأرض عابساً : «إن الجو ولا ريب هو سبب هذه الأمراض . فأنا الآخر أشعر بتوعك ، وما أراني إلاّ مضطراً إلى أن أستشير الطبيب يوماً ما بشأن ألم بظهري . حسناً يا مدام «بوفاري» . أستودعك الله . . إني خادمك الخاضع في خدمتك !» . . وأغلق الباب خلفه في رفق .

وطلبت «إيما» أن يحمل إليها العشاء لتتناوله إلى جوار المدفأة في مخدعها . . وقضت وقتاً طويلاً في الأكل ، إذ كانت راضية عن كل شيء . . وقالت لنفسها وهي تفكر في الشالات : «ما كان أحكم تصرفي !» .

وفجأة سمعت خطى على السلم ، فأدركت أن القادم «ليون» ، ونهضت فتناولت من الصوان أول صف من المناشف التي لم تثن أطرافها بعد . . فلمّا وصل ، بدت جد منهمكة في العمل . ودار الحديث بينهما متراخياً ، إذ كانت مدام «بوفاري» تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكاً . . وأخذ يقلب علبة «الكشتبان» العاجية بين أصابعه ، وهو جالس على مقعد منخفض إلى جوار المدفأة ، وهي منلضية في التطريز ، تطوي ـ من آن إلى آخر ـ طرف القماش بظفرها ، دون أن تتكلم . ومن ثم لزم هو الآخر الصمت ، وقد أسره سكوتها ، كما كان من الممكن أن يأسره

حديثها ! . . وقالت تحدث نفسها : «يا للشاب المسكين !» .

على أن «ليون» لم يلبث أن قال إنه مضطر لأن يذهب إلى (روان) يوماً في بعض مهام عمله ، وأردف : «لقد انتهى اشتراكك في الموسيقى ، فهل أجدده لك؟» . . فأجابت : «لا» . . وسألها «لماذا؟» . . فقالت : «لأن . .» .

ثم زمت شفتيها وأخذت تشد الخيط الرمادي في غرزة طويلة . . وكان عملها هذا يضايق «ليون» ، إذ بدا أنه يؤدي إلى تخشين ملمس أناملها ! . . وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها . . بل قال : «إذاً فسوف تستغنين عنها؟» . . فقالت : «ماذا؟» . . ثم أردفت بسرعة : «الموسيقى؟ . . آه ! . . أجل ! . . أليس لدي بيتي أرعاه ، وزوجي أعنى به ، وألف شيء . . وكثير من الواجبات التي يجب أن أؤديها أولاً؟» .

ونظرت إلى الساعة ، فإذا «شارل» قد تأخر في العودة ، وإذ ذاك تظاهرت بالقلق . . بل لقد رددت مرتين أو ثلاثاً : «الكم هو طيب !» . . وكان الكاتب يحب السيد «بوفاري» ، ولكن حنان زوجته نحوه أدهشه وساءه . ومع ذلك فقد أخذ يمدحه ويقول إن كل امرئ ـ ولا سيما الصيدلي ـ يثني عليه . .

فعادت «إيما» تردد : «آه . . إنه طيب !» . . وأجاب الكاتب : «حقاً !» . . وشرع يتحدث عن مدام «هوميه» التي كان إسرافها في إهمال مظهرها يثير ضحكهما ، فقاطعته «إيما» قائلة : «وما قيمة ذلك؟ . . إن ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها» . . ثم لزمت الصمت !

وتكررت الحال في الأيام التالية . . حديثها ، ومسلكها ، وكل شيء فيها قد تغير ، وأخذت تبدي اهتماماً بشؤون منزلها ، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها في مزيد من الشدة . واستردت طفلتها «بيرت» من المرضع . وكانت «فيليسيه» تحملها ـ إذا وفد الضيوف ـ فتخلع مدام «بوفاري» عنها ثيابها لتعرض أطرافها ، وتردد أنها تعشق الأطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها . .

وأصبح «شارل» يجد خفيه ـ حين يعود إلى الدار ـ وقد وضعا إلى جوار

المدفأة ليكتسبا دفئاً ! . . ولم يعد صداره يفتقد البطانة ، ولا قمصانه تعوزها الأزرار . وكان يسره أن يرى الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد «إيما» تتذمر من المساهمة في الحديقة كما كانت تفعل من قبل ، وغدت تنفذ ما يقترح ، وإن لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها دون تململ . وكان «ليون» حين يرى الزوج إلى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ، وقدماه على حافة المدفأة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة ، كان «ليون» حين يرى هذا كله ، يقول لنفسه : «يا له من جنون ! . . وكيف السبيل إليها؟ !» .

كانت بتصرفاتها هذه تبدو له جد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد فقد كل أمل ، ولكنه ـ بهذا التحول ـ أنزلها مكاناً غير عادي ، إذ أصبحت في نظره مجردة من مفاتنها البدنية التي لم ينل منها شيئاً ، ومن ثم أخذت تسمو في قلبه ، وتبعد عن متناوله كروح سماوية تحلق عالياً ! . . وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لا تمت إلى الحياة الدنيوية ، والتي يتعهدها المرء في نفسه لأنها نادرة ، ويخلف فقدها من الحزن أكثر مما يضفيه من اللذات !

وأخذت «إيما» تزداد نحولاً ، وخداها يزدادان شحوباً ، ووجهها يستطيل ! ألم تصبح بشعرها الأسود ، وعينيها الواسعتين ، وأنفها الأقنى ، ومشيتها التي تشبه حجل الطير ، والسكون الذي أصبحت تخلد إليه . . ألم تكن تبدو ـ بهذا كله ـ وكأنها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها ، وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسي؟ ! . . كانت جد حزينة وهادئة ، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة ، حتى ليشعر المرء إلى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه . . حتى لقد قال الصيدلي : «إيما» امرأة عظيمة المواهب . . ما كان ينبغي أن تعيش في بلدة صغيرة !» .

وكانت ربات البيوت يعجَبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بأدبها ،

والفقراء ببرها . . ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء ! . . كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفي قلباً حائراً ، لا تفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شيء من عذابه . . كانت تحب «ليون» وتنشد العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة ! . . وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها ! . . كانت تهتز طرباً لوقع خطواته ، ثم يخمد الانفعال في حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهي إلى أسى طاغ !

*

على أنّ «ليون» لم يكن يعلم أنها كانت ـ إذا غادرها قانطاً ـ تنهض بعد انصرافه لترقبه في الطريق . . وأنها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل إنها لفقت قصة محبوكة لتجد عذراً يسوّغ لها زيارة غرفته . . وبدت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه ! . . وأخذت أفكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت ، كحمائم فندق «الأسد الذهبي» التي كانت تأتي لتغمس قوائمها الوردية وأجنحتها البيضاء في مياه ميازيبه . ولكنّ «إيما» كانت تزداد كبتاً لحبها كلما ازدادت إدراكاً له ، حتى لا يتجلى واضحاً ، وحتى تستطيع أن تلجمه ! . . كانت تود أن يحدسه «ليون» من تلقاء نفسه ، وتتصور ما يمكن أن ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الإتيان بالخطوة الأولى سوى الكسل ، والخوف . . وشعور بالحياء أيضاً ! . . وخيل إليها أنها قد تمادت في صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شيء . . وإذ ذاك ، كانت تجد في الكبرياء ، وفي البهجة التي تراودها إذ تملك أن تقول لنفسها : «أنا امرأة فاضلة» ، وأن تتأمل نفسها في المرآة متخذة أوضاع الإذعان والاستكانة . . كانت تجد في كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت أنها كانت تقوم بها !

ثم راحت شهوات الجسد ، وجشع المال ، وأشجان العاطفة ، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب ، كانت تزداد استكانة إليه ـ بدلاً من أن تنتشل نفسها منه ـ مستحثة نفسها على الشعور بالألم ، باحثة في كل مكان عن

فرصة لذلك . فكانت تفتعل إذا أسيء تقديم صنف من الطعام ، أو إذا رأت باباً منفرجاً ، وتندب ما لا تملكه من مخمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن متناولها من أحلام ، وما كان عليه بيتها من ضيق !

ومن ثمّ أغاظها أن «شارل» لم يبد أي انتباه إلى عذابها . . وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة إهانة وقحة ، واطمئنانه إلى هذا الاعتقاد جحوداً . . فمن أجل مَن إذاً كانت عفتها وفضيلتها؟ ! . . أولم تكن من أجله هو؟ ! . هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كل سعادة ، والسبب في كل تعاسة . . والذي كان كالمحبس المدبب يحكم إغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذي يطبق عليها من جميع النواحي ! . . لذلك صبت عليه وحده كل تلك الأحقاد العديدة التي تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الأحقاد إنما يضاعفها ، إذ كان المجهود الضائع يضيف سبباً جديداً إلى خيبة الأمل ، ويزيد الهوة بينهما عمقاً ! . . وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمرداً على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى أحلام ملؤها البذخ ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة ! . . ولكم ودت لو أن «شارل» ضربها حتى تجد مسوّغاً لأن تكرهه وتعمل على الانتقام منه لنفسها ! . . وكانت تذهل أحياناً للخيالات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من أن تستمر في الابتسام ، وأن تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها في كل الأوقات ، وأن تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقد أنها سعيدة !

على أنها كانت تشعر باشمئزاز مع هذا النفاق ، وتملكها إغراء راح يزين لها الفرار إلى مكان ما ، مع«ليون» ، لتبدأ حياة جديدة . . ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث أن تنشق في أعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : «ثم إنه ـ إلى جانب هذا ـ لم يعد يحبني ، فماذا يصيبني؟ . . أي عون يرجى . . أي عزاء . . أية تسرية؟» . . وتخرج من هذا كله محطمة الأعصاب ، لاهثة ، عاجزة ، فتنتحب في صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !

وكانت الخادم تسألها إذا أقبلت عليها خلال هذه الأزمات : «لم لا تخبرين السيد بهذا؟» . . فتجيبها «إيما» : «إنها الأعصاب ! . . لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الهموم» .

ـ ٦ ـ

في إحدى الأمسيات وبينما كانت «إيما» جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة ، رأت «ليستيبودوا» ـ الشماس ـ يشذب أغصان حديقة القس . ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق معلناً صلاة المساء . .

كان ذلك في أوائل نيسان/ أبريل ، حين تتفتح البراعم ، وتهب ريح دافئة على أحواض الزهور التي تم حرثها منذ عهد قريب . . وكانت الماشية تبدو عن بعد وهي تتحرك دون أن يسمع لها خطو ولا خوار . . والناقوس ماض في رنينه ، ناشراً في الهواء شجاه وحزنه الوديع !

وعلى رنين دقاته المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة في ذكرياتها القديمة ، أيام الشباب والدراسة في الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالأزهار فوق المذبح ، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة . . وتمنت لو أنها ظلت كما كانت عهد ذاك ، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء التي كانت تتخلله ـ هنا وهناك ـ بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكع . . ثم قداسات أيام الأحد ، حين كانت ترفع رأسها في أثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب ، وسط غلالات الدخان المائلة إلى الزرقة ، التي كانت تتصاعد من المباخر ! . . إذ ذاك جاشت عواطفها ، فأحست بأنها ضعيفة ، مهجورة ، كريشة في مهب الريح . . وسعت ـ دون وعي منها ـ إلى الكنيسة ، توّاقة إلى أية فرائض تتاح لها ، كي تذيب روحها فيها . . فيتلاشى الوجود !

وفي الميدان المؤدي إلى الكنيسة التقت بليستيبودوا عائداً . . فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلاً من أن يتحيّف ساعات العمل اليومية . . حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه . . فضلاً عن أن دقه

مبكراً عن موعده كان ينبّه الصبية إلى موعد درس الدين !

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً ، وراحوا يلعبون على بلاط المقابر ، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور «بنات النار» التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له . .

وسألت مدام «بوفاري» صبياً كان يلهو بهز مزلاج الباب في عروته الواسعة : «أين القس؟» . . فأجاب الصبي : «ها هو ذا قادم» .

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس . وما لبث الأب «بورنيزيان» أن ظهر ، فهرع الأطفال إلى الكنيسة في هرج . . وتمتم القس : «يا لهؤلاء الأوغاد ! . . إنهم دائماً على هذه الحال !» . . ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال : «إنهم لا يحترمون شيئاً !» .

على أنه لم يكد يلمح مدام «بوفاري» حتى هتف : «معذرة ! . . لم أتبيّنك !» . . ودس كتاب الصلوات في جيبه ، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول أن يوازنه بين أصبعيه . . وفي ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه ، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون ، لامعاً عند المرفقين ، بالياً عند الذيل . . وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التي ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر ، المتهدل ، الذي تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب . . وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء ، فراح يتنفس بصوت مسموع . . وعاد يقول : «كيف حالك؟» .

فأجابت «إيما» : «لست على ما يرام . . إنني مريضة !» . . ورد القس قائلاً : «وأنا كذلك . . إن أيام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة . . أليست كذلك ! . . لكننا على كل حال خلقنا لنتعذب ، كما يقول بولس الرسول . ولكن ، ما رأي السيد بوفاري في مرضك؟» .

فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : «هو؟ !» . . فقال الرجل الطيب وقد أخذته الدهشة : «ماذا؟ . . أولم يصف لك دواء؟» .

فقالت «إيما» : «آه . . ليس الذي أحتاج إليه علاجاً دنيوياً !» .

ولكن القس كان ينظر من آن إلى آخر نحو الكنيسة ، حيث ركع الأطفال وأخذوا يتدافعون بالمناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق . .

ومضت «إيما» تقول : «أريد أن أعترف . . .» .

وهنا صاح القس في صوت غاضب : «حذار يا بوديه . . لسوف ألهب أذنيك أيها الشيطان !» . . ثم قال إذ تحول نحو «إيما» : «إنه ابن بوديه النجار . . والداه في يسر ، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له . . على أن بوسعه أن يتعلم بسرعة لو أنه أراد ، فهو شديد الذكاء . . وكيف حال السيد بوفاري؟» .

ولاح أنها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قائلاً : «لا ريب أنه كثير المشاغل دائماً . . فهو وأنا أكثر الناس عملاً في الأبرشية . . هو طبيب الأجسام» . . ثم أردف وهو يطلق ضحكة مجلجلة : «وأنا طبيب الأرواح !» .

وحدجته «إيما» بعينين ضارعتين وهي تقول : «أجل إنك تخفف الأحزان !» .

ـ آه يا مدام بوفاري . . لا تحدثيني عن ذلك ، فقد اضطررت في هذا الصباح إلى التوجّه نحو (باديوفيل) من أجل بقرة كانت مريضة ، فظنوا أنها كانت تحت تأثير الشيطان . . كل أبقارهم هكذا ، وإن لم أدر لهذا مسوّغاً ! ولكن ، معذرة . . ثم التفت نحو الصبية وصاح : «الونغمار وبوديه . . هلاّ كففتما عن هذا؟» . . وقفز مسرعاً إلى داخل الكنيسة .

وقال حين عاد إلى «إيما» وهو ينشر منديله القطني ، ويمسك بأحد أطرافه بين أسنانه : «أجل . . ما أجدر المزارعين بالرثاء !» . .

قالت : «وغيرهم أيضاً !» .

ـ بالتأكيد . . هناك عمال المدن مثلاً .

ـ لست أقصدهم . . .

ـ عفواً ! . . لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يُعلنَ أسرات . ونساء فاضلات ـ بل أؤكد لك أنهن قديسات فعلاً ـ لا يجدن الخبز !

فقالت «إيما» وقد أخذ جانبا فمها يختلجان وهي تتكلم : «ولكن أولئك . .

أولئك اللائي يجدن الخبز يا سيّدي القس ، لا يجدن . . .» .

قال : «النار في الشتاء»؟ !

ـ أواه . . ما قيمة هذا؟

ـ ماذا؟ . . ما قيمته؟ . . يخيل إليّ أنه إذا ما وجد المرء الدفء والغذاء . . إذ . . على كل حال . .

فتنهدت قائلة : «يا إلـهي ! يا إلـهي !» .

ـ إنك تعانين من عسر هضم ولا ريب . . يجب أن تعودي إلى دارك يا مدام «بوفاري» فتشربي قليلاً من الشاي ، فإنه يقويك . . أو تناولي كوباً من الماء البارد الممزوج بمحلول السكر المركز .

وتساءلت «إيما» وقد بدت كمن يتنبّه من حلم : «لماذا؟» . . فقال : «ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيل إلي أنك تشعرين بدوار» . . ثم استدرك قائلاً : «ولكنك كنت تسألينني عن شيء . . فما هو؟ . . إنني لا أذكره» .

فرددت «إيما» : «أنا؟ . . لا شيء ! لا شيء !» . ووقع بصرها ـ حين أجالته ببطء فيما حولها ـ على مسوح القس . . ثم عاد كل منهما يحدق في الآخر صامتين . وما لبث أن قال في النهاية ، «والآن ، معذرة يا مدام بوفاري ، فإن الواجب قبل كل شيء ، كما تعلمين ، ولا بد من أن أتولى علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء ، فإن حفلة «التناول» الأولى قادمة عما قريب ، وأخشى أن تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا . . ولذلك أستبقيهم ساعة بالإضافة إلى الفترة المحددة للدرس في يوم الأربعاء من كل أسبوع ، منذ عيد الصعود ، في مواظبة قاسية . . يا للمساكين ! . . إن المرء لا يملك أن يرشدهم بسرعة كبيرة إلى طريق الرب . . لك تمنياتي يا سيدتي بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتي !» .

ودخل إلى الكنيسة وهو يثني ركبته احتراماً عند الباب . . ورأته «إيما» يغيب بين صفي المقاعد ، وهو يسير بخطى ثقيلة ، ورأسه مائل على كتفه قليلاً ،

ويداه مبسوطتان ، وقد أخرجهما من المسوح . . وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل جسمها ـ قطعة واحدة ـ كتمثال على قاعدة تدور ، ويممت شطر بيتها . غير أن صوت القس المرتفع ، وأصوات الأطفال الصافية ، ظلت تصل إلى أذنيها وتلاحقها . . «هل أنت مسيحي؟» . . «نعم ، أنا مسيحي» . . «ومن هو المسيحي؟» . . «هو ذلك الذي عمّد . . عمّد . . عمّد» !

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز ، حتى إذا بلغت حجرتها ألقت بنفسها في مقعد مريح . . وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة . . ولاحت قطع الأثاث في أماكنها أكثر جموداً عما هي عادة ، وأشد توارياً في الظلال وكأنها تغوص في بحر من الظلمات . . والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة في دقاتها . وساور «إيما» عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء ، بينما يعتمل جوفها باضطراب صاخب ! . .

وفطنت إلى أن «بيرت» الصغيرة كانت هناك ـ بين النافذة ومنضدة الحياكة ـ تتأرجح على حذاءيها المنسوجين باليد ، وتحاول أن تسعى إلى أمها لتمسك بأطراف أشرطة مرولتها . . فقالت وهي تنحيها بيدها : «دعيني وشأني !» .

على أن الصغيرة لم تلبث أن اقتربت من ركبتي أمها ، فاستندت إليهما بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من اللعاب أخذ يتساقط على مرولتها الحريرية . . فكررت الشابة في ضيق : «دعيني وحدي !» . . وأفزع وجهها الطفلة ، فأخذت تصرخ . . ولكزتها الأم بمرفقها قائلة : «هلا تركتني وحيدة؟» . . وسقطت «بيرت» عند قاعدة الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها ، الذي شرع ينزف دماً . ووثبت مدام «بوفاري» لترفعها ، وشدّت حبل الجرس ، فنادت الخادم بأعلى صوتها . . وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر «شارل» إذ كانت ساعة العشاء قد حانت ، فعاد إلى البيت . .

قالت «إيما» في صوت هادئ : «انظر يا عزيزي ! لقد وقعت الصغيرة وهي تلعب ، فجرحت نفسها» . . فطمأنها «شارل» إلى أن الأمر ليس خطيراً ،

وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة .

ولم تهبط مدام «بوفاري» إلى قاعة الطعام ، إذ رغبت في أن تخلو للعناية بالطفلة . وحين أخذت ترقبها وقد نامت ، زايلها رويداً ما أحست به من قلق ، وبدا لها أنها كانت غبية وساذجة إذ داخلها كل ذلك الانزعاج لأمر بسيط كهذا . فالواقع أن «بيرت» لم تعد تشهق بنهنهة البكاء ، بل إن أنفاسها أخذت ترفع في رفق الغطاء القطني الذي أسبغته عليها أمها . . وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان أجفانها نصف المغمضة التي كان المرء يلمح بين أهدابها حدقتين شاحبتين ، غائرتين . . والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدها في خط منحرف . وعبر خاطر ببال «إيما» ، فقالت لنفسها : «يا عجباً ! . . ما أقبح هذه الطفلة !» .

وعندما عاد «شارل» في الساعة الحادية عشرة من الصيدلية ـ حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة ـ وجد زوجته وهي تقف إلى جوار المهد ، فقال وهو يقبل جبينها : «قلت لك إنها إصابة بسيطة ، فلا تنزعجي يا حبيبتي المسكينة ، وإلا أسلمت نفسك للمرض» . . وكان قد مكث طويلاً في بيت الصيدلي ، إذ جهد «هوميه» في التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم أنه لم يبد كثيراً من القلق والتأثر . . ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التي يتعرض لها الأطفال ، وعن إهمال الخدم .

حاول «شارل» أن يقطع الحديث أكثر من مرة ، فهمس في أذن الكاتب : «أود أن أتحدث إليك في أمر» . . فتقدمه الكاتب صاعداً السلم وهو يسائل نفسه : (أتراه قد حدس شيئاً؟) . . وأخذ قلبه يخفق ، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات . . وأخيراً ، رجاه «شارل» ـ بعد أن أغلق الباب ـ أن يسأل بنفسه في (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة ، إذ كان يود أن يعد لزوجته مفاجأة عاطفية . . لفتة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء . ولكنه أراد أولاً أن يعرف كم تكلف . . وما كان السؤال ليضايق السيد «ليون» في شيء ، إذ كان يذهب إلى المدينة في كل أسبوع تقريباً .

ولكن . . لماذا «ليون» بالذات؟ ! . . حدس السيد «هوميه» أن وراء الأكمة مغامرة من مغامرات الشباب . . أو مؤامرة ! . . ولكنه كان مخطئاً ، إذ إن السيد «ليون» لم يكن يسعى إلى غرام . . بل إنه كان أكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام التي أصبح يتركها في طبقه . وقد سألت محصل الضرائب علّه يزيدها علماً وإيضاحاً ، ولكن «بينيه» أجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في الشرطة» ! .

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة ، إذ كثيراً ما كان «ليون» ينطرح في مقعده ، ويمد ذراعيه ، ويشكو من الحياة في أسلوب غامض ! . . وقد قال له المحصل : «إنما يرجع ذلك إلى أنك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية» . .

ـ أية تسلية؟

ـ لو كنت في مكانك لهويت العمل في الخرطة . .

قال الكاتب : «ولكني لا أعرف كيف أديرها» . . فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضى : «آه . هذا صحيح !» .

*

كان «ليون» قد برم بالحب الذي لا أمل منه ، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذي يسببه مضي الحياة على وتيرة واحدة متكررة ، دون ما هدف يوجهها ، أو مأرب يعززها . واشتد به الملل من «أيونفيل» وأهلها ، حتى أصبحت رؤيته بعض الأشخاص ، والبيوت ، تثيره إلى درجة لم يعد يحتملها ! . . وقد كان الصيدلي رجلاً طيباً ، إلا أنه أصبح لا يطيقه البتة . . ومع ذلك فإن التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! . . وتحولت هذه الهواجس بعد قليل إلى نفود صبر ، وإذ ذاك أخذت باريس تناديه ـ على البعد ـ بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ، وضحكات عاملاتها اللعوبات ! . .

ولمّا كان لا بد من أن يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل إليها لتوه؟ . . وما الذي يمنعه؟ . . وشرع يعد متاعه ، ودبر أعماله مقدماً ، وأثث

في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان . . فيتلقى دروسه في العزف على «الغيتار» ، ويقتني منامة جميلة ، وقلنسوة على غرار قلنسوات أهل (الباسك) ، وخفين من المخمل الأزرق ! . . بل إنه بدأ يتصور في إعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما «غيتار» تعلوها جمجمة !

إلاّ أن العقبة كانت تنحصر في الفوز بموافقة أمه . . على أنه لم ير ما هو أحكم من هذا التدبير . . بل إن رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يحرز تقدماً سريعاً في مرانه ودراسته . وإذ ذاك ، انتهج «ليون» طريقاً وسطاً ، فأخذ يبحث عن مكتب في (روان) يقبله ككاتب ثان ، فلما لم يجد ، كتب إلى أمه في النهاية خطاباً طويلاً مسهباً شرح فيه أسباب مبادرته للرحيل إلى باريس والإقامة فيها . . فوافقت ! . . على أنه لم يتعجل . . وظل «هيفير» سائق «العصفورة» شهراً بأكمله يحمل معه كل يوم من (أيونفيل) إلى (روان) ، ومن (روان) إلى (أيونفيل) صناديق ، وحقائب ، وحزماً . . حتى إذا أعد «ليون» ثيابه ، وجدد حشو مقاعده المريحة الثلاثة ، واشترى عدداً من ربطات العنق ، وقام ـ بالاختصار ! ـ باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول العالم ، أخذ يرجئ سفره من أسبوع إلى آخر ، حتى تلقى من أمه خطاباً ثانياً تستحثه فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم أن يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات .

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكت مدام «هوميه» ، وانتحب «جوستان» ، وأخفى «هوميه» تأثره ـ كرجل قوي الأعصاب ! ـ ورغب في أن يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذي كان سيقل «ليون» في عربته إلى (روان) . ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد «بوفاري» ، فلمّا بلغ قمة السلم ، توقف وقد تتابعت أنفاسه لاهثة . . ولـمّا دلف إلى المكان ، نهضت مدام «بوفاري» في عجلة ، فقال ليون : «ها أنذا مرة أخرى» . . فقالت : «كنت متأكدة من هذا» . . وعضت شفتيها ، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت ـ من منابت شعرها حتى طوق ثوبها ـ بالحمرة .

وظلت واقفة ، مستندة بكتفها إلى الخشب الذي كان يكسو الجدار . . بينما مضى متسائلاً : «هل الطبيب هنا؟» . . فأجابت : «إنه في الخارج . . في الخارج !» . . ثم لفّهما صمت . . وأخذ كل منهما يرمق الآخر ، وقد رزحت أفكارهما تحت ألم واحد ، متعانقة كصدرين ينبضان . . ثم قال «ليون» : «أود أن أقبّل بيرت» . . فهبطت «إيما» بضع درجات ونادت «فيليسيته» . . وألقى نظرة طويلة على ما حوله من جدران ، وزخارف ، ومدفأة ، وكأنه ينفذ خلال كل شيء ! . . وعادت الخادم تحمل «بيرت» وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً على عقب ومعلقة في خيط . وطبع «ليون» عدة قبلات على عنقها وغمغم : «في رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة ! . . أستودعك الله أيتها الصغيرة الحبيبة ! . . وداعاً !» . . ثم ردها إلى أمها ، فقالت للخادم : «اخرجي بها» . . وبقيا وحيدين ، وقد أولته مدام «بوفاري» ظهرها ، وألصقت وجهها بزجاج النافذة . . بينما أمسك «ليون» بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق . .

وقالت «إيما» : «ستمطر السماء !» . . فأجاب : «لدي معطف» . . قالت : «آه» . . ثم استدارت ، وقد خفضت ذقنها ، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضوء ـ كما يسقط على قطعة من مرمر ـ فانحدر حتى حاجبيها ، دون أن يملك المرء أن يحدس ما كانت «إيما» تراه عند الأفق ، ولا ما كان يجول في سريرتها . . وما لبث «ليون» أن تنهّد قائلاً : «والآن . . وداعاً !» . . فرفعت «إيما» رأسها بحركة سريعة وقالت : «أجل ، وداعاً . . اذهب !» ، . . وتقدم كل منهما نحو الآخر ، ومدّ يده ، ولكنها ترددت . . ثم قالت وهي تسلمه يدها ، وتغتصب ضحكة : «فليكن على الطريقة الإنكليزية إذاً !» . . وتحسس «ليون» راحتها بين أصابعه ، ولاح له أن روح كيانه كله قد انسابت إلى يدها الرطبة . . ثم فتح يده ، وتلاقت أعينهما مرة أخرى . . ثم اختفى ! . . حتى إذا بلغ السوق ، انحرف متوارياً خلف عمود ، وتذود بنظرة أخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء . . وخيّل إليه أنه رأى طيفاً خلف نافذة حجرة «إيما» ، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن شخصاً أخذ يزحزحها ، فراحت تسدل

رويداً رويداً ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها أمام النافذة ، وظلت مسدلة في استقامة ودون حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق «ليون» يعدو . . ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق ، وإلى جوارها رجل في مرولة سميكة ، يمسك بالجواد . . وكان «هوميه» والسيد «جويومان» يتحدثان . . ريثما يصل ! . . وقال له الصيدلي والدموع تترقرق في عينيه : «قبّلني ! . . هاك معطفك يا صديقي العزيز . . خذ حذرك من البرد ، واحترس لنفسك . . اعتن بنفسك !» . وقال موثق العقود : «هيا يا ليون . . اصعد !» . . وانحنى «هوميه» على «رفوف» العربة ، ونطق بهاتين الكلمتين الحزينتين بصوت يقطعه النشيج : «رحلة سارة !» . . فأجابه السيد «جويومان» : «عم مساء !» .

وتحركت العربة . . وقفل «هوميه» عائداً .

•

في تلك الأثناء كانت مدام «بوفاري» قد فتحت النافذة المطلة على الحديقة وأخذت ترقب السحب ، فإذا هي تتجمع حول الشمس الغاربة في اتجاه (روان) ، ثم تطوي ذيولها السوداء بسرعة ، فتندفع من خلفها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب في درع معلقة ، بينما كانت بقية السماء خالية ، بيضاء كالخزف . . على أن الريح لم تلبث أن هبت فأحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر في صوت مسموع . . ثم عادت الشمس إلى البزوغ ، فانبعث نقيق الدجاج ، وأخذت الطيور تنفض أجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معها وهي تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية . .

وحدثت «إيما» نفسها قائلة : «آه ! . . ما أبعد المسافة التي يكون قد قطعها الآن !» .

وجاء السيد «هوميه» في منتصف السابعة ، في أثناء تناول العشاء ـ كعادته ـ وقال : «لقد ودعنا صديقنا الشاب !» . . فقال الطبيب : «علمت بذلك» . .

ثم دار في مقعده وقال : «هل من أنباء عن الأسرة؟» .

ـ لا شيء يستحق الذكر ، اللهم إلا أن زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم . . أنت تعرف النساء . . يتأثرن لأتفه الأمور ، ولا سيما زوجتي . . ونخطئ لو أننا عارضنا ذلك ، إذ إن جهازهن العصبي أرق من جهازنا !

وقال شارل : «مسكين ليون ! . . ترى كيف سيعيش في باريس؟ . . وهل يألفها؟» . . فتنهدت مدام «بوفاري» . . وطقطق الصيدلي بلسانه قائلاً : «يألفها ! . . حفلات العشاء في المطاعم ، والمراقص التنكرية والشمبانيا . . أؤكد لك أن كل هذا سيحلو له !» . . فاعترض السيد «بوفاري» قائلاً : «لا أظنه سينزلق إلى الفساد» . . فأسرع السيد «هوميه» قائلاً : «ولا أنا . . وإن كان سيضطر إلى أن يجاري الآخرين خشية أن يظنوه متزمتاً ! . . وما أراك تعرف أية حياة يمارسها أولئك «الكلاب» من شباب الحي اللاتيني مع الممثلات . . ثم إن الطلبة يحظون بنظرة طيبة في باريس ، ويكفي أن يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم في خير المجتمعات . . بل إن من سيدات الحي في «سان جيرمان» من يتدلّهن في هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جداً» !

قال «شارل» : «ولكني أخشى عليه . . هناك . .» ، فقاطعه الصيدلي قائلاً : «أصبت . . هذا هو الجانب الآخر للموضوع . فالمرء هناك مضطر إلى أن يبقي يده فوق جيبه . . إنك قد تكون في حديقة عامة ـ مثلاً ـ فيتقدم إليك شخص حسن الهندام ـ وربما كان يحلي صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الديلوماسي ـ ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم إليك قبضة من سعوط ، أو يلتقط قبعتك إذا وقعت ، ثم يزداد وداً فيصحبك إلى مقهى ، ويدعوك إلى منزله الريفي . . وبين كأسين من النبيذ يقدمك إلى مختلف أنواع الناس . وفي ثلاث أرباع الحالات لا يكون ذلك إلا لينشل ساعتك ، أو ليورطك في مأزق خبيث !» . . فقال «شارل» : «هذا صحيح ! . . على أنني كنت أفكر بوجه خاص في الأمراض . . حمى التيفوئيد مثلاً ، التي تصيب الطلبة الوافدين من الريف» !

وارتعدت «إيما» . . بينما قال الصيدلي : «هذا راجع إلى تغيير نظام الأكل ، وما يترتب عليه من اضطراب في الجهاز كله . . ثم ، هناك ماء باريس ، ألم تسمع عنه؟ . . وكل تلك الأطعمة التي تقدم في المطاعم . . كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل ، التي تنتهي إلى إشاعة الحرارة في الدم ، وهي لا تعدل ـ مهما قال الناس عنها ـ حساء طيباً ! . .

وهكذا استمر يعرض آراءه ، وميوله الشخصية ، حتى أقبل «جوستان» يدعوه . . فصاح : «أما من لحظة راحة؟ . . دائماً أراني مشدوداً إلى الصيدلية والعمل ! . . أما أستطيع أن أخرج دقيقة؟ . . هل أظل أكد وأكدح كالحصان المشدود إلى المحراث؟ . . يا لها من عبودية !» . . حتى إذا بلغ الباب ، التفت قائلاً : «بهذه المناسبة ، هل عرفتما النبأ؟» .

ـ أي نبأ؟

أجاب «هوميه» رافعاً حاجبيه ، متخذاً أكثر مظاهره جدية : «من المحتمل جداً أن الاجتماع الزراعي ـ الذي كان يعقد عادة في مقاطعة السين السفلى ـ سيعقد هذا العام في (أيونفيل) . . هذه هي الشائعة المنتشرة . وقد أشارت إليها الصحيفة في هذا الصباح . وسيكون هذا أمراً بالغ الأهمية لمنطقتنا . على أننا سنتحدث عن هذا فيما بعد . . شكراً ، إني أرى طريقي ، فإن «جوستان» يحمل المصباح» .

ـ ٧ ـ

استيقظت «إيما» حزينة في اليوم التالي ، إذ بدا لها كل شيء سابحاً في جو أسود يطفو في اضطراب حائر على أسطح الأشياء ومظاهرها . . وأخذ الأسى يغوص في أعماق نفسها في عزف واهن كالذي تبعثه رياح الشتاء في القلاع الخربة ! . . كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه على الأشياء التي لا رجعة لها ، أو الكلل الذي يعتريك بعد الجهد المبذول ، أو الألم الذي يسببه جمود حركة معتادة سادرة ، أو التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد !

وكما حدث لها عند عودتها من (فوبيسار) ـ حين كانت الرقصات تدور في رأسها ـ اعترتها كآبة قاتمة ، وقنوط خدر نفسها . . وعاودها طيف «ليون» أطول قامة ، وأكثر ملاحة ، وفتنة ، وغموضاً . . فهو لم يفارقها ، وإن كان قد انفصل عنها . . كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه ! . .

ولم تكن تملك أن تحول بصرها عن البساط الذي سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها . . ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع في بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة . . كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب ، يرافقهما خرير الأمواج؟ ! . . ما كان أشد تألق الشمس إذ ذاك ! . . أية أصائل هانئة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة ! . . كان يقرأ لها بصوت مرتفع ، وهو عاري الرأس ، وقد جلس فوق رقعة من الأغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وأزهار الخميلة . . أواه ! . . لقد ذهب ! . . فتنة حياتها ، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة ! . . لمَ لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها؟ . . لم لم تتشبث بها بكلتا يديها ، حين همت بأن تفر منها؟ ! . . وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب «ليون» . . واستولت عليها الرغبة في أن تفر وراءه وتلحق به ، فتلقي بنفسها بين ذراعيه وتقول له : «هاأنذي ! . . إنني لك !» . . ولكنها ما لبثت أن تقاعست إزاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها ـ التي ضاعفها الندم ـ إلا شدّة !

•

وغدت ذكرى «ليون» منذ ذلك الحين محوراً لمللها . . كانت تشتعل هناك ، في لهيب يفوق لهيب نار خلفها المسافرون فوق الجليد ، في سهول المراعي الروسية ! . . وكانت تقفز نحوه ، وتلتصق به ، وتحرك ، في عناء ، النار المحتضرة وتبحث في كل ما حولها عن شيء يذكيها ! . . وجمعت أبعد الذكريات ، وأقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته ، وشهواتها الشبقة التي لم تحظ بالإشباع ، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تتكسر الأغصان الذاوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والألفة المنزلية . . كل

هذا جمعته ـ دون أن تفعل شيئاً ـ ثم اتخذته وقوداً لشجونها !

على أن اللهب لم يلبث أن خمد ، إمّا لأن الوقود قد نفد ، أو لأنه تراكم أكثر مما ينبغي ، وشيئاً فشيئاً ، أخذ الحب يخمد بسبب الفراق ، والندم يختنق بحكم الاعتياد ، ووهج الحريق الذي أشاع في سمائها الشاحبة لوناً قرمزياً يخبو رويداً رويداً ! . . وفي غفلة من ضميرها ، ظنت أن اشمئزازها من زوجها إن هو إلا تلهف لحبيبها ! . . بيد أن العاصفة ظلت هوجاء . . حتى إذا احترقت الشهوة فصارت رماداً ، دون أن تجد عوناً ، ودون أن تشرق شمس ، أطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت في البرد الفظيع الذي كان يخترمها . . ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة . . وأصبحت ترى نفسها أكثر تعاسة ، إذ كانت قد خبرت الحزن ، فأيقنت أنه حزن لن ينتهي !

ولعلّ امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات الجسام ، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات ! . . وبالفعل ، ابتاعت «إيما» مقعداً قوطياً للصلاة ، وأنفقت خلال شهر واحد أربعة عشر فرنكاً في شراء ليمون لتنظيف أظفارها ، وكتبت إلى (روان) في طلب ثوب من الكشمير الأزرق ، واختارت شالاً من أبدع شالات «لوريه» ، واعتادت أن تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النوافذ ، وتستلقي في هذا الزي على أريكة ، وفي يدها كتاب ! . . وكثيراً ما أخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ، فأحياناً تصففه على الطريقة الصينية ، أو ترسله في خصلات رخوة تجدلها في ضفائر ، أو تفرقه على جانب الرأس مقصوصاً من أسفل كما يفعل الرجال !

وأرادت أن تتعلم الإيطالية فابتاعت معاجم وكتاباً في النحو ، وكمية من الورق الأبيض . . وجربت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة . . وكان «شارل» يستيقظ مجفلاً في أثناء الليل أحياناً ، ظاناً أن أحداً يناديه لإسعاف مريض ، فيغمغم : «ها أنذا قادم !» ، ثم يفطن إلى أن ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب أشعلته «إيما» لتوقد المصباح ! . . ولكن قراءاتها لم تكن أسعد حظاً من تطريزها . . كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى ، ثم كانت

تلقي بها في الصوان ، وتشرع في تطريز غيرها ، لتلقي بها بدورها . . وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتى تطرحه جانباً وتتناول سواه !

ثمّ كانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق معها إلى ارتكاب أية حماقة . . فقد افترض زوجها يوماً بأنها تستطيع أن تشرب كأساً كبيرة من «البراندي» . وإذ كان «شارل» من الحمق بحيث قبل هذا التحدي ، فقد ازدردت ما كان في الكأس حتى آخر قطرة ! . . وبالرغم من تصرفاتها النزقة ـ كما كانت ربات البيوت في (أيونفيل) يصفنها ـ فإن «إيما» لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبي فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذي ينتاب وجوه العوانس ، والرجال ذوي الطموح الخائب ! . . واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الأبيض ، وأصبح جلد أنفها مشدوداً عند الفتحتين ، وغدت عيناها زائغتين ، وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد أن اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها !

وكثيراً ما كانت تصاب بالإغماء ، حتى إنها بصقت دماً ذات يوم . وعندما أخذ «شارل» يروح ويجيء حولها في اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : «آه ! . . وما أهمية هذا؟» . . فأسرع «شارل» إلى مكتبه وانخرط في البكاء ، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي . . ثم كتب إلى أمه يسألها أن تحضر ، وراحا يعقدان معاً الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الرأي بشأن «إيما» . . وفيما ينبغي أن يتخذاه . . وما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كل علاج طبي؟ . . وقالت مدام «بوفاري» الأم : «أتعرف ما الذي يلزم زوجتك؟ . . إنها تحتاج إلى أن تنهمك في عمل يدوي يشغلها . . ولو أنها كانت مضطرة ـ ككثيرات غيرها ـ إلى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التي تنتابها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها ، ومن البطالة التي تعيش فيها» . فقال «شارل» : «ولكنها دائماً مشغولة» . .

ـ آه ، حقاً . . مشغولة بماذا؟ . . قراءة الروايات ، والكتب التافهة ، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال

مقتبسة عن «ڤولتير»(*)؟ . . كل هذا يشتت العقل يا بني المسكين! . . وأي إنسان بلا دين لا بد أن ينتهي أسوأ نهاية!

وهكذا استقر الرأي على منع «إيما» من قراءة الروايات . . ولم يكن الأمر هيناً ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، ورأت أن تذهب بنفسها إلى متعهد الكتب ـ عند مرورها بروان ـ فتخبره بأن «إيما» أوقفت اشتراكها . . ومن ثم كان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً . . لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتاها معاً قد تبادلتا ست كلمات ، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء إلى الفراش ليلاً . .

كانت «إيما» تتكئ على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان . . فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والنزهة . . وفيما هي تتسلى بمشاهدة حشد من الأجلاف ، رأت سيداً في سترة طويلة من المخمل الأخضر ، وفي يديه قفازان أصفران . . وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعه فلاح يسير مطاطئ الرأس ، بادي الاستغراق في التفكير . . وقال الرجل يسأل «جوستان» ـ الذي كان يتحدث إلى «فيليسيتيه» عند درجات المدخل ـ وقد ظنه خادماً في المنزل : «هل أستطيع أن أقابل الطبيب؟ . . قل له إن السيد «رودولف بولانجيه» من (لاهاشيت) هنا» . .

وأقبل «شارل» على الغرفة ، فقدم إليه السيد «بولانجيه» رفيقه الذي كان يريد أن يفصد لأنه كان يحس «بتنميل يسري في كل جسمه»! . . وقال الرجل يعارض كل حجة : «سوف يطهرني هذا» . . ومن ثم أمر «شارل» بضمادة ووعاء سأل «جوستان» أن يمسكه له ، ثم قال للفلاح الذي شحب لونه : «لا تخف يا بني!» . فقال الآخر : «لا . . لا ، يا سيدي . . هيا» . . وفي تظاهر بالجرأة ، مد ذراعه الضخمة . . وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ملطخاً يديه ، فهتف شارل : «قرب الوعاء» . . بينما قال الفلاح : «يا إلـهي! . . إن

(*) فرنسوا ڤولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) مؤلف فرنسي ، زعيم حركة الفلسفة المادية ، قاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدهم بقلمه اللاذع .

المرء ليحسبها نافورة صغيرة . . ما أشد حمرة دمي! . . إنها دلالة طيبة . . أليست كذلك؟!» .

فقال الطبيب : «إن المرء لا يشعر بشيء في البداية ـ أحياناً ـ ثم يواتيه الإغماء فيما بعد ، ولا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرجل!» . . وعند هذه الكلمات ، أفلت الفلاح الكيس الذي كان يعبث به بين أصابعه . . وطقطق ظهر المقعد ، إذ سرت في كتفيه رعدة . . وسقطت قبعته ، فقال «بوفاري» وهو يضغط الوريد بأصبعه : «لقد توقعت هذا» . . وأخذ الوعاء يهتز بين يدي «جوستان» ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : «إيما . . إيما!» ، وهبطت السلم في وثبة واحدة ، فصاح : «بعض الخل . . يا إلـهي! . . اثنان في وقت واحد» . . وتعذر عليه ـ لفرط انفعاله ـ أن يضع الكمادة!

وقال السيد «بولانجيه» في هدوء وهو يمسك بذراع «جوستان» ويجلسه على المائدة وظهره إلى الحائط : «ما هذا بشيء!» . . وراحت مدام «بوفاري» تخلع عنه رباط رقبته . . وانعقد الشريط الذي يضم فتحة قميصه ، فظلت دقائق تحرك أصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق . . وما لبث الفلاح أن أفاق ، ولكن إغماء «جوستان» طال ، واختفت حدقتاه في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن . . فقال شارل : «يجب أن نخفي هذا عنه» ، فتناولت مدام «بوفاري» الوعاء لتضعه تحت المائدة . . وإذ تحركت منحنية ، انتشر حولها ـ على بلاط الغرفة ـ ثوبها . وكان ثوباً صيفياً أصفر ، ذا أربعة «كرانيش» وخصر طويل وذيل واسع . . وترنحت «إيما» قليلاً وهي منحنية فبسطت ذراعيها ، فالتف القماش حول صدرها ، مبيناً قسماته . . ثم ذهبت لتحضر إبريق ماء ، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلي ، وكانت الخادم قد ذهبت في غمرة الارتباك لاستدعائه ، وما إن رأى عيني تلميذه محملقتين ، حتى تنفس الصعداء ، ثم ذهب إليه فحدق فيه من رأسه إلى قدمه وقال : «مغفل! . . مغفل كبير! . . كأني بالحجامة عملية

خطيرة ، أليس كذلك؟ ! . . أفهكذا يتحول الصنديد الذي لا يخشى شيئاً إلى سنجاب من النوع الذي يتسلق إلى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق ! . . أي نعم ، تكلم وأطنب مزهواً في مدح نفسك ! . . يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلية فيما بعد ! . . إنك قد تستدعى في ظروف خطيرة إلى الحاكم لتنير أذهان القضاة ، وإذ ذاك يتحتم عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك ، وأن تظهر بمظهر الرجل . . وإلاّ كنت أبله !» .

ولم يجب «جوستان» فاستطرد الصيدلي : «من سألك أن تحضر؟ إنك لتثقل دائماً على السيد والسيدة ، فضلاً عن أنني لا أستغني عنك في أيام الأربعاء ، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً ، وقد تركت كل شيء وحضرت نظراً لاهتمامي بأمرك ، فهيّا ، انهض . . أسرع ! . . عجل ! . . انتظرني هناك ، وانتبه للقوارير» . . وما إن انصرف «جوستان» ـ بعد أن سوى ثيابه ـ حتى أخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الإغماء ، فزعمت مدام «بوفاري» أنها لم تفقد قط وعيها . . فقال السيد «بولانجيه» : «هذا عجيب بالنسبة إلى سيدة ! . . على أن بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رأيت ـ في إحدى المبارزات ـ شاهداً يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات !» .

وقال الصيدلي : «إن مرأى دماء الغير لا تؤثر فيّ ـ شخصياً ـ على الإطلاق ، ولكن مجرد التفكير في أن دمي يسيل كاف لأن يفقدني الوعي . . لو تماديت في التفكير !» . . وعندئذ سرح السيد «بولانجيه» خادمه «موصياً إياه بأن يهدئ من جأشه بعد أن تخلّص من وهمه» . ثم أضاف : «إنه قد أتاح لي فرصة التعرف بكم» . . ونظر نحو «إيما» حين قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى في غير اكتراث ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقاً على الضفة الأخرى للنهر ، في طريقه إلى (لاهاشيت) . . ورأته «إيما» يسير في المرعى تحت أشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يفكر . .

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : «إنها لطيفة جداً . . لطيفة جداً . . زوجة الطبيب هذه ! . . أسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدمان صغيرتان ، وقوام

كقوام الباريسيات . . من أين جاءت بحق الشيطان . . من أين حظي بها هذا الرجل البدين؟» .

كان «رودولف بولانجيه» في الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خالط كثيراً من النساء حتى غدا خبيراً بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة ، فراح يفكر فيها وفي زوجها . . ويقول لنفسه : «أعتقد أنه مغفل ، وأنها قد سئمته ولا ريب ، فإن أظفاره قذرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام ، وبينما ينطلق لعيادة مرضاه ، تعكف هي على رتق الجوارب ، فلا تلبث أن تسأم ! . . ولا بد أنها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص «البولكا» كل مساء . . يا للمرأة المسكينة ! . . كأني بها تتعطش إلى الحب كما تتعطش السمكة إلى الماء فوق مائدة المطبخ ! . . وأن ثلاثاً من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها تعشق المرء ، إنني واثق من ذلك ! . . ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة . . أجل ، ولكن كيف السبيل إلى التخلص منه بعد ذلك؟» .

غير أن متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب إلى التفكير في عشيقته على سبيل المقارنة . . كانت ممثلة في (روان) ، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها . وما إن أخذ يتأمل صورتها ـ على صفحة ذاكرته ـ حتى أحس بجذوة رغبته تخمد . . فقال لنفسه : «آه ! . . إن مدام بوفاري أجمل منها ، وأكثر نضرة بوجه خاص . . فلقد بدأت فرجينيا تميل إلى البدانة بالتأكيد . . وهي امرأة من العسير إرضاء رغباتها . . ثم إنها ذات ولع جنوني بجراد البحر !» .

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الأعشاب عندما تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة . . وعاد يتمثل صورة «إيما» في الحجرة ، وفي الثوب الذي رآها فيه . . ثم شرع يخلع عنها ثيابها في خياله ! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه : «آه . . لسوف أنالها !» . . وشرع لفوره يدرس الأسلوب «السياسي» للمغامرة ، فساءل نفسه : «أين نلتقي؟ . . وبأي الوسائل؟ . . لسوف تضايقنا دائماً الطفلة ، والخادم ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم . أف ! . . إن

المرء معرض لأن يضيع كثيراً من الوقت في كل ذلك» . . ثم عاد يقول : «إن لها في الحق عينين تخترقان قلب المرء كالمثقاب . . ويا لشحوب بشرتها ! . . إنني أعشق الشاحبات !» .

وعندما بلغ قمة تلال (أرجي) ، كان ذهنه قد استقر على أمر ، فقال : «لم يبق إلاّ تصيّد الفرص . حسناً ، وسأطلب «حجامة» لنفسي لو استدعى الأمر . . ولن نلبث أن نغدو أصدقاء ، فأدعوهم إلى منزلي» . . ثم أضاف : «مرحى ! . . إن المعرض الزراعي عما قريب ، ولسوف تزوره فأراها هناك . . ولنبدأ في جرأة ، فهذه أضمن الطرق للوصول !» .

ـ ٨ ـ

حان أخيراً موعد المعرض الزراعي الذي شاع ذكره . . وفي صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع أهل (أيونفيل) على أبواب منازلهم يتحدثون عن الاستعدادات . . كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع نبات اللبلاب ، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة . . وأمام الكنيسة ـ في وسط الميدان ـ نصب مدفع من النوع الذي يحدث قرقعة ، للإعلان عن وصول مدير المقاطعة ، وتحية أسماء المزارعين الفائزين بجوائز . ووفد الحرس الوطني من (بوشي) ـ إذ لم يكن في (أيونفيل) حرس ـ لينضم إلى فريق رجال الإطفاء الذين كان «بينيه» يرأسهم . . وقد ارتدى في ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الأزرار سترته حول جسمه إلى درجة أحالت جذعه إلى كتلة متيبسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان الجزء الحي من جسمه كله قد هبط إلى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة على إيقاع واحد . . ولمّا كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطني ، فقد أخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله ـ على حدة ـ ليظهر مواهبه . . فكان المرء يرى الأشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون أن يكون لهذا العرض من نهاية ! . . وبدا أنه لم يُر في قرية (أيونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا من قبل !

وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف أنحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت إلى آخر ، كان المرء يسمع ارتطام الأبواب وهي تغلق وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن ـ وقد ارتدين قفازاتهن ـ يسعين إلى مشاهدة الاحتفال . . وكان أشد ما حاز الإعجاب ، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح ، وقد حفّا بمنصة أعدت لجلوس ذوي النفوذ . وإلى جانب ذلك ، أقيمت حول أعمدة دار البلدية أربع قوائم تحمل كل منها علماً صغيراً من قماش يميل لونه إلى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية . . وقد كتب على العلم الأول : «إلى التجارة» ، وعلى الثاني : «إلى الزراعة» ، وعلى الثالث : «إلى الصناعة» ، وعلى الرابع : «إلى الفنون الجميلة» .

وكان الحبور الذي أشرقت به الوجوه جميعاً قد انقلب تجهماً على وجه مدام «لوفرانسوا» ، صاحبة الفندق ، إذ راحت تتمتم لنفسها ، وهي واقفة على درجات مطبخها : «يا للحماقة ! . . يا للسخف ! . . هذا السرادق من القماش السميك الخشن ! . . هل يظنون أن مدير الإقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك؟ ! . هل يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة؟» . ومر بها الصيدلي إذ ذاك ، وكان يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً من المخمل القطني ، وحذاءين من نسيج الفراء . . ومن العجيب أنه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق : «ائذني لي ! . . معذرة ، فإنني على عجل !» . . وإذ سألته الأرملة البدينة إلى أين هو ذاهب ، أجاب : «إن الأمر يبدو لك غريباً . . أليس كذلك؟ . . أنا الذي أظل حبيساً في معملي أكثر من فأر الحقل في جبنه !» . . فسألته : «أي جبن؟» . . فتابع حديثه قائلاً : «آه ، لا شيء ! لا شيء ! . . إنما أردت أن أنبئك يا مدام «لوفرانسوا» بأنني أعيش في بيتي عادة كالناسك ، أما اليوم ، فمن الضروري ، بحكم الظروف . .» ، فقاطعته في ازدراء : «آه . . أنت ذاهب إلى هناك !» ، فأجاب الصيدلي في

دهشة : «أجل ، أنا ذاهب . . أولست عضواً في اللجنة الاستشارية؟» . .

وحدقت فيه الأم «لوفرانسوا» بضع لحظات ، ثم قالت في النهاية وهي تبتسم : «هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهمك الزراعة؟ أتفهم فيها شيئاً؟» .

ـ بالتأكيد . . إنني أفهمها ما دمت صيدلياً . . أي كيميائياً .

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن «المقهى الفرنسي» ، بينما مضى الصيدلي قائلاً : إني لأدعو الله أن يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماماً ، على الأقل . . فأنا مثلاً قد ألفت أخيراً كتيباً لا بأس به . . مذكرة في أكثر من اثنين وسبعين صفحة ، بعنوان : «شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره . . مع بعض الأفكار الجديدة في الموضوع» . . وأرسلتها إلى الجمعية الزراعية في (روان) ، فكانت سبباً في «أن حظيت بشرف الانضمام إلى عضويتها . . في قسم الزراعة ، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكه . ولو أن مؤلفي هذا أتيح للجمهور . . .» .

على أن الصيدلي أمسك هنا عن الكلام ، إذ بدا أن مدام «لوفرانسوا» كانت في شغل عنه . . ثم قالت أخيراً : «ألا انظر إليهم ! . . شيء غير مفهوم ! . . هذه الحانة الحقيرة !» . . وهزت كتفيها في حركة أزاحت عن جسمها الصدار الصوفي ، وأشارت بكلتا يديها إلى حانة منافسها ، التي كانت تنبعث منها أصوات تغني . . ثم أضافت قائلة : «لن يدوم هذا أمداً طويلاً ، على أية حال ، وسينتهي كل شيء قبل أسبوع» . فتراجع «هوميه» مذهولاً ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس في أذنه : «ماذا ! . . ألا تعلم هذا؟ . . هناك حجز سيوقع في الأسبوع المقبل ، و«لوريه» هو الذي سيتسبب في بيع الحانة ، إذ قضي عليه بدفع قيمة الصكوك» ، فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : «يا لها من نكبة فظيعة !» .

وعندما شرعت صاحبة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من «ثيودور» ـ خادم السيد «جويومان» ـ ومع أنها كانت تبغض «تيلييه» ، إلاّ أنها راحت تنحي باللوم على «لوريه» واصفة إياه بأنه غشاش دنيء ! . . وقالت :

«ها هوذا ! . . انظر إليه ، إنه في السوق ، ينحني لمدام «بوفاري» التي ترتدي قبعة خضراء . عجباً ، إنها تأخذ بذراع السيد بولانجيه» . . فهتف هوميه : «مدام بوفاري ! . . يجب أن أذهب فوراً فأقدم لها احتراماتي . . لعلها ستسر جداً بأن تحصل على مقعد في الحلبة ، تحت الرواق» . . ولم يلق الصيدلي بالاً إلى الأم «لوفرانسوا» التي أخذت تناديه لكي تسهب له في القصص ، بل ابتعد في خطوة سريعة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وراح يسخو في الانحناء يمنة ويسرة موزعاً التحيات وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاغلاً فراغاً كبيراً . . لكن «رودولف» لمحه من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن أنفاس مدام «بوفاري» تقطعت ، فاضطر إلى أن يتباطأ ، وقال في لهجة جافة وهو يبتسم : «ما هذا إلاّ لكي نفر من هذا الرجل البدين . . الصيدلي ، كما تعلمين !» . . فضغطت مرفقه . . فسألها وهو يرمقها من طرف عينه : «ما معنى هذا؟» . . وكانت صفحة وجهها هادئة ، لا تنم عن شيء ، وقد برزت من إطار قلنسوتها البيضاوية الشكل ، التي كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه أوراق البوص . وكانت عيناها ـ بأهدابهما الطويلة المقوسة ـ تنظران إلى الأمام في خط مستقيم . ومع أنهما كانتا مفتوحتين على وسعهما ، إلاّ أنهما لاحتا متواريتين بعض الشيء ، كما لو كانت وجنتاها تدفعانهما ، وقد راح الدم يسري برفق تحت بشرتهما الرقيقة . . وعلى طول الحاجز الذي كان يتوسط فتحتي أنفها ، امتد خط وردي ، وكان رأسها يميل على إحدى كتفيها ، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لأسنانها البيضاء ترى من بين شفتيها !

وساءل «رودولف» نفسه : «أتراها تسخر مني؟» . . غير أن الحركة التي بدرت من «إيما» لم تكن ترمي إلاّ إلى تنبيهه ، فقد كان السيد «لوريه» يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود أن يندمج معهما في الحديث . . وما لبث أن قال : «يا له من يوم رائع ! . . لقد غادر الجميع دورهم ! . . إن الرياح تهب من الشرق !» . . ولم ترد عليه مدام بوفاري ، ولا رودولف بكلمة ، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تبدر منهما ويقول : «معذرة !» ، ويرفع قبعته ! . .

حتى إذا بلغوا منزل البيطار ، لم يمضوا في الطريق العامة حتى الحاجز ، بل انحرف رودولف فجأة إلى طريق ضيقة ، ساحباً معه مدام بوفاري ، وهو يهتف : «عم مساء يا مسيو لوريه ! . . إلى اللقاء !» .

وقالت «إيما» ضاحكة : «ما أبرع ما تخلصت منه !» . . فعقب قائلاً : «ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون ! . . ولما كنت اليوم سعيداً بأن أكون معك . . .» .

وتضرج وجه «إيما» . . ولم يتم رودولف عبارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب . . وكانت بعض زهرات «المرغريت» قد استوت على سيقانها فقال : «ها هي ذي بعض زهور المرغريت البديعة تبشر بعيد الفصح . . وها هوذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لجميع العذارى العاشقات في المنطقة !» . . ثم أضاف : «هل أقتطف بعضها ؟ . . ما رأيك ؟» . . فتنهّدت قائلة : «وهل أنت عاشق ؟» . . فأجاب رودولف : «آ . . آ . . من يدري ؟!» .

وكان موعد فحص المعروضات قد حان ، فأخذ الفلاحون يدخلون ـ واحد بعد آخر ـ إلى ما يشبه حلبة للسباق ، يحدها حبل طويل شد إلى عصيّ . . وكانت الماشية تربض هناك وأنوفها موجهة نحو الحبل ، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منتظمة ، وخياطم الخنازير المتثاقلة مدسوسة في الأرض ، والعجول تخور ، والنعاج تثغو ، والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت قوائمها تحتها ، وهي تجتر في بطء ، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذي كان يحوم حولها في طنين . والحوذية قد شمروا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجامحة التي راحت تصهل ـ منتفخة الخياشيم ـ وهي تنظر نحو أناثها التي وقفت هادئة ، تمد أعناقها ، وأعرافها متدلية ، بينما كانت وأمهارها مستكينة في ظلالها ، تقبل على الرضاع منها بين آن وآخر ! . . وفوق هذا الخضم الزاخر من الأجسام المكدسة ، كانت ترتفع في الهواء أوراق بيضاء كأنها الموجات ، أو تبرز قرون حادة ، أو رؤوس رجال يجرون حولها . .

وخارج الحلبة وقف ـ على بعد نحو مائة خطوة ـ ثور أسود ضخم ، مكمم في أنفه بحلقة من حديد . . وهو لا يتحرك ، كأنه صيغ من البرونز ، بينما أمسكه بحبل أطفال في أسمال بالية . .

وبين الصفين سار أعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون كل حيوان ، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوت خفيض ، وقد أخذ واحد منهم ـ كان يبدو أهم من الآخرين مكانة ـ في تدوين بعض الملاحظات من وقت إلى آخر . . ذاك كان السيد «ديروزيراي دي لابانفيل» ، رئيس المحكمين . . وما إن رأى رودولف حتى أسرع متقدماً منه ، وابتسم في ود قائلاً : «ما هذا يا سيد بولانجيه . . أتتخلى عنا ؟» . . فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما إن انصرف الرئيس حتى قال لإيما : «أحسب أنني لن أذهب ، فإن صحبتك خير من صحبته !» . . وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة ـ ليمر في يسر ـ وهو يسخر من المعرض . . وكان يقف أحياناً أمام حيوان بديع ، لا يروق لمدام بوفاري على الإطلاق ، فلمّا فطن إلى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (أيونفيل) وأزيائهن ، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من إهمال ، إذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً ، يرى فيه عامة الناس دليلاً على غرابة في الطباع ، واضطراب في الإحساس ، ومغالاة في الفن ، و ـ دائماً ـ نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة ، ما يفتنهم أو يغيظهم ! . .

وعاد يتابع الكلام قائلاً : «ثم إن المرء حين يكون مقيماً في الريف . .» ، فقالت إيما : «إنها مضيعة للوقت» ، فأجاب : «هذا حق . . تصوري أن أحداً من هؤلاء الناس لا يستطيع أن يفهم حتى طراز سترته !» . . ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من أعمار ، وينهار من آمال . . فقال رودولف : «لهذا السبب تغمرني الكآبة» . . فعقبت مذهولة : «أنت ؟! . . ظننتك شديد السعادة !» .

ـ آه . . أجل . هكذا أبدو ، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر ، وسط المجتمع . . ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسي حين كنت أرى مقبرة

في ضوء القمر : أليس من الخير أن أشارك أهلها في سباتهم !

فهتفت : «أواه ! . . وأصدقاؤك؟ . . ألست تفكر فيهم؟» . . فقال : «أصدقائي ! . . أي أصدقاء؟ . . هل لي أصدقاء؟ . . من يحفل بي ؟» . . وأردف بصفير خافت من بين شفتيه . . لكن ما لبثا أن اضطرا إلى الانفصال ، كل عن الآخر ، بسبب حمل كبير من المقاعد كان أحد الرجال يرفعه خلفهما . . وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرجل أن يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، أو نهاية ذراعيه المبسوطتين . وكان هذا الرجل هو «ليستيبودوا» ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، وأخذ يجوس بين الناس ، إذ كان نشيط الذهن في كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن إلى هذه الطريقة للإفادة من المعرض ، وصادفت فكرته نجاحاً ، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدري أيها يجيب ، والواقع أن القرويين الذين برح بهم التعب ، أخذوا يتشاجرون من أجل هذه المقاعد التي كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة ـ المتسخة بدهن الشموع ـ في زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفاري فأمسكت بذراع «رودولف» الذي كان ماضياً في الحديث ، وكأنه يكلم نفسه : «أجل ، كم أضعت من أشياء . . فأنا وحيد على الدوام ! . . آه ، لو كان لي هدف في الحياة ! . . لو أنني لقيت شيئاً من الحب . . لو أنني التقيت بشخص يعطف عليّ ! . . ما كان أحراني إذ ذاك أن أبذل كل ما أوتيت من طاقة ، وأن أذلل كل شيء ! . . وأن أتغلب على كل شيء !» . . فقالت : «ومع ذلك ، إنك لا تبدو في حال تدعو للرثاء !» . . قال : «آه . . أوهذا ظنك بي؟» . . فاستطردت قائلة : «لأنك قبل كل شيء ، حر . . .» ، وترددت ، ثم أردفت : «وغني !» . . فأجاب : «لا تسخري مني» . . وبينما كانت تؤكد أنها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فإذا الجميع ينطلقون متدافعين في هرج نحو القرية . . ولكن التنبيه كان كاذباً ، فإن مدير الإقليم لم يكن قد حضر ، وشعر أعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، إذ كانوا لا

يدرون أيبدأون الحفل ، أم ينتظرون أمداً آخر . .

وأخيراً ، ظهرت في أقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة ـ من الطراز المغلق الجوانب ـ يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما حوذي بقبعة بيضاء بكل قوته . . ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدماً ، فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا على رنين أعنتهما إلى منصة البلدية ، في اللحظة التي تم فيها تجمع الحرس الوطني وفريق الإطفاء ، ومن ثم أخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم . وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد . وإذ ذاك ، غادر العربة سيد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية . . وكان أصلع في مقدمة رأسه ، ويضع شعراً مستعاراً في مؤخرتها ، راح ينعم النظر في الجماهير ، رافعاً ـ في الوقت ذاته ـ أنفه الحاد ، راسماً على فمه الفاغر ابتسامة . وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فأوضح له أن مدير الإقليم لم يتمكن من الحضور ، وأنه هو مستشار الإقليم . ثم أردف مردداً بعض الأعذار ، فرد السيد «توفاش» ـ العمدة ـ ببعض المجاملات . . وبدا على الآخر الارتباك ! . . وظلا واقفين وجهاً لوجه ، تكاد جبهتاهما أن تتلامسا ، وحولهما أعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي ، والأعيان ، والحرس الوطني ، والجمهور . وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم إلى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى «توفاش» كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلعثم إذ حاول أن يقول شيئاً ، ثم أكد ولاءه للملكية ، وأعرب عن الشرف الذي أتيح لأيونفيل بإقامة هذا المعرض !

وأخذ «هيبوليت» ـ سائس الفندق ـ عناني الجوادين من الحوذي ، وقادهما ، وهو يعرج بقدمه الشوهاء إلى باب «الأسد الذهبي» ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة . . ودقت الطبول ، ودوّى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوأوا المقاعد الحمراء التي أعارتها مدام «توفاش» للمحتفلين . .

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الأعمدة ، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلوس على المقاعد ، إذ كان «ليستيبودوا» قد نقل جميع المقاعد من المرج إلى هناك ، وراح يجري طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها . . وسبب بنشاطه التجاري هذا ارتباكاً جعل بلوغ سلم المنصة أمراً عسيراً ! . . وقال «لوريه» للصيدلي إذ مر به ذاهباً إلى المكان المخصص له : «من رأيي أنه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صاريين على طراز البندقية ، يحملان بعض الزينة الرفيعة ، حتى يصبح المنظر متعة للعين» . . فأجاب هوميه : «هذا حق . . ولكن ، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالإشراف على كل شيء . . لكم هو محدود الذوق هذا «التوفاش» المسكين ! . . بل إنه محروم مما يسمى عبقرية الفن !» .

*

في تلك الأثناء ، كان «رودولف» قد صعد مع مدام بوفاري ، إلى قاعة الاجتماعات في الطابق الأول من مبنى البلدية . . ولـمّا كانت القاعة خالية ، فقد قال إن في وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان . وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفي للملك ، ووضعها على مقربة من إحدى النوافذ ، ثم جلسا متجاورين . . وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة ، ومفاوضات . . وأخيراً وقف السيد المستشار ، فعرف الجمهور إذ ذاك أنه يدعى «ليفان» ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص إلى آخر . . وبعد أن أخرج بضع أوراق ، وانحنى عليها ليراها بوضوح ، شرع يقول : «سادتي : اسمحوا لي أولاً وقبل أن أحدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم أن أقر بالفضل ـ وأنا واثق من أنكم تشاطرونني هذا الشعور ـ للحكومة . . للملك . لملكنا أيها السادة . . هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام أو الخاص ، والذي يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطار المتلاحقة في بحر عاصف ، وهو يعرف ـ فوق هذا ـ كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما

للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة !» .

وعند ذلك قال رودولف : «يجب أن أرتدّ قليلاً إلى الوراء» . . فقالت إيما : «لماذا؟» . . وفي تلك اللحظة ، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف ، وهو يقول : «لقد مضى أيها السادة ذلك الزمن الذي كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء ، والذي كان فيه المالك ، وصاحب الأعمال ، والعامل نفسه ، يأوون إلى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق . . والذي كانت فيه أعنف المبادئ الهدامة تدك في جرأة جميع الأسس» . .

وعاد رودولف يتابع الكلام : «قد يلمحني أحد ، فأضطر عندئذ إلى أن أظل أسبوعين أنتحل الأعذار . . فضلاً عن أن سمعتي سيئة !» . . فقالت إيما : «إنك تظلم نفسك !» . . قال : «لا . . إنها سيئة . . أؤكد لك !» . . ومضى المستشار يقول : «على أنني حين أنحي عن الذاكرة هذه الصور الحالكة ـ أيها السادة ـ أنتقل ببصري إلى الأحوال الراهنة في وطننا العزيز . . فماذا أرى؟ . . في كل مكان تزدهر التجارة والفنون ، وفي كل مكان طرق جديدة للمواصلات ، كأنها شرايين حديثة في جسد الدولة ، تقيم في أرجائها علاقات جديدة . . وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها . . والدين ـ الذي ازداد وحدة وتوطداً ـ يبتسم في كل قلب . . وموانئنا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديد . . وفرنسا قد عادت تتنفس !» .

واستأنف رودولف الحديث : «الواقع أنهم ربما كانوا ـ من وجهة نظر المجتمع ـ على حق !» . . فقالت إيما : «كيف ذلك؟» . . قال : «الأمر بسيط . . ألا تعلمين أن هناك نفوساً مضناة تعيش في عذاب دائم ، وأن لا بد لها من أن تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل . . بين العواطف السامية النبل وبين الشهوات المتطرفة العنف ، ومن ثم تلقي بأنفسها في جميع ألوان الأهواء والحماقات؟ !» . . فنظرت إليه كما ينظر المرء إلى رحالة ارتاد بلاداً غريبة ، وقالت : «نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية !» . . فقال : «وإنها

لتسلية محزنة ، إذ إن المرء لا يجد فيها السعادة !» . . فتساءلت : «وهل من سبيل إلى العثور على السعادة يوماً؟» . . فأجاب : «أجل . . إنها لا تلبث أن تجيء يوماً !» . . هذا بينما كان المستشار ماض في خطابه : « . . وهذا هو ما فهمتموه أنتم ، معشر الزراع وعمال الريف . . أيها الرواد المسالمون ، في ميدان الحضارة الفسيح ! . . أنتم يا رجال التقدم والأخلاق قد فهمتم أن العواصف السياسية أشد خطراً ـ في الحقيقة ـ من اضطرابات الطبيعة . .» .

وتابع رودولف حديثه : «إن المرء لا يلبث أن يلقى السعادة فجأة . . يوماً ما ، بعد أن يكون قد يئس منها . . فإذ ذاك ، ينفرج الأفق . . . وكأنَّ صوتاً يصيح : «ها هي ذي !» . . وتحسّين بالحاجة إلى أن تفضي بكل أسرار حياتك ، وبأن تهبي كل شيء ، وتضحي بكل شيء ، من أجل ذلك الكائن ! . . ولا داعي عندئذ للكلام ، فإن كلاً منهما يفهم الآخر ، إذ يكون كلٌّ قد رأى الآخر في أحلامه !» . . ورمقها بنظرة وهو يستطرد : «وبالإجمال ، ترين أمامك أخيراً الكنز الذي طالما بحثت عنه . . إنه يتلألأ ، ويبرق . . ومع ذلك فإن المرء يظل في ريب ، فلا يصدق . . يظل مبهوراً ، وكأنه خرج من الظلمة إلى النور !» . . وما إن انتهى الشاب من هذا القول ، حتى قرنه بالإشارة ، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار ، ثم تركها تسقط على يد إيما . . فسحبت هذه يدها بلطف !

هذا والمستشار ماض في خطابه : « . . أي وجه للعجب في ذلك ! . . لا ينكر روح أهل الزراعة ، إلا من أصيب بالعمى ، وغرق ـ ولا أخشى من أن أقولها بهذه الصراحة ـ في أوهام عصر مضى وانقضى ! . . وفي الحق ، أين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف ، وإخلاصاً للصالح العام فوق إخلاصهم؟ . . وفي كلمة واحدة ، أين نجد ذكاء أعظم مما نجد في الريف؟ ! ولست أعني ، أيها السادة ، هذا الذكاء السطحي الذي تتحلى به النفوس المتسكعة ، وإنما أعني ذلك الذكاء المتزن ، الذي ينصب على السعي إلى الأهداف النافعة قبل كل شيء ، وبذلك يساهم في رخاء كل فرد ،

والارتفاع بالمستوى العام ، وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات» !

وعقب رودولف قائلاً : «آه . . هل عدنا ثانية . . الواجبات ، دائماً ! . . لقد سئمت هذه الكلمة . . إن هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين : «الواجب ! الواجب !» ليسوا سوى ثلة من ذوي الفكر الجامد الملتفين في صداري من «الفانيلا» ، ومن العجائز المتعبدات ! . . آه ، لعمري ! . . ما الواجب إلا أن نحس بما هو عظيم ، وأن نحب ما هو جميل ، لا أن نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربقة وإذلال !» . . فاعترضت مدام بوفاري قائلة : «ومع ذلك . . مع ذلك . .» .

ـ لا ، لا ! . . لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية؟ . . أليست هي الشيء الجميل الوحيد على الأرض؟ . . أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون . . أو بإيجاز : أليست كل شيء؟

فقالت إيما : «ولكن على المرء أن ينحني إلى حد ما لرأي المجتمع ، وأن يتقبل قانون الأخلاق» . . فأجاب : «أجل ، ولكنّ هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعوه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ في صخب ، ويثير مثل هذه الجلبة اتي نراها تحتنا . . إنه أرضي من تراب ، كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك ، تحتنا ! . . أما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا ويعلونا ، كالطبيعة التي تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التي تمنحنا الضياء !» .

*

في تلك الأثناء كان الميدان مزدحماً بالناس حتى مواقع المنازل ، فكان المرء يرى قوماً متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ ، وآخرين يقفون أمام الأبواب ، وبدا «جوستان» أمام الصيدلية وقد سمر في مكانه لفرط ما استهواه المنظر . . وكان صوت السيد «ليفان» يضيع في الهواء رغم الصمت الشامل ، فلا تصل إلى سمعك سوى نتف من العبارات ، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا

وهناك . . ثم لا تلبث أن تسمع خوار ثور ، أو ثغاء الحملان ، يجاوب بعضه بعضاً عند أركان الشارع . . إذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن إلى آخر وهي تنتزع بألسنتها نتفاً من أوراق الشجر المتدلية أمام أفواهها .

وكان رودولف قد ازداد من إيما اقتراباً ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : «أولا يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو؟ . . وهل هناك إحساس واحد لا يستنكره؟ . . إن أنبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها . . وإذا حدث أن التقت روحان بائستان ، فإن كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما . . ومع ذلك فإنهما ستحاولان ، وترفرفان بأجنحتهما ، وتسعى كل منهما إلى الأخرى . . أواه ! . . لا بأس ، فإنهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا ، طال الزمن أو قصر . . في ستة أشهر أو في عشر سنوات . . فإن القدر قد كتب هذا لهما ، إذ خلقت كل منهما للأخرى» .

وكان جالساً وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه . . وتطلع إلى إيما وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت في عينيه خطوطاً ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداوين . . بل إنها راحت تشم عطر الدخان الذي ضمخ به شعره . . وما لبثت أن غشيتها نوبة من شرود ، فذكرت الفيكونت الذي رقصت «الفالس» معه في (فوبيسار) ، إذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا الشعر . . وأسبلت جفونها ـ بحركة آلية ـ في نصف إغماضة ، وهي تنشق في شعره هذا العطر ، ولكنها حين اضطجعت في المقعد لمحت على البعد ـ عند حافة الأفق ـ عربة الركاب القديمة . . «العصفورة» تنحدر في بطء هابطة تل (ليو) ، وهي تجر ذيلاً طويلاً من الغبار ! . . هذه العربة الصفراء التي كثيراً ما عاد «ليون» إليها فيها ، وفي ذلك الطريق رحل عنها إلى غير رجعة . . وخيل إليها أنها تراه واقفاً عند نافذته . . ثم اختلطت الرؤى ، واكفهرت السحب ، وخيّل إليها أنها عادت تدور في رقصة «الفالس» ـ تحت أضواء الثريات ـ بين ذراعي «الفيكونت» ،

وأن «ليون» ليس بعيداً عنها ، وأنه قادم . . ومع ذلك ، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف إلى جانبها ، وتغلغل هذا الإحساس العذب في رغباتها القديمة ، التي أخذت تتحرك جيئة وذهاباً ، في نفحات هذا العطر الذي ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل في مهب الريح . . ففتحت طاقتي أنفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة . ونزعت قفازيها ، فمسحت يديها ، ثم حركت منديلها أمام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل إليها ـ خلال نبض صدغيها ـ مرددة عباراته ، وكأنه يترنم بها : «واصلوا ، وثابروا ، ولا تنصتوا إلى ما يوصي به الروتين ، أو ما تدعو إليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة ! . . واتجهوا بجهودكم ـ بنوع خاص ـ إلى تحسين التربة ، والسماد الجيد . . والإكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والأغنام الجيدة . . ولتكن هذه المعارض ـ بالنسبة إليكم ـ أشبه بالساحات السلمية ، يمد المنتصر فيها يده ـ إذ يغادرها ـ إلى المنهزم ـ ويؤاخيه ، أملاً في فوز أفضل . . وأنتم أيها العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار . . تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة ، وثقوا من أن الدولة ترمقكم ، وتشجعكم ، وتحميكم . . وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم !» .

ثم جلس السيد «ليفان» بعد ذلك ، فنهض السيد «ديروزبراي» ، وشرع يلقي خطاباً آخر . . ولعله لم يكن خطاباً منمقاً كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه بأسلوب أكثر إيجابية ، أو بالأحرى ، بمعلومات أدق ، واعتبارات أسمى . . فلم يشغل مدح الحكومة ـ مثلاً ـ سوى حيز صغير منه ، أمّا الدين والزراعة ، ففازا بقسط أوفر ، إذ ألقى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك في خدمة الحضارة ، والجاذبية المغناطيسية . كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع ، متدرجاً من العصور الأولى التي كان الإنسان يتغذى فيها بثمار البلوط في أعماق الغاب ، إلى تلك العهود التي تحول فيها الناس

عن جلود الماشية إلى الأقمشة المنسوجة ، وراحوا يحرثون الأرض ويزرعون الكروم . . أفكان هذا التحول خيراً؟ . . أولم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع؟ . . وتولى السيد «ديروزيراي» علاج السؤال . . بينما كان رودولف قد تطرق متنقلاً من المغناطيسية إلى الميول والعلاقات . . وأخذ رئيس اللجنة يذكر «سنساتوس» ومحراثه ، و«ديوكلسيان» إذ زرع الكرنب ، وأباطرة الصين حين كانوا يفتتحون العام يبذر البذور . . في حين كان الشاب ـ رودولف ـ ماضياً يشرح للشابة أن الميول والانجذابات ترجع في سبيلها إلى نوع سابق من الوجود . . أو حياة سابقة !

ومضى يقول : «ومن ثم ، لماذا قدّر لكل منا أن يعرف الآخر؟ . . أية إرادة شاءت هذا؟ . . لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا إلى الآخر ـ كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحدا ـ وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا إلى صاحبه !» .

وأمسك بيدها ، فلم تسحبها منه . . وفي تلك اللحظة ، كان الخطيب يصيح : «جائزة الزراعة الجيدة . .» . ورودولف ماض في حديثه : «فمثلاً عندما أتيت إلى بيتكم . .» .

وهكذا أخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع في تناوب واختلاط :

كان الخطيب يقول : «إلى السيد بيريه من كونكانبوا» .

ورودولف يقول : هل كنت أعلم أن قد قدر لي أن أصحبك؟

الخطيب : سبعون فرنكاً .

رودولف : بل لقد حاولت مائة مرة أن أرحل . . ولكنني تبعتك . وبقيت !

الخطيب : جائزة الأسمدة .

رودولف : وسوف أبقى الليلة ، وغداً ، وكل الأيام المقبلة ، وحياتي كلها !

الخطيب : إلى السيد «كارون» من (أرجي) . . ميدالية ذهبية .

رودولف : فإني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة أي امرأة أخرى .

الخطيب : إلى السيد «بان» من جيفري سان مارتان .

رودولف : وسوف أحمل معي ذكراك . . .

الخطيب : جائزة عن كبش إسباني من نوع «مارينو» .

رودولف : ولكنك سوف تنسينني . . سأتلاشى كالطيف !

الخطيب : إلى السيد «بيلو» من نوتردام . . .

رودولف : آه ، لا ! . . بل سأبقى في فكرك ، وحياتك . . أليس كذلك؟

الخطيب : سلالة الخنازير . . الجائزة مناصفة بين السيدين «الهريسيه» ، و«كيلمبور» . . وقدرها ستون فرنكاً .

وضغط رودولف يد إيما ، فأحس بها دافئة ، تنتفض ، كاليمامة الحبيسة ، التي تبغي انطلاقاً . . وسواء أكانت تحاول أن تنتزع يدها ، أو كانت تستجيب لضغطه ، فإنها حركت أصابعها ، فهتف : «آه ، شكراً لك . . فأنت لا تصدينني ! . . ما أطيبك ! . . إنك تدركين أنني ملك يمينك ! . . ألا دعيني أنظر إليك ! . . دعيني أتأملك !» .

وهبت من النافذة ريح ثنت أطراف غطاء المائدة ، وأطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة ـ في الميدان ـ فطارت كأجنحة فراشات بيضاء ترفرف ! . .

وكان رئيس لجنة التحكيم ماضياً في قوله : «جائزة استخدام كسب البذور الزيتية . . السماد الفلمنكي . . زراعة التيل . . الصوف . . الإيجارات الطويلة . . الخدمات الأهلية» . . . أما رودولف فلم يعد يتكلم ، إذ راح يرمق «إيما» . . وهي ترمقه ، وشفاههما ترتجف بتأثير رغبة جامحة ! . . وفي استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت أصابعهما . . ورئيس لجنة التحكيم ماض في سرد الجوائز !

ـ كاثرين نيكيز إليزابيث ليرو من (ساستولاجيربير) . . من أجل بقائها خمساً وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة . . ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً !

وردّد المستشار النداء قائلاً : «أين هي كاثرين ليرو؟» . . لكنها لم تتقدم . . وسمعت أصوات تتهامس : «استمر !» . . «لا» . . «إلى اليسار» . . لا

تخافي !» . . «آه ، يا لها من غبية !» . . وصاح «توفاش» : «وبعد ، أموجودة هي؟» . . «نعم . . ها هي ذي !» . . «فلتتقدم إذاً !» . . ورؤيت إذ ذاك امرأة عجوز ، ضئيلة الجسم ، تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهي تكاد تتوارى في ثيابها التعسة ، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينما انسدلت على ردفيها مرولة كبيرة زرقاء . . وكان وجهها الضامر ، المحاط بطاقية لا حافة لها ، أكثر تجعيداً من تفاحة صغيرة ذابلة . . ومن كمي سترتها الحمراء ، برزت يدان بدت مفاصلهما كالعقد ، وقد غطتهما البقع والبثور والبشرة الخشنة من أثر غبار الأجران ، و«البوتاس» الذي تستخدمه في إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى إنهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غسلهما بالماء الصافي . . وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقدمان دليلاً متواضعاً على ما تكبدتا من مشاق مضنية ! . . وأكسب وجهها جلالاً شيء من جمود الرهبة ، ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن أو من الحنان . . وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد أخذت عنها الصمت والسكوت . . وكانت هذه أول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير ، فداخلها ذعر من الأعلام والأبواق ، وأولئك السادة الذين كانوا في ثياب سوداء ، وذلك الوسام الذي كان يزين صدر المستشار . . فظلت مسمرة في مكانها ، لا تدري أتتقدم ، أم تلوذ بالفرار . . ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها إلى الأمام ، ولا لماذا كان الحكام يبتسمون لها ! . . وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء ، تمثالاً حياً لنصف قرن من العبودية ! . . وكان المستشار قد أخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : «اقتربي أيتها المبجلة كاثرين نيكيز إليزابيث ليرو» . . وأخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكرراً في لهجة أبوية : «اقتربي ! اقتربي !» .

وقال «توفاش» وهو يتململ في مقعده : «أصماء أنت؟» . . ثم راح يصيح في أذنها : «أربع وخمسون سنة في الخدمة ! . . ميدالية فضية . . وخمسة وعشرون فرنكاً . . لك !» . . وتأملت «الميدالية» حين تناولتها ، وما لبث

وجهها أن أشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتمت وهي تنصرف : «سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً !» . . فمال الصيدلي نحو موثق العقود قائلاً : «يا للتعصّب !» .

•

واختتم الحفل ، فأخذ الجمهور يتفرق . . وعاد كل امرئ إلى مكانه ، وكل شيء إلى مجراه . . وأخذ السادة ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون الماشية . . تلك الماشية الفائزة ، التي علق بقرونها تاج أخضر ، وهي تعود إلى حظائرها ! . . هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني إلى الطابق الأول من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة في حرابهم ، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات . . وأخذت مدام بوفاري بذراع «رودولف» الذي رافقها حتى دارها ، ثم افترقا عند الباب ، وسار هو يتنزه وحيداً في المرج ، في انتظار موعد الوليمة .

كانت المأدبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام ، ازدحمت إلى درجة لم يكن في وسع المرء معها أن يحرك مرفقه ، وحتى أوشكت الألواح الضيقة ـ التي استخدمت كمقاعد ـ أن تتحطم تحت ثقل الجالسين . . وأكل القوم في إسراف ، إذ عني كل واحد بأن يملأ بطنه ، حتى تفصد العرق على كل جبهة ، وانبعث بخار يميل إلى البياض ـ كذاك الذي يتصاعد من جدول في صباح يوم من أيام الخريف ـ وأخذ يخيم فوق المائدة بين المصابيح المدلاة . . واستند رودولف إلى قماش السرادق ، وقد استغرقه التفكير في إيما ، حتى إنه لم يسمع شيئاً مما كان يدور حوله . وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة ، وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب . . ومن ثم ملأوا له كأسه ! . . وران على فكره سكون رغم الضجيج المحيط به . . كان يحلم بما قالت ، وبشكل شفتيها . . وكان وجهها يتمثل له منعكساً على خوذات الجنود ، وكأنه يراه في مرآة سحرية . . وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران . . وأخذت أيام الهوى تتتابع أمام عينيه في أفق المستقبل ، وهي ترى لا تكاد تنتهي !

ورآها ثانية في المساء ، في أثناء الاحتفال بإطلاق الأسهم النارية ، بيد أنها كانت مع زوجها ومدام «هوميه» والصيدلي الذي كان شديد القلق بسبب خوفه من الأسهم الشاردة ، حتى إنه كان يترك الجماعة في كل لحظة ، ليذهب إلى «بينيه» ويقدم له النصائح . . وكانت الأسهم ـ التي وردت باسم السيد «توفاش» ـ قد اختزنت في قبو منزله ، زيادة في الحيطة ، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل . . وفسدت القطعة الرئيسية تماماً ! . . ومن وقت إلى آخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرجال يدغدغون خصورهن في الظلام ، وقد التصقت إيما ـ في رفق ـ بكتف شارل ، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الأسهم في السماء المعتمة ، وهي رافعة الذقن ، ورودولف يتأملها على ضوء المصابيح المشتعلة !

وأضاءت النجوم ، وسقطت بعض قطرات من المطر ، فعقدت إيما حرملتها فوق رأسها العارية . . وفي هذه اللحظة ، أقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد أخذت الحوذي المخمور غفوة طارئة ، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحي العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة . . فقال الصيدلي : «الحق أن من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط في تناول الخمر . . وبودي لو سجلت أسبوعياً على لوحة خاصة ـ على باب البلدية ـ أسماء الذين يثملون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية ! . . فضلاً عن أننا سنحصل بذلك ـ من الناحية الإحصائية ـ على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها عند الحاجة ، ولكن . . اسمحوا لي !» . . وعدا ثانية نحو القائد ! . . وكان هذا الأخير عائداً إلى منزله ليتفقد مخرطته . . فقال له هوميه : «إنك لن ترتكب خطأ لو أنك أوفدت أحد رجالك . . أو تذهب بنفسك . .» ، فأجاب محصل الضرائب : «دعني وشأني ! . . اطمئن !» .

وبعد أن عاد الصيدلي إلى أصدقائه قال : «اطمئنوا ! . . لقد أكد لي السيد «بينيه» أن التدابير اتخذت ، ولم تسقط أية شرارة ، كما أن المضخات مليئة . .

فهيا بنا نستريح !» . . فقالت مدام «هوميه» وهي تتثاءب بقوة : «الواقع أنني بحاجة إلى النوم ، ولكن . . لا بأس ، فقد قضينا يوماً جميلاً كأنه العيد !» . . فردد رودولف بصوت خفيض ، ونظرة حالمة : «آه ، أجل ! . . كان جميلاً جداً» . . وانحنى كل منهم للآخر ، ثم انصرفوا .

- ٩ -

ولت ستة أسابيع لم يرجع خلالها رودولف إلى القرية ثم ظهر أخيراً ذات يوم .

لقد حدث نفسه في اليوم التالي للمعرض قائلاً : «لا يجوز أن أسرع بالعودة وإلا كان هذا خطأ» . .

وفي الواقع أنه نهاية الأسبوع كان قد سافر للصيد ، وبعد الصيد ظن أنه قد تأخر أكثر مما يجب ، ولكنه فكر على النحو الآتي : «ولكنها إذا كانت قد أحبتني منذ اليوم الأول فإن تلهفها على رؤيتي مرة أخرى لا بد أن يزيدها حباً ! فلنواصل إذاً !» .

ولقد فهم أن تقديره كان حكيماً ، وذلك عندما رأى «إيما» يصيبها الشحوب بمجرد أن دخل إلى الصالة .

كانت وحدها ، والنهار آخذ في الغروب ، وستائر الموصلين الصغيرة الموضوعة على ألواح الزجاج تزيد الشفق كثافة ، وإطار البارومتر المذهب ينعكس عليه شعاع من الشمس ، فينشر الوهج في المرآة بين فراغات المرجان .

وظل «رودولف» واقفاً ! وفي مشقة استطاعت «إيما» أن ترد على عبارات التحية الأولى .

وقال : «لقد كانت لدي مشاغل ! لقد كنت مريضاً !» .

فصاحت هي : «مرض خطير؟ !» .

قال رودولف وهو يجلس على مقعد إلى جوارها :

ـ «في الواقع لا ! . . وإنما لم أشأ أن أعود» .

ـ لماذا؟

ـ أما تستطيعين أن تحدسي؟

ونظر إليها مرة أخرى ، ولكن على نحو بلغ من العنف أن خفضت بصرها واحمرّ وجهها . واستأنف قائلاً :

ـ إيما . . .

فقالت وهي تتنحى قليلاً : «سيدي !» .

وأجاب في صوت حزين : آه ! ألا ترين أنني كنت على حق عندما لم أشأ أن أعود ، ذلك لأن هذا الاسم ـ الاسم الذي يملأ روحي والذي انطلق مني ـ هذا الاسم تحظرينه عليّ ! مدام بوفاري ! . . . آه ، إن جميع الناس ينادونك هكذا ! . . وهذا ليس في الواقع اسمك وإنما هو اسم شخص آخر !

وكرّر : شخص آخر !

وأخفت وجهها بين يديها !

ـ نعم إنني أفكر فيك باستمرار ! . . . وذكراك تصيبني باليأس ! آه امعذرة ! . . إنني أتركك . . وداعاً ! . . سأذهب بعيداً . . بعيداً جداً . . حتى لا تعودي تسمعين عني ! . . ومع ذلك . . اليوم . . لا أدري أية قوة تلك التي دفعتني نحوك ! وذلك لأن الإنسان لا يجاهد ضد القدر ولا يقاوم ابتسامة الملائكة ! وإنما يترك الإنسان نفسه لينساق نحو ما هو جميل ساحر . . جدير بالعبادة !

وكانت هذه أول مرة تسمع فيها «إيما» كلمات كهذه توجه إليها ، وأخذت كبرياؤها تسترخي استرخاء كاملاً بحرارة هذه العبارات ، على نحو ما يسترخي الإنسان بفعل حمام دافئ !

واستطرد يقول : «لكني إذا كنت لم أحضر ، وإذا كنت لم أستطع أن أراك ، فإنني على الأقل كنت أتملى كل ما يحيط بك . ففي جنح الظلام كنت أستيقظ كل ليلة وأصل إلى هنا ، لأشاهد منزلك ، والسقف الذي يلمع تحت القمر ، وأشجار الحديقة التي تتأرجح أمام نافذتك ، ومصباحاً صغيراً يلمع وميضه من خلال الزجاج في الظلام . آه ! إنك لم تكوني تعلمين أن هناك ،

قريباً جداً وبعيداً جداً ، يائساً مسكيناً . . .!» .

فالتفتت نحوه وهي تنشج قائلة : «آه ! كم أنت طيب !» .

قال : «إنني أحبك ، وهذا كل ما في الأمر ! إنك لا تشكين في ذلك؟ ! قولي لي . . . كلمة ! . . كلمة واحدة !» .

وبطريقة غير محسوسة أخذ «رودولف» يتزلق من المقعد حتى الأرض ، ولكنه سمع وقع حذاء في المطبخ ، كما أدرك أن باب الصالة لم يكن مغلقاً .

وواصل قائلاً وهو ينهض : «هل لك أن تجودي بإشباع أمل يراودني؟» .

وكان هذا الأمل هو أن تزور بيته ، فقد كان يود أن يعرفها عن كثب . ولم ترَ مدام بوفاري بأساً في ذلك ، ونهض الاثنان عندما دخل شارل .

فقال له رودولف : «عمت صباحاً يا دكتور» !

وطرب الطبيب لهذا اللقب غير المنتظر ، فاندفع في التحيات ، بينما انتهز الآخر الفرصة لكي يسترد رباطة جأشه بعض الشيء !

وقال عندئذ : «لقد كانت السيدة تحدثني عن صحتها . . .» .

وقاطعه شارل ، فقد كان لديه في الواقع عدة أسباب للقلق ، وكانت أزمات ضيق التنفس قد أخذت تعاود زوجته . وعندئذ سأله رودولف عما إذا كانت رياضة الخيل تنفعها .

فقال شارل : «دون شك ! هذا يفيدها تماماً ـ فكرة طيبة يجب أن تنفذها !» .

وعندما اعترضت «إيما» بأنها لا تملك حصاناً ، عرض رودولف واحداً ، ورفضت عرضه ، فلم يلح . ولكي يسوّغ لزيارته روى كيف أن سائق عربته ـ وهو الرجل الذي سبق أن حضر لعملية فصد الدم ـ لا يزال يشعر بدوار .

فقال السيد بوفاري : «سأمر بكم» .

ـ لا ـ لا . سأرسله إليك . . سنحضر ، فهذا أكثر راحة بالنسبة إليك . .

ـ آه . حسن جداً ـ إنني أشكرك .

وبمجرد أن أصبحا وحيدين قال لها زوجها «لماذا لم تقبلي عرض السيد

بولانجية البالغة اللطف؟» .

فقطبت جبينها ، وأخذت تبحث عن مئات الأعذار . وفي النهاية قالت : «إن هذا قد يبدو غريباً» .

فدار شارل على عقبيه ثم قال : «إنني أسخر من كل هذا ! فالصحة قبل كل شيء ! إنك مخطئة !» .

ـ وكيف تريد أن أركب حصاناً وليس لدي بنطال للركوب؟

فأجاب : يجب أن توصي بصنع واحد .

وبفضل البنطال عقدت عزمها !

وعندما أعدّ اللباس كتب شارل إلى السيد بولانجية يخبره أن زوجته تحت تصرفه ، وأنه يعلق الأمل على لطفه !

وفي اليوم التالي وصل «رودولف» عند الظهر أمام باب شارل ومعه حصانان أصيلان ، تحلي أذني أحدهما حلية من القماش ، ويحمل فوق ظهره سرجاً نسائياً من جلد الغزال .

وكان رودولف قد ارتدى حذاء طويلاً رخواً معتقداً أنها لم ترَ مثله قط ، وبالفعل أُخذت بهيئته عندما ظهر على الدرج في سترته الطويلة المصنوعة من المخمل ، وسرواله الأبيض . وكانت مستعدة في انتظاره .

وانفلت جوستان من الصيدلية لكي يراها ، كما تحرك الصيدلي أيضاً ، وأخذ يقدم إلى السيد بولانجية النصائح : «إن الحوادث سريعاً ما تقع ! خذ حذرك ! فقد تكون خيلك جموحة !» .

وسمعت «إيما» ضوضاء فوق رأسها ، كانت «فيليسيتيه» تدق على الزجاج لكي تسلي الطفلة بيرت ، وأرسلت الطفلة قبلة عن بعد ، فردت عليها أمها بإشارة من مقبض سوطها .

وصاح السيد هوميه : «نزهة طيبة ! ولكن الزما الحذر ! الحذر !» .

وهز جريدته وهو ينظر إليهما يبتعدان .

وبمجرد أن أحس حصان إيما بالأرض أخذ يعدو ، ورودولف يعدو إلى

جوارها . وكانا يتبادلان الحديث أحياناً ، وقد خفضت وجهها قليلاً ، ورفعت يدها إلى أعلى ، ومدت ذراعها الأيمن ، وتركت نفسها تهتز على إيقاع الحركة التي أخذت ترنحها فوق السرج . .

وعند أسفل الهضبة أرخى رودولف العنان فانطلقا معاً في خطوة موحدة ، ثم توقف الحصانان فجأة عندما وصلا إلى القمة فانسدل وشاحها الأزرق الكبير .

كان يوماً من الأيام الأولى من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ، وكان ضباب فوق الحقول ، وقد امتدت الأبخرة في الأفق بين سفوح التلال وتمزقت أبخرة أخرى وصعدت وتلاشت ، وأحياناً كانت السحب تنفرج تحت شعاع من الشمس فتلوح عن بعد سقوف «أيونفيل» ، والحدائق على حافة المياه ، والجدران وبرج الكنيسة ، وكانت «إيما» تضم جفونها لكي تتعرف على منزلها ، ولم تلح لها هذه القرية المسكينة التي تسكنها في مثل هذا الصغر قبل اليوم ، أو من الارتفاع الذي كانا فيه لاح الوادي كبحيرة كبيرة شاحبة تتبخر في الهواء ، وكتل الأشجار تبرز هنا وهناك كأنها صخور سوداء ، وصفوف أشجار الجوز العالية التي ترتفع فوق الضباب قد لاحت كالألواح التي تحركها الرياح . .

وهكذا واصل «رودولف» و«إيما» السير على حافة الغابة ، وكانت تلتفت من وقت إلى آخر لكي تتجنب نظرته ، وعندئذ لم تكن ترى غير جذوع الصنوبر المتراصة ، وقد سبب لها تتابعها شيئاً من الدوار ، والحصانان يلهثان ، وجلد السرجين يقرقع .

وفي اللحظة التي دخلا فيها الغابة ظهرت الشمس . .

فقال رودولف : إن عناية الله ترعانا .

فقالت : إلى الأمام ! إلى الأمام !

وقرقع بلسانه فعدا الحصانان .

وكانت أغصان السيسبان الطويلة النامية على حافة الطريق تعلق بركاب

«إيما» وكان «رودولف» ينحني وهو يواصل السير لكي ينتزعها ، وفي بعض الأحيان كان يمر إلى جوارها لكي ينحي الأغصان ، وكانت «إيما» تحس بركبته تمس ساقها . وكانت السماء قد أصبحت زرقاء ولم تعد الأوراق تتحرك ، ومساحات شاسعة قد امتلأت بالأعشاب المزهرة ، وبقع من زهر البنفسج تتتابع مع ورق الشجر الذي كان رمادياً أو مصفراً أو مذهباً ، تبعاً لاختلاف الورق . وكثيراً ما كان يسمع تحت الأعشاب انسياب خفقة جناح أو صيحة مبحوحة عذبة تطلقها الغربان التي كانت تتطاير بين أشجار البلوط .

وترجّلا ، وربط «رودولف» الحصانين ، وسارت «إيما» أمامه فوق الحشائش بين دروب الطريق ، لكن الثوب الطويل أخذ يضايقها بالرغم من أنها حملته مرفوعاً من الذيل ، وأخذ «رودولف» يتأمل وهو يسير خلفها رقة جوربها ـ بين سواد الرداء وسواد الحذاء ـ وقد لاح له كأنه جزء من جسمها العاري .

وتوقفت قائلة : لقد تعبت .

فقال : هيا فلنحاول مرة أخرى . تشجعي !

وبعد ذلك بمائة خطوة وقفت ثانية . ومن خلال وشاحها الذي تدلى إلى ردفيها ، من القبعة التي كانت تلبسها ، لاح وجهها في شفافية ضاربة إلى الزرقة ، وكأنها قد سبحت تحت أمواج لازوردية . . وقالت : إلى أين نذهب؟

فلم يجب بشيء . وكانت تتنفس تنفساً متقطعاً . ودار «رودولف» ببصره من حوله وعض شاربه .

ووصلا إلى مكان فسيح كانت قد قطعت أشجاره ، وجلسا فوق جذع شجرة مطروح على الأرض ، وأخذ «رودولف» يتحدث إليها عن حبه . .

وفي أول الأمر لم يخفها قط بعبارات غزله ، فقد كان هادئاً جاداً مبتئساً . .

وكانت «إيما» تنصت إليه خافضة الرأس ، وهي تحرك بطرف قدمها قطعاً من الأغصان المتساقطة على الأرض .

وأجابت على قوله «أليس قد اتحد مصيرانا الآن؟» بقولها : «آه . لا ! أنت تعرف جيداً ، هذا مستحيل !» .

ونهضت لكي ترحل ، فأمسك بمعصمها ، فتوقفت ثم أخذت تتأمله بضع دقائق بعين ولهى ندية ثم قالت في حيوية : «آه . فلنمسك عن الحديث . . . أين الحصانان؟ فلنعد» .

وبدرت منه عندئذ حركة غضب وضجر ، فكرّرت قولها : «أين الحصانان؟ أين هما؟» .

وعندئذ ابتسم ابتسامة غريبة وقد جمدت حدقتا عينيه وضغط على أسنانه ، وتقدم نحوها فاتحاً ذراعيه فارتدت إلى الخلف واجفة وهي تتمتم : آه ! إنك تخيفني . . إنك تؤلمني ! فلنرحل !

فقال وقد تغيّر وجهه : إذا لم يكن بد !

وأصبح بعد ذلك مباشرة حفياً مداعباً حيياً . وأعطته ذراعها وقفلا راجعين ثم قال : ما بك إذاً؟ لماذا؟ إنني لم أفهم ! إنك بلا ريب مخطئة . فأنت في قلبي كتمثال العذراء فوق قاعدته ، في مكان مرتفع متين نقي ! وأنا في حاجة إليك لكي أحتمل الحياة ! إنني في حاجة إلى عينيك ، إلى صوتك ، إلى تفكيرك . فلتكوني صديقتي ـ أختي ـ ملاكي ! !

ومدّ ذراعه وطوق خصرها ، وحاولت في رخاوة أن تتخلص . وظل يسندها هكذا وهما سائران .

لكنهما سمعا الحصانين يرعيان العشب

فقال رودولف : «ليس بعد» فلننتظر . . فلنبقَ !

وقادها بعيداً عند مستنقع كان العشب المائي يكسو أمواجه خضرة ، والنيلوفر الذابل قائماً في سكون بين البوص ، وعندما أحست الضفادع بوقع أقدامهما فوق العشب أخذت تقفز لكي تختبئ . .

قالت : «إني مخطئة . . نعم مخطئة ، بل ومجنونة إذا استمعت إليك» .

ـ لماذا؟ . . . إيما . . إيما !

وفي بطء قالت السيدة الشابة وهي تميل على كتفه : «آه ! رودولف ! . .» .

وتعلق قماش ثوبها بمحمل سترته ، وطرحت إلى الخلف رقبتها البيضاء

التي انتفخت متنهّدة ، ثم انهارت باكية واعترتها رعشة طويلة وأخفت وجهها واستسلمت !

وانسدلت ظلال المساء ، وتسللت أشعة الشمس بين الأغصان ، فأعشت عينيها ، وانتشرت حولها هنا وهناك بين الأوراق أو على الأرض بقع من الضوء أخذت تهتز ، وكأن طائراً كالحباب قد نثر ريشه وهو يطير . وكان الصمت منتشراً في كل مكان ، وكأن شيئاً عذباً ينبعث عن الأشجار ، وأحست بقلبها يستأنف خفقانه ، والدم يجري في عروقها . . وعندئذ سمعت من بعد خلف الغابة وفوق التلال الأخرى صيحة غامضة ممتدة . . صوتاً متراخياً . استمعت إليه في صمت وقد امتزج كالموسيقى بآخر اهتزازات أعصابها الثائرة ، وقد وضع «رودولف» سيجارة بين أسنانه وأخذ يصلح بسكينه أحد العنانين المكسورين .

وعادا إلى «أيونفيل» من الطريق نفسها ورأيا على الوحل آثار حصانيهما جنباً إلى جنب ، كما رأيا الأشجار والأحجار نفسها في العشب فلم يتغير شيء مما حولهما ، ومع ذلك فقد حدث بالنسبة إليها شيء أكثر خطورة من انتقال الجبال من مكانها ، ومن وقت إلى آخر ، كان «رودولف» ينحني ويأخذ يدها ليقبلها .

كانت ساحرة فوق الحصان ! وقد انتصبت بخصرها الضامر وركبتها المثنية فوق عُرف الدابة ، وقد تلون وجهها قليلاً في الهواء الطلق وفي حمرة المساء .

ودخلا «أيونفيل» . وأخذت تتمشى على الطريق المرصوف والناس ينظرون إليها من النوافذ .

كان زوجها يتناول العشاء وقد وجدها مشرقة الطلعة ، ولكن كان يلوح أنها لا تسمعه عندما كان يسألها عن نزهتها . وقد ظلت متكئة بمرفقها بجوار طبقها بين الشمعتين المضيئتين .

فقال : ـ إيما !

ـ ماذا؟

ـ لقد أمضيت بعد ظهر اليوم عند السيد ألكسندر ، ووجدت عنده مهرة ، لكنها لا تزال فتيّة ، وإن تكن ركبتاها متسلختين . وإنني لمتأكد من أنه يمكن الحصول عليها بمائة فرنك» .

وأضاف : «ولما كنت أظن أن هذا قد يروقك فقد حجزتها لك . . لقد اشتريتها . . فهل أحسنت صنعاً؟ أجيبيني !» .

فهزت رأسها كدليل على الموافقة . وبعد ذلك بربع ساعة سألته : هل ستخرج هذا المساء؟

ـ نعم . لماذا؟

ـ آه ! لا شيء ، لا شيء يا عزيزي .

وبمجرد أن تخلصت من «شارل» صعدت وحبست نفسها في غرفتها .

كانت أول الأمر في شبه دوار ، فكانت ترى الأشجار والطرق والحفرات و«رودولف» ، وكانت لا تزال تحس بضمة ذراعيه ، بينما تهتز الأعشاب وينبعث الصفير من الغاب .

ولكنها عندما رأت نفسها في المرآة دهشت لمنظر وجهها ، فهي لم تر قط عينيها بمثل هذا الاتساع وهذا السواد وهذا العمق ، وقد طرأ على شخصها شيء غامض غيّرها تغييراً تاماً .

وكانت تكرّر : «إن لي عشيقاً ! عشيقاً» . . وهي تتلذذ بهذه الفكرة ، وكأنها نزوة مراهقة قد عادت إليها ، فهي سوف تمتلك إذاً لذات الحب وحمى السعادة التي كانت قد يئست منها . ودخلت في جو عجيب انقلب فيه كل شيء إلى انفعال وهيام وهذيان ، وكأنها تسبح في محيط مترام ضارب إلى الزرقة ، وقمم الإحساس تبرق أمام خاطرها . أما الحياة العادية فلم تعد تلوح أمامها إلاّ عن بعد . . . وفي أسفل . . . في الظلال بين هذه القمم .

وعندئذ تذكرت بطلات الروايات التي قرأتها ، وأخذت تلك الكوكبة الشعرية من النساء الزانيات يغنين في ذاكرتها بأصوات أخوات سحرتها . فقد

أصبحت هي نفسها جزءاً حقيقياً من تلك الخيالات ، وقد حققت حلم شبابها الطويل وهي تتأمل نفسها في ذلك النوع من العاشقات الذي طالما تلهفت إليه ! وفوق ذلك كله أحست بنوع من الرضا للانتقام ، فهي قد قاست الكثير ، لكنها قد انتصرت الآن ، والحب الذي كبتته طويلاً قد أخذ يتفجر بعنفوانه الكامل كفقاقيع مرحة ، وأخذت تتذوقه من غير ندم ولا قلق ولا اضطراب .

ومرّ اليوم التالي في عذوبة جديدة ، فتبادل العاشقان العهود وقصت عليه أحزانها ، وكان «رودولف» يقاطعها بقبلاته ، وكانت تطلب إليه ، وهي تتأمله بعينيها المغمضتين نصف إغماضة ، بأن يدعوها ثانية باسمها ، وأن يكرر أنه يحبها . وكانا في الغابة كاليوم السابق تحت خصّ للفلاحين كانت جدرانه من القش وسقفه منخفضاً بحيث يقف فيه الإنسان منحنياً ، وقد جلسا أحدهما إلى جوار الآخر على فراش من الأوراق الجافة .

ومنذ ذلك اليوم أخذا يتراسلان بانتظام كل مساء . وكانت «إيما» تحمل خطابها إلى طرف الحديقة بجوار النهر وتضعه في شق من السياج ، حيث كان «رودولف» يأتي ليأخذه ويضع مكانه خطاباً آخر ، وكانت «إيما» تشكو دائماً من إيجازه في الكلام .

في صباح يوم ـ وكان «شارل» قد خرج قبل الفجر ـ قادتها نزوة إلى أن ترى «رودولف» فوراً . وكان من الممكن أن تصل إلى «لاهاشيت» سريعاً وأن تبقى هناك ساعة ثم تعود إلى «أيونفيل» بينما لا يزال جميع الناس نائمين . فأسالت هذه الفكرة لعابها ، وإذا بها وسط المراعي تسير بخطى سريعة دون أن تنظر خلفها .

وكان الفجر قد أخذ يبزغ فعرفت «إيما» عن بعد منزل عشيقها ، حيث كانت دوّارتا الريح المنصوبتان فوقه والمصنوعتان على شكل ذيل السنونو قد أخذتا تتحددان سوداوين فوق الغسق الشاحب .

وبعد جرن المزرعة كان يقوم بناء لا بد أنه القصر ، فدخلته ، وكأن الجدران قد انشقت من تلقاء نفسها لمقدمها . وقادها سلم كبير إلى الدهليز ، وأدارت

مزلاج باب ، فإذا بها تلمح فجأة في نهاية الغرفة رجلاً نائماً ، لقد كان «رودولف» . وأطلقت صيحة .

فقال : «ها أنت ذي ! ها أنت ذي ! كيف حضرت؟ آه ! لقد تبلل ثوبك !» .

فأجابت وهي تطوق رقبته بذراعيها : «إنني أحبك !» .

ولما كانت هذه الفعلة الجريئة الأولى قد نجحت ، ففي كل مرة كان يخرج فيها «شارل» مبكراً كانت «إيما» ترتدي ملابسها مسرعة وتنزل ـ في خطوة الذئب ـ الدرج الذي يؤدي إلى ضفة النهر .

ولكنها عندما كانت تجد معبر البقر الخشبي مرفوعاً ، كانت تضطر إلى أن تسير في محاذاة الجدران الممتدة على طول النهر .

ولـمّا كان الشاطئ زلقاً ، فإنها كانت تمسك بيديها شجيرات القرطم الذابلة لكي لا تسقط ، ثم كانت تختصر الطريق بالسير في الحقول المحروثة حيث كانت تغور وتتعثر ويغوص حذاؤها الرفيع . وكان خمارها المعقود فوق رأسها يهتز في الريح وسط الأعشاب ، وكانت تخاف من البقر فتأخذ في العدو ، وتصل لاهثة وردية الخدين وقد انبعث من وجودها كله عطر نضر من الخضرة والهواء الطلق ، ويكون «رودولف» لا يزال نائماً فتبدو كصباح يوم ربيعي يدخل غرفته !

وكانت الستائر الصفراء على طول النوافذ ترسل في رفق شعاعاً ذهبياً ثقيلاً ينفذ إلى الغرفة ، وكانت «إيما» تتحسس ما أمامها ، وعيناها تختلجان ، بينما قطرات الندى المعلقة بخصلات شعرها تلوح كهالة من الزبرجد حول وجهها ، و«رودولف» يجذبها نحوه وهو يضحك ، ويضمها إلى قلبه .

وبعد ذلك كانت تفحص البيت وتفتح أدراج الأثاث وتمشط شعرها بمشطه وتنظر في مرآته ، وكثيراً ما كانت تضع بين أسنانها مبسم غليون ضخم تجده على منضدة السرير ، وسط الليمون وقطع السكر إلى جوار إبريق ماء .

والواقع أنه لم يكن يكفيها ربع ساعة للوداع ، وعندئذ كانت تبكي وتود ألاّ تفارق «رودولف» قط . لقد كانت مدفوعة نحوه بشيء أقوى ، ولقد قطب

وجهه يوماً متضايقاً عندما رآها تفاجئه بالمجيء .

فقالت : «ما بك؟ هل أنت مريض؟ قل لي !» .

وأخيراً أعلن لها في لهجة جادة أن هذه الزيارات أصبحت مجازفة وأنها تورط نفسها !

•

وشيئاً فشيئاً أخذت مخاوف «رودولف» تتغلب عليها . ففي البداية كان الحب قد أثملها فلم تكن تفكر في شيء سواه . أمّا الآن وقد أصبح شيئاً ضرورياً لحياتها فإنها صارت تخشى أن تفقد منه شيئاً ، أو أن يعكر صفوه معكر . وفي أثناء عودتها من عنده كانت تلقي على كل ما حولها نظرات قلقة فترقب كل شبح يمر بالأفق ، وكل كوة بالقرية يمكن أن يراها منها أحد ، وكانت تنصت لوقع الأقدام والصيحات ، ولضوضاء المحاريث ، وكانت تقف أحياناً شاحبة مرتعدة أكثر من أوراق الحور التي تهتز فوق رأسها .

وذات صباح بينما كانت عائدة على هذا النحو ، إذا بها تتبيّن فجأة ماسورة بندقية كبيرة لاح أنها موجهة إلى خدها ، وكانت هذه الماسورة تبرز بميل فوق حافة برميل صغير ، غاص نصفه بين الأعشاب ، على حافة حفرة . وبالرغم من أن «إيما» كانت على وشك الإغماء من الخوف ، فإنها تقدمت ، وخرج رجل من البرميل ، كتلك العفاريت ذات اللولب التي تقفز من قاع الصناديق ، وكان يرتدي حذاء طويلاً ذا أقفال يصعد حتى ركبتيه ، وقلنسوة مكبوسة حتى عينيه ، وشفتاه ترتعدان وأنفه أحمر . . . لقد كان القائد «بينيه» متربصاً للبط البري !!

وصاح قائلاً : «كان يجب أن تتكلمي عن بعد . وعندما يرى الإنسان بندقيته يجب دائماً أن ينبه !» .

وكان المحصّل يحاول بهذا أن يخفي الخوف الذي انتابه ، وذلك لأن قراراً من المديرية كان يحظر صيد البط إلاّ في القارب . وبالرغم من احترام السيد «بينيه» للقوانين ، إلاّ أنه كان متلبّساً بمخالفتها . ولذلك كان يظن في كل لحظة

أنه يسمع الخفير قادماً . لكن هذا القلق كان يثير لذته ، وكان يزهو وحيداً في البرميل بسعادته ودهائه !!

وعندما رأى «إيما» لاح أنه يتنفس الصعداء ، فأخذ لفوره يتجاذب معها الحديث :

ـ إن الجو ليس دافئاً . . إنه قارس !

ولم ترد «إيما» بشيء . فاستمر يقول :

ـ وها أنت قد خرجت مبكرة !

فقالت متمتمة :

ـ نعم . . إنني قادمة من عند مرضع طفلتي !

ـ آه . حسن جداً ! حسن جداً ! وأما أنا فمنذ مطلع الفجر تريننى هنا على هذه الهيئة وفي هذا الجو من الرداءة ، بحيث إذا لم يأخذ الإنسان أهبته كاملة . .

فقاطعته «إيما» وهي توليه ظهرها قائلة : «وداعاً يا سيد «بينيه»!» . فأجاب بلهجة جافة : «خادمك المطيع يا سيدتي!» .

ثم انسحب إلى برميله .

وندمت «إيما» لأنها غادرت المحصل فجأة على هذا النحو ، فهو بلا ريب سوف يفترض فروضاً غير سارة ، وكانت حكاية المرضع أسوأ اعتذار ، ذلك لأن جميع الناس في «أيونفيل» كانوا يعلمون جيداً أن الطفلة بوفاري كانت قد عادت إلى أهلها منذ عام ، هذا فضلاً عن أن أحداً لم يكن يسكن في تلك الناحية ، وهذا الطريق لم يكن يؤدي إلاّ إلى «الاهاشيت» . وإذاً فلا بد أن «بينيه» قد حدس من أين كانت قادمة ، وهو لن يسكت ، بل سوف يثرثر بكل تأكيد . وظلت تجهد ذهنها حتى المساء في جميع مخارج الكذب التي يمكن تصورها ، وقد ظل ماثلاً أمام عينيها باستمرار ذلك المغفل ذو البندقية !

ولـمّا رآها «شارل» بعد العشاء مهمومة أراد أن يرفّه عنها بأن يأخذها عند الصيدلي . وكان أول شخص لمحته في الصيدلية هو المحصل ثانية ، كان واقفاً أمام المصرف وقد انصب عليه الضوء من خلال الإناء الأحمر وهو يقول :

ـ أعطني نصف أوقية من ماء النار من فضلك .

فصاح الصيدلي : «أعطنا حامض الكبريتيك يا جوستان» .

ثم خاطب «إيما» التي كانت تريد أن تصعد إلى جناح مدام «هوميه» : «لا . . ابقي لا تتعبي نفسك فإنها ستنزل . أدفئي نفسك أمام المدفأة إلى أن تنزل . . . معذرة . مرحباً يا دكتور» . وكان الصيدلي يحلو له كثيراً أن يفوه بلفظة الدكتور ، وكأنه عندما يوجهها إلى غيره يتوقع أن ينعكس على شخصه شيء مما يراه فيها من فخامة !! «ولكن احذر من أن تقلب الهاون ! ومن الأفضل أن تذهب إلى الصالة الصغيرة لتحضر المقاعد ، فأنت تعلم جيداً أننا لا نمس مقاعد الصالون !!» .

أسرع هوميه خارج المصرف لكي يضع القول في مكانه ، وعندما طلب منه «بينيه» نصف أوقية من حامض السكر ، قال الصيدلي في ترفع : حامض السكر؟ إنني لا أعرف شيئاً كهذا ـ لا علم لي به ! ربما تريد أن تقول حامض الأوكزاليك؟ أليست أوكزاليك هي الكلمة التي تقصدها؟» .

وأوضح له «بينيه» أنه في حاجة إلى مادة كاوية لكي يركب بنفسه محلولاً من ماء النحاس يزيل به الصدأ عن عدد من أدوات الصيد . . (فانتفضت «إيما») ، وقال الصيدلي : حقاً ! إن الجو غير ملائم بسبب الرطوبة !» .

فقال المحصل بخبث : «ومع ذلك فإنه يلائم بعض الأشخاص !» .

فشعرت «إيما» بالاختناق .

وقال «بينيه» : أعطني أيضاً . . .» .

فقالت لنفسها : «يبدو أنه لن يرحل أبداً !» .

ـ نصف أوقية من الغراء والتربانتينة وأربع أواق من الشمع الأصفر ، وثلاثة أرباع أوقية من فحم الحيوان ، من فضلك ، لتنظيف الجلد المصقول في أدواتي .

وابتدأ الصيدلي في تقطيع الشمع عندما ظهرت مدام «هوميه» ، واتجهت لتجلس على أريكة المخمل إلى جوار النافذة . كان الصمت مخيماً فلم يكن

شيء يُسمع غير وقع الصنج في الميزان من وقت إلى آخر ، وبعض عبارات يهمس بها الصيدلي إلى تلميذه كإرشادات .

وفجأة سألت مدام «هوميه» : «وكيف حال طفلتكما الصغيرة؟» .

فصاح زوجها الذي كان يكتب أرقاماً في دفتر المسودات : هس !

فاستأنفت بصوت خافت : «لماذا لم تحضروها؟» . فقالت «إيما» وهي تشير بأصبعها إلى الصيدلي : «هس ! هس !» .

ولكن «بينيه» الذي كان منهمكاً بمراجعة الحساب لم يسمع شيئاً فيما يبدو . ثم خرج أخيراً . فتخلصت «إيما» وتنفست الصعداء !

وقالت مدام «هوميه» : «إنك تتنفسين تنفساً عميقاً !» .

فأجابت : آه . ذلك لأن الجو حار .

وحرصت «إيما» و«رودولف» في اليوم التالي على تنظيم مقابلاتهما . وأرادت «إيما» أن ترشو خادمتها بهدية ، وإن كانت تفضل لو أنهما عثرا في «أيونفيل» على بيت متزو . ووعد «رودولف» بالبحث عنه في أقرب وقت .

وخلال فصل الشتاء كان يأتي إلى الحديقة في ظلام الليل ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع . وقد عمدت «إيما» إلى أن تنزع من باب السياج المفتاح الذي ظن «شارل» أنه فُقد .

وكان «رودولف» إذا أراد أن يعلمها بوصوله يقذف خشب النافذة بحفنة من الرمل فتنهض قافزة ، وإن كان يضطر أحياناً إلى الانتظار ، وذلك لأن «شارل» كان مولعاً بالثرثرة إلى جوار النار ، ولم تكن ثرثرته تنتهي أبداً .

وكانت اللهفة تفتك بها ، ولو أن عيناها استطاعتا لقذفتا به من النافذة .

وأخيراً كانت تلبس ملابس النوم ثم تأخذ كتاباً وتستمر في القراءة في هدوء ، كأنها مسرورة بهذه القراءة . ولكن «شارل» الراقد في السرير كان يدعوها لكي تنام قائلاً : «إيما ، تعالي لقد حان وقت النوم !» .

فتجيب : «نعم ، إني قادمة !» .

ومع ذلك ، فلما كانت الشموع تعشي بصره فإنه كان يستدير نحو الحائط

ويغلبه النعاس ، فتفلت حابسة أنفاسها ، مبتسمة ، نابضة ، عارية !

وكان لـ«رودولف» معطف كبير يلفها فيه بأكملها ويطوق خصرها بذراعه ثم يقودها في صمت حتى نهاية الحديقة .

كان يأخذها تحت العريشة على المقعد نفسه المصنوع من الأعواد المتعفنة حيث كان «ليون» ينظر إليها في الماضي بعين والهة خلال أمسيات الصيف . . . لكنها لم تعد تفكر فيه الآن !

كانت النجوم تتلألأ من خلال أغصان الياسمين العارية عن الورق ، وكانا يسمعان من خلفهما خرير مياه النهر ، وهنا وهناك كانت تنتفخ كتل من الظلال وسط الظلام ، وتهتز كلها أحياناً بحركة واحدة ، وتنهض ثم تنحني كأمواج ضخمة سوداء ، تتقدم لكي تغطيهما . وكان برد الليل يحملهما على تشديد العناق ، وتنهدات شفاههما تلوح لهما أكثر قوة ، وعيونهما التي لا تكاد يتبيّنانها تلوح أكثر اتساعاً . وفي وسط الصمت كانا يتهامسان بعبارات تسقط على روحيهما كرنين البلور ، وتتردد عنها ذبذبات عديدة متكاثرة .

أمّا في الليالي المطيرة فكانا يلجآن إلى حجرة الفحص بين المخزن والحظيرة ، وكانت توقد أحد مشاعل المطبخ وقد خبأته خلف الكتب ، وكان «رودولف» يتربع هناك كأنه في بيته ، ومنظر المكتبة والمكتب ، والمكان كله يثير مرحه . ولم يكن يستطيع أن يمسك عن أن يطلق على «شارل» عدة نكات تحرج «إيما» التي كانت تود أن لو رأته أكثر جداً ، بل وأكثر انفعالاً عندما تستدعي المناسبة ، كما حدث عندما خيل إليها أنها تسمع وقع أقدام تقترب .

فقالت : إن أحداً قادم !

فأطفأ النور .

ـ هل لديك مسدسك؟

ـ لماذا؟

فأجابت «إيما» : لماذا؟ . . . لكي تحمي نفسك .

ـ أحميها من زوجك؟ آه ! هذا المسكين !!

وأنهى «رودولف» عبارته بحركة تفيد أنه «يستطيع أن يسحقه بنفضة ظفر» .

فأذهلتها شجاعته ، وإن تكن قد أحسّت بنوع من الغلظة والسماجة الساذجة التي استهجنتها .

وفكر «رودولف» كثيراً في حكاية المسدس ، وظن أنها كانت جادة في هذه الحكاية . فهي إذاً مضحكة إلى أقصى حد ، بل شنيعة ! وذلك لأنه لم يكن لديه أي سبب يبغض من أجله هذا الرجل الطيب «شارل» وإلاّ كان معنى هذا أنه يلتهب ضده غيرة . وكانت «إيما» قد حدثته في هذا الصدد حديثاً طويلاً لم يجد فيه ذوقاً سليماً .

ثم إنها أصبحت عاطفية . وكانا قد تبادلا صوراً مصغرة وخصلات من الشعر كتذكار ، لكنها أخذت تطلب الآن خاتماً ـ خاتم زواج حقيقياً ـ شعاراً للارتباط الأبدي . وكثيراً ما كانت تحدثه عن أجراس المساء ، أو عن أصوات الطبيعة ، ثم تحدثه عن أمها وعن أمه التي كان «رودولف» قد فقدها منذ عشرين عاماً . ومع ذلك فقد كانت «إيما» تعزيه عنها في عبارات تافهة ، كتلك التي توجه إلى طفل محروم ، بل وكانت تقول له أحياناً وهي تنظر إلى القمر : «إنني واثقة من أنهما تباركان حبنا في عليائهما !!» .

ومع ذلك كانت رائعة الجمال ، ولم يكن قد عثر إلاّ على القليل من هذا الصفاء . فهذا الحب الخالي من التهتك كان بالنسبة إليه شيئاً جديداً أخرجه من استهتاره المألوف ، وأخذ يداعب كبرياءه ولذته الحسية على السواء . أمّا اندفاع «إيما» ، ذلك الاندفاع الذي كان يحتقره بحسه البرجوازي ، فأخذ يبدو له ساحراً في أعماق قلبه ما دام موجهاً إلى شخصه . ومنذ أن استوثق من حبها فتر اهتمامه وأخذت معاملته تتغير في تدرّج غير محسوس .

لم تعد تصدر عنه ـ كما كان يفعل من قبل ـ مثل تلك الكلمات العذبة التي تسيل دموعها ، ولا مثل تلك القبلات الحارة التي تحس بها جنوناً ، حتى خيل إليها أن حبها العظيم الذي غاصت فيه قد أخذ يغيض من تحتها ، كمياه النهار التي تغيض في مجراه حتى تكشف لها الوحل ! ولم ترد أن تصدق ،

فضاعفت من حنانها ، لكن «رودولف» أخذ يتحلل شيئاً فشيئاً من إخفاء عدم مبالاته ، ويقلل شيئاً فشيئاً من حرصه على إخفاء فتوره .

ولم تدر هل تندم لاستسلامها له ، أم على العكس تأمل في أن تزيده حباً ، وهل ينقلب الصغار الذي أحسته ـ لضعفها ـ إلى حقد لا تطفئ ناره اللذات؟ ولم يكن الأمر تعلقاً بل غواية مستمرة ، فقد سيطر عليها ، وأصبحت تحس نحوه بما يشبه الخوف .

ومع ذلك فقد كانت المظاهر أكثر هدوءاً من أي وقت مضى . وقد استطاع «رودولف» أن يقود «الخاطئة» وفق هواه . وبعد ستة أشهر ، عندما جاء الربيع ، كان أحدهما كزوج وزوجة إزاء الآخر يتعهدان في هدوء شعلة الأسرة !

وكان هذا هو الموعد الذي يرسل فيه الأب «روو» الديك الرومي ، تذكاراً لساقه التي جبرت . وكانت الهدية تصل مصحوبة بخطاب ، فقطعت «إيما» الحبل الذي يعلقه بالسلة ، وقرأت الأسطر التالية :

«أبنائي الأعزاء . .

إنني لأرجو أن يجدكم خطابي هذا في صحة جيدة ، وأن يكون هذا الديك في جودة سابقيه ، وذلك لأنه يلوح لي أكثر ضراوة ، وأجرؤ أن أقول أكبر حجماً . ولكنني في المرة القادمة سأعطيكم ـ للتغيير ـ ديكاً من الدجاج ، وذلك ما لم تكونوا تفضلون السمك . وأرجو أن تعيدوا السلة مع السلتين السابقتين ! ولقد حدثت حادثة عندي لمظلة العربات ، إذ طارت ريح عاتية بسقفها وسط الأشجار ، كما أن المحصول لم يكن مفرط الجودة ! وأخيراً لست أدري متى سأحضر لرؤيتكم ، فمن الصعب عليّ أن أترك المنزل الآن ، منذ أن أصبحت وحيداً يا بنيتي العزيزة» .

وكان في هذا الموضع فراغ بين السطور ، وكأن الارتجاف قد ترك القلم يسقط من يده لكي يسبح في أحلامه بعض الوقت . .

«وأما عن نفسي فإنني بخير ، فيما عدا الزكام الذي أصبت به منذ أيام في

سوق «إيفيتو» ، حيث ذهبت لكي أستحضر راعياً للغنم ، بعد أن طردت الراعي الذي كان عندي بسبب شراهته . ويا ويلنا من هؤلاء اللصوص أمثال ذلك الراعي . .

«ولقد علمت من تاجر متجول مر ببلدتكم هذا الشتاء ، واقتلع ضرساً ، أن «بوفاري» يجهد دائماً نفسه في العمل . وليس في هذا ما يدهشني ، ولقد أراني ضرسه وتناولنا القهوة سوياً . . وقد سألته عما إذا كان قد رآك فأجاب بالنفي ، لكنه أخبرني أنه قد رأى حصانين في الحظيرة فاستنتجت أن العمل يسير سيراً مرضياً ، وفي هذا ما تطيب له نفسي يا أبنائي الأعزاء ، وليضف الله عليكما كل سعادة يمكن تصورها .

«وإنه لمما يحزنني أن لا أعرف حتى الآن حفيدتي العزيزة «بيرت بوفاري» ، ولقد غرست في الحديقة وتحت النافذة من أجلها شجرة إجّاص بريّ ، ولا أريد أن يمسها أحد اللهم إلا لكي يظهر لها فيما بعد فاكهة مطبوخة وأحفظه لها في الصوان عندما تحضر !

«وداعاً أبنائي الأعزاء ، وأقبّلك يا ابنتي كما أقبّل صهري والطفلة على الوجنتين . .

«مع تحياتي . .
أبوكم الحنون
ثيودور روو»

وظلت بضع دقائق ممسكة بهذه الورقة السميكة بين أصابعها . . وكانت أخطاء الإملاء آخذة بعضها برقاب بعض . وكانت «إيما» تتابع تلك الروح العذبة التي تنفق خلالها ، كالزجاجة المتوارية تحت كومة من الشوك ! كانوا قد جففوا الكتابة برماد النار فتساقط بعض الغبار الرمادي من الخطاب فوق ثوبها . وكادت تتصور أباها منحنياً فوق المدفأة لكي يتناول الملقط . وأخذت تفكر في الزمن الطويل الذي لم تعد تجلس فيه إلى جواره فوق المقعد المنخفض حول المدفأة وهي تشعل طرف عصا في لهب البوص البحري الذي

يئز ، وتذكرت أمسيات الصيف المشمسة والمهر تصهل عندما يمر شخص ، وتعدو ثم تعدو ـ وكانت هناك تحت نافذتها خلية نحل ، وكان النحل يحوم أحياناً في الضوء ويصطف بألواح الزجاج ككرات ذهبية مزهوّة . . . أية سعادة كانت في تلك الأيام ! وأية حرية ! وأي أمل ! أي فيض من الأحلام ! كل هذا لم يبق منه شيء الآن ! لقد أنفقته في مغامرات روحها خلال مراحل حياتها المتتابعة : أيام عذريتها ، وأيام الزواج ، وأيام الحب ، وهي تفقدها باستمرار على طول حياتها ، كالمسافر الذي يترك شيئاً من ثروته في كل فندق من فنادق الطريق الطويل !

ولكن ، مَن الذي تسبب لها في كل هذه التعاسة؟ وأية كارثة خارقة تلك التي قلبت حياتها؟ . . . ثم رفعت رأسها ، وأخذت تنظر من حولها ، وكأنها تبحث عن السبب الذي نتج عنه هذا الشقاء .

كان شعاع من أشعة شمس نيسان/ أبريل يداعب الأواني الصدئة فوق الرف ، والنار تتقد . وأحست رقة السجاد تحت خفها ، وكان اليوم مشرقاً ، والجو فاتراً ، وسمعت طفلتها ترسل الضحكات .

لقد كانت الطفلة تتدحرج فوق العشب وسط الحشائش التي كانوا يجففونها . وكانت مستلقية على بطنها فوق حجر طاحون ، وخادمتها تمسكها من ثوبها . وكان «ليستيبودوا» يمزق الأرض إلى جوارها . وكلما اقترب كلما انحنت ، وهي تضرب الهواء بكلتا ذراعيها .

وقالت الأم وهي تهرول لتقبّلها : «أحضريها إليّ ! كم أحبك أيتها الطفلة المسكينة ! . . كم أحبك !» .

ثم لمحت أن في طرف أذنها بعض الوسخ ، فدقت الجرس بسرعة لكي يحضروا لها الماء الساخن ونظفتها ، وغيرت ملابسها وجوربيها وحذاءها ، وألقت آلاف الأسئلة عن صحتها ، وكأنها عائدة من رحلة . وأخيراً قبلتها ثانية ، وبكت قليلاً ، ثم ردتها بين يدي الخادمة التي ظلت مندهشة من ذلك الحنان المفرط !

وفي المساء وجدها «رودولف» جادة أكثر من العادة .

فقدر أنها نزوة سوف تمر .

وتغيّب عن ثلاثة مواعيد متتالية . وعندما عاد تظاهرت بالبرود ، بل وبالاحتقار .

ـ آه ! إنك تضيّعين وقتك يا صغيرتي . . .

وبدا أنه لا يلاحظ تنهداتها الحزينة ، ولا المنديل الذي كانت تشده . . .

وعندئذ استشعرت «إيما» الذنب !

بل إنها تساءلت لماذا تبغض «شارل» إذاً؟ ألم يكن من الأفضل أن تحبه؟ لكنها لم تستجب لسلطان هذا الإحساس ، بل ظلت بالغة الحيرة إزاء هذا الدافع الضعيف نحو التضحية ، حتى أتى الصيدلي في الوقت المناسب لكي يتيح لها فرصته .

*

كان قد اطلع أخيراً على تقريظ لطريقة جديدة لعلاج الأقدام الشوهاء . ولـمّا كان من أنصار التقدّم ، فقد خطرت له تلك الفكرة الوطنية التي ترتفع بـ«أيونفيل» إلى المستوى اللائق بها ، وهي أن تجري فيها عمليات إصلاح جراحة العظام ! !

قال لـ«إيما» : «وأي خطر في ذلك؟ . . لنبحث الأمر !» ثم أخذ يعدد على أصابعه مزايا هذا المشروع : «نجاح مؤكد تقريباً ، تخفيف عن المرضى وتجميلهم ، وشهرة سريعة للجرّاح ! . . . ولماذا لا يريد زوجك مثلاً أن يخلص هذا المسكين «هيبوليت» خادم «الأسد الذهبي»؟ ولتلاحظي أنه لن يحجم عن أن يقص قصة شفائه على جميع النزلاء !» ثم خفض «هوميه» من صوته ونظر حوله وقال : «ثم ما الذي يمنعني من أن أرسل إلى الجريدة نبذة صغيرة في هذا الصدد؟ !» .

وسينتشر المقال ويتحدث عنه الناس ، حتى ينتهي الأمر بالتضخم ككرة الجليد . ومن يدري؟ ! . . من يدري؟» .

والواقع أنه كان من الممكن للطبيب أن ينجح . ولم يكن هناك شيء يثبت «لإيما» أنه غير ماهر . وأي رضى عن نفسها ستصيبه إذا دفعته نحو هذا المشروع الذي سيزيد من شهرته وثروته؟ ولم تكن تبغي إلا أن تستند إلى شيء أكثر صلابة من الحب .

وألحت هي والصيدلي على «شارل» فاقتنع ، واستحضر من «روان» مجلد الدكتور ديفال . وفي كل مساء كان يأخذ رأسه بين يديه ثم يغوص في القراءة .

وبينما كان يدرس سبب اعوجاج القدم من أسفل ومن الداخل ومن الخارج ، كان السيد «هوميه» يحث خادم الفندق بمختلف الحجج لكي يطلب إجراء العملية الجراحية ، قائلاً : إنك لن تكاد تحس شيئاً ـ ربما ألماً خفيفاً . . وخزة بسيطة كعملية فصد صغيرة .

وكان «هيبوليت» يدور بعينين بلهاوتين وهو يفكر .

ويضيف الصيدلي : «على أية حال فإن هذا لا يعنيني ، وإنما هو في مصلحتك ، وبدافع إنساني خالص ، وإنما أريد أن أراك يا بني وقد تخلصت من هذا العرج القبيح ، واهتزاز حقويك مما لا بد ـ مهما قلت ـ أن يسيء إليك في أثناء تأدية عملك !» .

ثم صوّر له «هوميه» كيف أنه سوف يحس بعد العملية بأنه أكثر قوة ونشاطاً ، بل ولمح له بأنه سيصبح في حالة أدعى إلى الاستحواذ على إعجاب النساء ! فأخذ الخادم يبتسم ابتسامة ثقيلة ، ثم أخذ «هوميه» يتملق غروره فقال : أولست رجلاً؟ وماذا كنت فاعلاً لو أنك جندت لتحارب في ظل العلم؟ . . آه ! هيبوليت ! . . .

ثم أخذ «هوميه» يبتعد وهو يصرح بأنه لا يفهم هذا العناد وهذا التعامي عن أفضال العلم !

واستسلم الشاب المسكين ! وذلك لأن الأمر كان كمؤامرة ، فـ«بينيه» الذي لم يكن يتدخل في أمور الآخرين قط ، ومدام «الوفرانسوا» ، و«أرتميز» ، بل

والعمدة ، وجميع الناس أخذوا يدفعونه ويلحون عليه ويخجلونه ، وكان في مجانية العملية ما انتهى به إلى اتخاذ قرار بل وتعهد بوفاري بأن يقدم الآلة اللازمة للعملية . وقد كانت «إيما» صاحبة فكرة هذا السخاء ، الذي وافق عليه «شارل» ، وهو يردد في أعماق نفسه أن زوجته ملاك .

وبعد محاولات ثلاث ومع إرشادات الصيدلي استطاع النجار بمساعدة الحداد أن يصنع شيئاً يشبه الصندوق وزنه ثمانية أرطال تقريباً لم ينقصه شيء من الحديد والخشب والقماش والجلد والمسامير اللولبية .

ومع ذلك فلكي يعرف «شارل» أي عضل سيقطعه لهيبوليت ، كان لا بد من أن يعرف أولاً أي نوع من العرج كان في قدمه .

ولما كان مصاباً باعوجاج سفلي فقد كان من الواجب قطع عضلة «أخيل» على أن يقطع فيما بعد عضلاً داخلياً في الساق لكي يتخلص من الاعوجاج الداخلي ، وذلك لأن الطبيب لم يكن يجرؤ أن يجازف بعمليتين في الوقت نفسه ، بل وكان يرتعد خوفاً من أن يمس موضعاً هاماً لا يعرفه .

اقترب الطبيب «شارل» من «هيبوليت» ممسكاً ببضع العضلات بين أصابعه ، وكما يحدث في المستشفيات كنت ترى هناك على مائدة جانبية كومة من نسالة قماش وخيطاً مشمعاً وكثيراً من الضمادات . . . بل هرماً من الضمادات . . كل ما كان عند الصيدلي من ضمادات !! وكان السيد «هوميه» هو الذي نظم منذ الصباح كل هذه المعدات (وذلك لكي يبهر الجمهور ، ثم لكي يرضي غروره) . وشق «شارل» الجلد فسمعت قرقعة جافة ، وقطع العضل ، وانتهت العملية ، ولم تنته دهشة «هيبوليت» ، الذي انحنى على يدي بوفاري وأخذ يغطيهما بالقبلات .

وقال الصيدلي : «هيا . . الزم الهدوء وسوف تعترف فيما بعد بالفضل لمن أحسن إليك» .

ونزل «هوميه» لكي يقص ما حصل على خمسة أو ستة من الفضوليين الذين كانوا يرابطون في صحن الدار ، والذين كانوا يتصورون أن «هيبوليت»

سيظهر ماشياً مشية مستقيمة . وبعد أن وضع «شارل» ساق مريضه في المحرك الميكانيكي عاد إلى منزله حيث كانت «إما» تنتظره على الباب في لهفة ، فقفزت إلى عنقه ، وجلسا إلى المائدة ، وأكل كثيراً ، بل وأراد أن يتناول مع الحلوى فنجاناً من القهوة ، وهذا نوع من البذخ لم يكن يسمح لنفسه به إلاّ في يوم الأحد عندما يكون لديه ضيوف .

وكانت الأمسية ساحرة مليئة بالأحاديث والأحلام المشتركة ، فقد تحدثا عن ثروتهما المقبلة وعن التحسينات التي سيدخلانها في منزلهما . وأخذ هو يتخيّل صيته يذيع ورخاءه يزداد ، وزوجته تحبه دائماً . وأخذت هي تحس بنفسها سعيدة وبحياتها تنتعش بإحساس جديد أكثر سلامة وخيراً ، كما أخذت تستشعر شيئاً من الحنان نحو هذ الرجل المسكين الذي يحبها . ومرت بخاطرها لحظة صورة «رودولف» ، ولكن عينيها انصرفتا إلى «شارل» ، بل ولاحظت في دهشة أن أسنانه لم تكن قبيحة .

وكانا في السرير عندما دخل السيد «هومبه» فجأة إلى الغرفة ، بالرغم من الخادم ، وفي يده ورقة لم يجف مدادها بعد ، هي إعلان أعده لجريدة «فانال دي روان» ، وقد حمله إليهما ليقرآه .

وقال بوفاري : اقرأه أنت .

فقرأ : بالرغم من الآراء الرجعية التي لا تزال تغطي جزءاً من سطح أوروبا كالشبكة ، فإن الضوء قد أخذ مع ذلك يتغلغل في ريفنا . ففي يوم الثلاثاء كانت مدينتنا الصغيرة «أيونفيل» مسرحاً لتجربة جراحية تعتبر في الوقت نفسه من أعمال البر ، وذلك أن السيد «بوفاري» أحد جراحينا البارزين . . .» .

وقال «شارل» وقد خنقه الانفعال : «آه . هذا كثير .» أبداً . . أبداً . . كيف هذا؟ . . «قد أجرى عملية في قدم أعرج . .» إنني لم أضع الاصطلاح العلمي وذلك لأنه في جريدة سيارة كما تعلم . . وقد لا يفهمه الجميع ، ومن الواجب أن الجماهير . . .» .

وقال بوفاري : «هذا حق . . استمر» .

وقال الصيدلي : «ها أنا أواصل . . «السيد بوفاري أحد جراحينا الممتازين قد أجرى عملية في ساق أعرج ، للمدعو «هيبوليت توتان» الذي يعمل منذ خمسة وعشرين عاماً خادم إسطبل في فندق «الأسد الذهبي» الذي تديره الأرمل مدام «لوفرانسوا» في ميدان السلاح . وقد كان في جدة هذه المحاولة وفي الأهمية المعلقة على هذا الموضوع ما استحوذ على مشاعر السكان ، فتجمعوا في زحام شديد عند مدخل المبنى . وقد تمت العملية فيما يشبه السحر ، ولم يسل من الدم غير بضع نقط على الجلد ، وكأنما سالت لكي تنبئ بأن العضلة الجموح قد انتهت بالاستسلام لمجهودات الفن . ومن المدهش أن المريض (كما تحققنا بأعيننا) لم يستشعر أي ألم ، وحالته الآن لا تترك مجالاً لمستزيد . وقد تضافرت الدلائل على أن دور النقاهة سيكون قصيراً . ومن يدري فلعلنا نشاهد في عيدنا الريفي المقبل فتانا «هيبوليت» الشجاع ، وهو يرقص في أعياد باخوس وسط جوقة من الفتية المرحين ، وبذلك يثبت لجميع الأعين بمرحه وخفته شفاءه الكامل؟ ألا فلنحي علماءنا الأخيار ، تلك الأرواح التي لا تمل والتي تكرس لياليها لتحسين جنسها ، أو للتخفيف من آلامه . . فلنحيها ولنحيها أكثر من مرة ، أولسنا في موقف يصح أن نصيح معه أن العميان سيبصرون ، والصم سيسمعون ، والعرجى سيمشون؟ وما كان التعصب الديني يعد به المؤمنين قد أصبح العلم الآن يقدمه لجميع البشر . ولسوف نوافي القراء بالمراحل المتابعة لهذا العلاج الفذ» .

ولكن كل هذا لم يمنع الأم «لو فرانسوا» من أن تأتي بعد ذلك بخمسة أيام ملتاعة وهي تصيح :

ـ النجدة . . إنه يحتضر . . إنني أكاد أفقد صوابي . . !

وهرول «شارل» إلى الأسد الذهبي . . ولمحه الصيدلي وهو يمر في الميدان بغير قبعة فترك الصيدلية وقد لاح هو نفسه لاهثاً محمراً قلقاً ، وأخذ يسأل كل أولئك الذين كانوا يصعدون السلم .

ـ ما الذي أصاب أعرجنا العزيز؟

لقد كان الأعرج يتلوّى في تقلصات بشعة ، حتى إن المحرك الميكانيكي الذي كان قد وضع فيه ساقه كان يصدم الحائط وكأنه سيهدمه .

وفي كثير من الاحتياط ، لكي لا يتغيّر وضع الساق ، سحبوا الصندوق ، وإذا بهم أمام منظر بشع . فمعالم القدم قد اختفت في ورم بلغ من الضخامة أن الجلد كله لاح على وشك الانفجار ، وقد تغطى بكدمات سببتها تلك الآلة الشهيرة التي كان هيبوليت قد شكا منها ، ولكن أحداً لم يلتفت إليه . وقد أصبح من الواجب الآن أن يعترف بأنه لم يكن مخطئاً كل الخطإ ، ولذلك تركوه حراً بضع ساعات ، ولكن لم يكد يختفي الورم قليلاً حتى رأى العالمان الفاضلان أنه من الأنسب إعادة ساقه إلى الجهاز مع زيادة إحكامه لكي يسرعوا في الأمر . وأخيراً لم يستطع «هيبوليت» الاحتمال بعد ثلاثة أيام ، فسحبوا الآلة مرة ثانية ولاحظوا لشدة دهشتهم النتيجة : وهي ظهور خراج متقيّح يمتد على الساق مع بثور هنا وهناك يسيل منها سائل أسود . واتخذت المسألة وضعاً جدياً . فهيبوليت قد أخذ يتضجر ، والأم «لو فرانسوا» قد وضعته في الصالة الصغيرة إلى جوار المطبخ وذلك لكي يجد بعض التسلية على الأقل .

ولكن المحصّل الذي كان يتناول عشاءه كل يوم هناك أخذ يشكو في مرارة من مثل هذا الجوار ، فنقل «هيبوليت» عندئذ إلى صالة البلياردو .

لقد كان هناك يئن تحت غطائه السميك ، شاحباً ، مرسل اللحية ، غائر العينين . ومن وقت إلى آخر كان يقلب رأسه الغارق في العرق فوق الوسادة القذرة التي يتساقط عليها الذباب ، وكانت مدام بوفاري تأتي لتعوده وتحمل إليه قطعاً من القماش لعمل اللزقات ، وكانت تواسيه وتشجعه . وهو فوق ذلك لم يكن يعدم الصحبة ، وخصوصاً أيام السوق عندما كان الفلاحون يدفعون من حوله كرات البلياردو ، ويتبارزون بالمضارب ويدخنون ويشربون ويغنون ويتصايحون . وكانوا يقولون له وهم يضربون على كتفه : «كيف حالك؟ آه . إنك لست فخوراً فيما يبدو ! ولكنها غلطتك . يجب أن تفعل هذا وأن تفعل ذاك . .

وكانوا يقصون عليه قصص أناس شفوا جميعاً بعلاج آخر غير علاجه . ثم يضيفون على سبيل المواساة : «إنك تستسلم إلى نفسك كثيراً . انهض إذاً . إنك تدلل نفسك كأنك ملك . آه وعلى أية حال فإن رائحتك ليست طيبة أيها العفريت» .

والواقع أن الغرغرينا كانت تتزايد شيئاً فشيئاً ، وكان «بوفاري» يكاد يفقد بسببها صوابه ، فهو يأتي في كل ساعة ، و«هيبوليت» ينظر إليه في كل لحظة بعينين مليئتين بالفزع ويتمتم وهو ينشج من البكاء :

ـ «متى سأشفى؟ . . آه . . أنقذني . . يا لي من بائس . . يا لي من بائس» .

وكان الطبيب ينصرف دائماً وهو يوصيه دائماً بالامتناع عن الطعام .

وكانت الأم «لوفرانسوا» تعقب عليه بقولها : «لا تستمع إليه يا بني . كفى ما أنزلوا بك من عذاب . إنك ستزداد ضعفاً . خذ . ابتلع» .

وكانت تقدم إليه بعضاً من الحساء الجيد ، وقطعة من الفخذ ، وقطعة من الدهن ، وأحياناً كؤوساً صغيرة من الخمر التي لم يكن يجد الشجاعة ليرفعها إلى شفتيه .

وعلم القس أنه يزداد سوءاً ، فطلب أن يراه ، وابتدأ بالرثاء لألمه مع الإشارة إلى أن عليه أن يبتهج ما دامت تلك إرادة الرب ، وأن ينتهز في سرعة هذه الفرصة لكي يتصالح مع السماء .

وقال رجل الكنيسة بنغمة أبوية : «ذلك أنك كنت تهمل بعض الشيء واجباتك ، وقلما كنت ترى في الصلاة ! وكم من السنين لم تقترب فيها من المائدة المقدسة» .

ووعد المسكين . وعاد القسيس في الأيام التالية ، وكان يتحدث مع صاحبة الفندق ، بل ويقص حكايات ممزوجة بالنكات والأحاجي التي لم يفهمها «هيبوليت» ، وبمجرد أن تسنح له الفرصة كان يعود إلى مسائل الدين وقد اتخذ وجهه مظهراً ملائماً .

والظاهر أن حماسته قد أثمرت ، وذلك لأن الأعرج لم يلبث أن أبدى

رغبته في الذهاب إلى الحج في «بون سكور» إذا شفي ، وأجاب القس على ذلك بأنه لا يرى ضيراً في هذه الرغبة ، وأن مضاعفة الحيطة خير ، وليس في الأمر أية مخاطرة .

ولكن الصيدلي امتعض مما سماه مناورات القسيس التي تسيء ـ في رأيه ـ إلى نقاهة «هيوليت» . وأخذ يردد على مسامع مدام «لوفرانسوا» : «اتركيه . . اتركيه ! إنك تنزلين بروحه الاضطراب بهذه الغيبيات» .

ولكن السيدة لم تعد تقبل الاستماع إليه لأنه كان السبب في كل شيء . بل ودفعتها روح العناد إلى أن تعلق في فراش المريض قنينة من الماء المقدس وغصناً من شجر البقس .

ومع ذلك فلا الدين ولا الجراحة استطاعا أن يسعفاه ، وأخذ التعفن العاتي يتصاعد باستمرار من الأطراف إلى البطن ، وعبثاً كانوا يستبدلون العقاقير والضمادات ، فعضلاته تزداد تفككاً يوماً بعد يوم . وأخيرا أجاب «شارل» بحركة موافقة من رأسه عندما سألته الأم «لو فرانسوا» عما إذا كان من الممكن ، كملاذ أخير ، أن تستقدم من «نيو شاتل» السيد كانيفيه الذائع الصيت .

كان دكتوراً في ا لطب في الخمسين من عمره ، يشغل مركزاً رفيعاً ، وكان واثقاً من نفسه ، ولذلك لم يتحرج كزميل من أن يضحك في ترفع ، عندما اكتشف تلك الساق التي ضربت فيها الغرغرينا حتى الركبة . وبعد أن صرّح في حزم بأنه لا بد من بترها انصرف إلى محل الصيدلي حيث أخذ يثرثر ضد أولئك الحيوانات ، الذين انتهوا بهذا الرجل المسكين إلى مثل هذه الحالة . وأخذ يهز السيد هوميه من زرار سترته ويصيح : هل من الممكن تقويم أقدام عرجاء؟ إن هذا يشبه مثلاً محاولة تقويم ظهر أحدب !

وكان «هوميه» ينفخ وهو يستمع إلى هذا الحديث ، وإن أخفى ضيقه بابتسامة مصطنعة ، لأنه كان في حاجة إلى أن لا يغضب السيد كانيفيه الذي كانت تذاكر أدويته تصل أحياناً حتى «أيونفيل» ، ولذلك لم يقم بالدفاع عن

بوفاري ، بل ولم يبد أية ملاحظة ، وتخلى عن مبادئه وضحى بكرامته في سبيل المصالح الجدية لتجارته .

وكان بتر الفخذ بوساطة الدكتور كانيفيه حدثاً جليلاً في القرية . فاستيقظ جميع السكان في ذلك اليوم في ساعة مبكرة ، وبالرغم من أن الشارع الرئيسي كان مليئاً بالناس ، إلاّ أنه كان يلوح حزيناً كئيباً ، وكأنهم بإزاء تنفيذ حكم بالإعدام ، فكانوا يتناقشون عند البقال حول مرض «هيوليت» والمحلات لا تبيع شيئاً وزوجة العمدة لم تتحرك من النافذة بسبب حالة اللهفة التي كانت فيها في انتظار قدوم الجراح .

ووصل الجراح في عربته التي كان يقودها بنفسه ، وبعد أن دخل كالإعصار تحت باب «الأسد الذهبي» تقدم إليه «هوميه» فقال الدكتور : «إني معتمد عليك . هل نحن مستعدون؟ إلى العمل» .

ولكن الصيدلي اعترف ـ وقد احمر وجهه خجلاً ـ بأنه من الحساسية بحيث لا يستطيع أن يحضر مثل هذه العملية .

وأردف قائلاً : «عندما يكون الإنسان مجرد مشاهد فإن الخيال يصدمك كما تعرف . . ثم إن جهازي العصبي من . . .» .

فقاطعه كانيفيه قائلاً : «آه . . كلام فارغ . إنك تلوح على العكس عرضة لداء السكتة . ولو أن هذا لا يدهشني لأنكم أيها السادة الصيادلة تحبسون أنفسكم باستمرار في مطبخكم مما ينتهي بتغيير مزاجكم» .

ثم دخل هذان السيدان في مناقشة ، قارن فيها الصيدلي هدوء الجراح بهدوء قائد الجيش ، وذلك دون أية مراعاة لهيوليت الذي كان يتصبب عرقاً في دثاره من شدة الفزع . وإن تكن المقارنة قد راقت لكانيفيه ، الذي استرسل في الحديث عن مقتضيات فنه الذي يعتبره رسالة مقدسة . وأخيراً عاد إلى المريض ففحص الضمادات التي أحضرها «هوميه» ، وهي نفسها التي كانت قد ظهرت عند عملية إصلاح الساق الأعرج ، وطلب شخصاً لكي يمسك له الساق ، فأرسلوا لإحضار خادم الكنيسة . وبعد أن شمر السيد «كانيفيه» عن

ساعديه دخل صالة البلياردو بينما بقي الصيدلي مع صاحبة الفندق .

وفي تلك الأثناء لم يجرؤ بوفاري على أن يتحرك من منزله ، حيث ظل في الصالة بالدور الأرضي جالساً إلى جوار المدفأة الخالية من النار ، وذقنه فوق صدره ، وقد شبك يديه وجمدت حدقتاه وهو يفكر : «يا له من حظ سيء . يا لها من خيبة أمل» ومع ذلك ، فإنه كان قد اتخذ جميع الاحتياطات التي يمكن تصورها . ولكن القدر تدخل في الأمر . ولكن إذا حدث أن مات «هيبوليت» بعد ذلك ، فإنه سيُعتبر القاتل . ثم أي تفسير سيقدمه في أثناء عيادته لمرضاه عندما يسأل عن هذا الحادث؟ ومع ذلك فلعله أخطأ في شيء ما ! وأخذ يبحث ، ولكنه لم يهتد إلى شيء . ولكن ألا يخطئ أشهر الجراحين؟ هذا ما لا يريد أحد أن يعتقده . بل إنهم على العكس سوف يضحكون وينبحون وسيذيع الخبر في كل مكان . . ومن يدري أن الزملاء لن يكتبوا ضده ، ويثور حول ذلك جدل ، ويتطلب الأمر الرد في الصحف ، بل قد يرفع «هيبوليت» ضده دعوى . وأخذ يتصور نفسه وقد أهين شرفه ونزل به الخراب وضاع . وتواثبت على خياله جملة من الافتراضات أخذ يسبح بينها كالبرميل الخالي الذي يحمله البحر ويتقلب بين الأمواج .

وكانت «إيما» تنظر إليه وهي في مواجهته وإن لم تشاطره مذلته (إذ كانت لها مذلة أخرى ، هي أنها قد تصورت أن مثل هذا الرجل يمكن أن يساوي شيئاً ، وكأنها لم تكن قد تبيّنت من قبل - في وضوح - أكثر من مرة تفاهته وخيبته) .

وأخذ «شارل» يروح ويجيء في الغرفة وحذاؤه يقرقع فوق خشبها .

فقالت «إيما» : اجلس ، فإنك تثير أعصابي .

فعاد إلى الجلوس .

كيف حدث أن عادت فأخطأت الحكم رغم شدة ذكائها؟ ثم أي جنون محزن ذلك الذي جعلها تتلف حياتها على هذا النحو في تضحيات مستمرة؟ وتذكرت جميع غرائز البذخ الكامنة في نفسها ، وكل ما في روحها من

إحساسات بالحرمان ، وما في الزواج ومنزل الزوجية من حقارة ، ثم أحلامها التي سقطت في الوحل كالسنونو الجريح ، وكل ما رغبت فيه وحرمت نفسها منه ، وكل ما كانت تستطيع أن تناله . ثم لماذا - لماذا؟

ووسط الصمت الذي كان مخيّماً على القرية ارتفعت صرخة حادة اخترقت الهواء ، فشحب لون بوفاري ، إلى حد الإغماء ، وقطبت «إيما» حاجبيها بحركة عصبية ثم واصلت خواطرها : فمن أجله . . من أجل هذا الكائن . . هذا الرجل الذي لا يفهم شيئاً ولا يحس بشيء ، فها هو محتفظ بهدوئه لا يخطر بباله أن العار الذي سيلطخ اسمه سوف يلطخها هي الأخرى كما يلطخه . ولقد بذلت مجهودات لكي تحبه ثم ندمت ! لأنها استسلمت لشخص آخر .

وفجأة صاح بوفاري إذ كان يفكر : «لعلها كانت سوسة؟» .

وعند مفاجأتها بهذه العبارة التي سقطت في نفسها ككرة من الرصاص في طبق من الفضة انتفضت «إيما» ورفعت رأسها لكي تحدس ما أراد أن يقوله . وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر في صمت وكأنه مذهول عن نفسه ، وذلك لشدة البعد الذي كان بين ضميريهما . فشارل ينظر إليها نظرة مضطربة كالمخمور ، وهو ينصت جامداً لآخر صيحات الأعرج الذي تبتر ساقه ، وهي تتابع في موجات متراخية تقطعها تشنجات حادة كالخوار البعيد المنبعث عن دابة تذبح ، وأخذت تعض شفتيها الشاحبتين ، وتدير بين أصابعها غصناً صغيراً من اللبلاب الذي كسرته ، وقد ثبتت فوق «شارل» سنان حدقتيها الحادتين وكأنهما سهمان من نار على أهبة الانطلاق ، وقد أخذ كل شيء فيه يثيرها الآن : وجهه وحلته . . وما لم يقله . . وشخصه كله . . وأخيراً وجوده ذاته . . كما أخذت تحاسب نفسها على عفتها الماضية وكأنها جريمة ، وقد انهار ما تبقى من تلك العفة تحت سوط كبريائها المحتدمة . وأخذت تتلذذ بمساخر الزنا المنتصر ، وعادت إليها ذكرى عشيقها مصحوبة بلذات مثملة . وألقت بروحها إلى تلك الذكرى ، محمولة إليها بحماسة جديدة ، وقد لاح لها

«شارل» منفصلاً عن حياتها ومختفياً إلى الأبد ومستحيلاً ومنعدم الوجود كأنه صائر إلى الموت وأنه يحتضر تحت ناظريها .

وسُمع وقع أقدام على الرصيف ، فنظر «شارل» ، ومن خلال خشب النافذة المسدل رأى إلى جانب السوق تحت وهج الشمس الدكتور «كانيفيه» وهو يجفف جبهته بملفحته و«هوميه» من خلفه حاملاً صندوقاً كبيراً أحمر ثم اتجه الاثنان ناحية الصيدلية .

وعندئذ التفت «شارل» نحو زوجته في انهيار وحنان مفاجئ وقال «قبّليني يا عزيزتي» .

فقالت وقد احمر وجهها من الغضب : «إليك عني» .

فأخذ يردد مندهشاً : «ماذا بك . . ماذا بك؟ اهدئي . استردي جأشك . . إنك تعلمين جيداً أنني أحبك . . تعالي . .» .

فصاحت في نبرة مخيفة : «كفى» .

ثم هربت من الصالة وأغلقت الباب في عنف ، حتى إنّ البارومتر سقط عن الحائط وتكسر على الأرض .

وتهاوى «شارل» في مقعده وقد اختل مزاجه ، وأخذ يبحث عما يمكن أن يكون قد أصابها ، فتصور مرضاً عصبياً ، واستسلم للبكاء كمن رأى في غموض شيئاً مشؤوماً غير مفهوم يحوم حوله .

وعندما وصل «رودولف» إلى الحديقة في المساء ، وجد عشيقته تنتظره عند أسفل السلم على أول درجة ، فتعانقا ، وذاب حقدهما كالجليد تحت حرارة العناق .

*

ومن جديد بدأ غرامها ، بل كثيراً ما كانت تكتب إليه فجأة وسط النهار ثم تشير من خلال الزجاج إلى جوستان ، الذي كان يحل مريلته في سرعة ويطير إلى «لاهاشيت» ، ويصل «رودولف» لكي تشكو إليه السأم وتقول إن زوجها كريه وإن الحياة كريهة .

وصاح بها يوماً وقد نفد صبره : وهل لي في ذلك حيلة؟

فقالت وهي جالسة على الأرض بين ركبتيه محلولة الضفائر زائغة البصر : نعم لو أردت . .

فقال «رودولف» : كيف؟

فتنهدت قائلة : أن نذهب لنعيش بعيداً من هنا . . في مكان آخر . . .

فقال ضاحكاً : أمجنونة أنت . . هل هذا ممكن؟

وعادت إلى هذا الموضوع . فتظاهر بأنه لا يفهم وغيّر مجرى الحديث .

والشيء الذي لم يكن يفهمه هو كل هذا الاضطراب في شيء بسيط كالحب ، ولا بد أنه كان لديها باعث وسبب آخر يضاف إلى هذا التعلق .

والواقع أن هذا الحب كان يزداد نمواً كل يوم مع زيادة نفورها من زوجها ، وكلما استسلمت لأحد الرجلين كلما ازدادت بغضاً للآخر . ولم يلح لها «شارل» قط في مثل هذا القبح : أصابعه في مثل هذه الغلظة ، وروحه في مثل هذا الثقل ، وعاداته في مثل هذا الابتذال ، كما كان يبدو بعد مقابلاتها لعشيقها ثم اجتماعها بزوجها ، فإنها رغم تمثيلها عندئذ دور الزوجة والمرأة الفاضلة ، كانت تلهبها صورة ذلك الرأس الذي يلتف شعره الأسود في خصلة نحو الجبهة الملوحة ، وصورة ذلك القد الذي يجمع بين القوة والرشاقة ، وبالجملة صورة ذلك الرجل الذي يمتلك حنكة العقل مع جموح الرغبة ، فمن أجله كانت تسوي أظفارها في عناية المثال ومن أجله لم تكن تقنع بأية كمية من المساحيق لوجهها ، أو من العطور لمناديلها . وقد أثقلت نفسها بالأساور والخواتم والعقود ، وعندما كان يحين موعد قدومه كانت تملأ بالورد زهريتيها الكبيرتين المصنوعتين من الزجاج الأزرق ، وكانت ترتب بيتها وتهندم شخصها كغانية تنتظر أميراً . وكان لا بد للخادمة من أن تعمل طول النهار في غسل البياضات ، كما أن «فيليسيتيه» لم تكن تتحرك هي الأخرى طوال النهار من المطبخ حيث كان «جوستان» الصغير يصاحبها ويراقبها وهي تعمل .

وكانت «إيما» تمتلك في صوانها كمية من الأحذية تبذر فيها تباعاً ، دون أن يسمح «شارل» لنفسه قط بأن يبدي في ذلك أية ملاحظة .

وبهذا التسامح نفسه دفع «شارل» ثلاثمائة فرنك ثمناً لساق من الخشب رأت زوجته فيها هدية مناسبة «لهيبوليت» . وكان تجويف الساق الصناعية مغلفاً بالفلين ولها مفاصل لولبية وصناعتها معقدة ومن فوقها سروال أسود ، كما تنتهي بحذاء من الجلد اللامع المصقول . ولـمّا كان «هيبوليت» لا يجرؤ على أن يلبس في جميع الأيام مثل هذه الساق الجميلة ، فقد تضرع إلى مدام بوفاري لكي تحصل له على ساق أخرى أكثر سهولة في استخدامها ، وبالطبع تكفل الطبيب بثمن هذه الساق الأخرى .

وعلى هذا النحو أخذ «هيبوليت» يستأنف عمله شيئاً فشيئاً ، فكان يرى وهو يجوب البلدة كما كان يفعل من قبل . وعندما كان «شارل» يسمع عن بعد صوت عصاه الجاف فوق الرصيف كان يسرع باتخاذ طريق آخر .

وكان السيد «ليريه» التاجر هو الذي عهد إليه بشراء الساقين ، فأتاح له ذلك فرصة التردد على «إيما» ، حيث أخذ يتحدث معها عن واردات باريس الحديثة ، وآلاف المبتكرات النسائية . وكان يظهر لها مجاملة شديدة فلا يطلب نقوداً قط ، واستسلمت «إيما» إلى تلك السهولة التي وجدتها في إشباع جميع نزواتها . فمثلاً أرادت أن تقدم إلى «رودولف» سوطاً جميلاً كان موجوداً في دكان مظلات في «روان» ، فإذا بالسيد «ليريه» يضعه بعد أسبوع أمامها على المنضدة .

ولكنه تقدّم إليها في اليوم التالي بفاتورة بمائتين وسبعين فرنكاً فضلاً عن السنتيمات ، فأحرجت «إيما» إحراجاً شديداً ، إذ كانت جميع أدراج مكتبها خالية ، وكانوا مدينين «للستيبودوا» بما يزيد على خمسة عشر يوماً ، وللخادمة بستة أشهر ، فضلاً عن مجموعة من الديون الأخرى ، وكان السيد بوفاري ينتظر بصبر نافد الدفعة التي اعتاد السيد «ديروزيريه» أن يدفعها له كل عام في عيد القديس بطرس .

وقد نجحت أول الأمر في أن تتخلص من «ليريه» ، ولكن صبره نفد ، فهو مطارد ، وقد اختفى رأسماله ، وإذا لم يسترد بعضه فإنه سيضطر إلى استرداد جميع البضائع التي لديها .

فقالت «إيما» : لا بأس . . فليستردها .

ولكنه أجاب : أوه . . إنني أفرح وإن كنت غير آسف إلاّ على السوط الذي أفكر في أن أطلب إلى السيد بوفاري رده .

فقالت : لا . . لا . . .

ففكر «ليريه» في نفسه قائلاً : «آه . . ها قد أمسكت بك» .

ثم خرج بعد أن اطمأن إلى اكتشافه ، وهو يردد في صوت منخفض وفي صريره المعتاد : فليكن . فلننتظر . . فلننتظر .

وبينما كانت تحلم في مخرج من هذا المأزق إذ بالطاهية تدخل وتضع فوق المدفأة لفافة صغيرة من الورق الأزرق مرسلة من السيد «ديروزيريه» ، فوثبت عليها «إيما» وفتحتها وإذا بها خمسة عشر جنيهاً من الذهب ، وهي الدفعة المنتظرة ، وسمعت «شارل» صاعداً على السلم فألقت بالذهب في قاع الدرج وأخذت المفتاح .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ظهر «ليريه» .

قال : إن لدي تسوية أقترحها . . وبدلاً من المبلغ المتفق عليه . . هل تريدين أن تأخذي . . .

فقالت وهي تضع في يده أربعة عشر جنيهاً من الذهب : ها هو .

فذهل التاجر ، ولكي يخفي خيبة أمله ، اندفع في سيل من الاعتذارات ومن عرض خدماته التي رفضتها «إيما» كلها . ثم ظلت تتحسس في جيب مريلتها قطعتي الفرنك اللتين ردهما إليها وعاهدت نفسها بأن تقتصد لكي ترد في المستقبل . .

ثم استطرد تفكيرها : ولكن لا ، إنه لن يفكر في ذلك بعد الآن .

وفضلاً عن السوط ذي المقبض العقيقي ، كان «رودولف» قد استلم منها

ختماً نقشت عليه عبارة «حبيب القلب» ثم شالاً استخدمه ككوفية ، وأخيراً مبسم سجائر شديد الشبه بمبسم الفيكونت الذي كان «شارل» قد التقطه قديماً من الطريق ، وكانت «إيما» قد احتفظت به . ومع ذلك فإن هذه الهدايا قد مست كبرياءه فرفض الكثير منها ، ولكنها أصرت فانتهى «رودولف» بالرضوخ ، وإن كان قد أحسّ بسيطرتها بل واقحام نفسها في حياته .

وكانت تقول له : فكّر فيّ عندما يحين منتصف الليل .

ولـمّا اعترف لها بأنه لم يتذكر ، وجّهت إليه فيضاً من العتاب كان ينتهي دائماً بتلك الكلمة الخالدة : هل تحبني؟

فيجيب : نعم . . أحبك دون شك .

ـ كثيراً؟

ـ قطعاً .

ـ ألم تحب غيري قط؟

فيتساءل ضاحكاً : وهل تعتقدين أنك قد أخذتني بكراً؟

فتبكي «إيما» ، ويحاول أن يهدئها ، وهو يُجمّل عباراته ببعض النكات .

فتقول : آه . ذلك أني أحبك ـ أحبك حتى أنني لا أستطيع أن أحيا بدونك . . هل تعلم ذلك . . وتثور بي أحياناً رغبة في أن أعود إلى رؤيتك عندما تمزقني انفعالات الحب فأتساءل : أين هو؟ ربما كان يتحدث إلى نساء أخريات ! فيضحك ويقترب . . ولكن . لا . أليس كذلك؟ إن أية واحدة منهن لا تروقك . . هناك من هن أكثر جمالاً مني . . ولكنني أعرف جيداً كيف أحب . . إنني خادمتك وعشيقتك . وأنت ملكي وعشيقي . إنك طيب . إنك جميل . إنك ذكي . إنك قوي .

ولكن «رودولف» بفضل ذلك التفوق الذي تملكه كل نفس خبيرة ، وبحكم وقوفها عن بعد خلف أية معركة ناشبة ، أخذ يلمح في هذا الحب لذات أخرى يمكن أن يستغلها . وكان يرى أن كل حياء أمر غير عملي ، فأخذ يعاملها في غير احتفال ، وجعل منها شيئاً مرناً منحلاً ، فكان حبها نوعاً من

التألق الأبله المليء بالإعجاب نحوه وباللذة بالنسبة إليها . . . كان استرخاء سعيداً يخدرها ، وقد انغمست روحها في هذا الثَمَل وغرقت مثل دوق «كلارانس» في برميل نبيذه الإغريقي . وبحكم اعتيادها الغراميات غيّرت مدام بوفاري من طبائعها ، فنظرتها أصبحت أكثر جراءة وأحاديثها أكثر تحرراً ، بل لقد تجرأت ذات مرة فخرجت للنزهة مع «رودولف» وبفمها سيجارة وكأنها أرادت أن تتحدى الناس . وأخيراً فإن أولئك الذين كانوا لا يزالون يخامرهم شيء من الشك لم يلبث شكهم أن زال عندما رأوها تنزل في أحد الأيام من «العصفورة» وقد شدّت خصرها في صدار على هيئة الرجال .

ومدام بوفاري الأم التي كانت قد لجأت إلى منزل ابنها على أثر عراك عنيف مع زوجها ، لم تكن أقل سيدات الطبقة البرجوازية اشمئزازاً ، فأشياء كثيرة لم ترقها . . منها أنه لم يستمع إلى نصائحها فيحرم كتب الروايات ، ثم إن طابع المنزل نفسه لم يكن يروقها ، فسمحت لنفسها بإبداء ملاحظات ، بل وثارت الخصومة بنوع خاص ذات مرة بخصوص «فيليسيتيه» ، فمدام بوفاري الأم لاحظت في المساء وهي تعبر المشاة أن «فيليسيتيه» كانت في صحبة رجل في حوالى الأربعين من عمره يحيط بعنقه وشاح بني ، وعندما سمع هذا الرجل وقع أقدامها أسرع إلى التسلل من المطبخ . وعندئذ أخذت «إيما» تضحك ، ولكن السيدة الوقور ثار بها الغضب وأعلنت أنه من الواجب أن يلاحظ الإنسان سلوك الخدم ما لم يكن مستهتراً بالأخلاق طبعاً .

وقالت «إيما» : من أي عالم أنت؟ قالتها مع نظرة بلغت من الوقاحة حداً دفع السيدة بوفاري الأم إلى أن تسأل زوجة ابنها عما إذا كانت لا تدافع عن حالتها الخاصة .

فقالت السيدة الشابة ، وقد نهضت واثبة : اخرجي .

وصاح «شارل» لكي يصلح بينهما : إيما . . ماما . .

ولكنهما كانتا قد ماجتا بالغضب ، فأخذت «إيما» تقفز وهي تردد : آه يا لها من تربية . . هذه الفلاحة الجلفة !

وجرى نحو أمه التي كانت قد خرجت عن طوقها وأخذت تتمتم : يا لها من وقحة طائشة ، بل ربما كانت أسوأ من ذلك .

وأرادت أن ترحل فوراً ما لم تأت «إيما» لتقدم إليها الاعتذار ، فعاد «شارل» إلى زوجته وأخذ يضرع إليها لكي تتنازل ، وركع على ركبتيه أمامها ، فانتهت بأن قالت : فليكن ، سأذهب إليها .

وبالفعل مدّت يدها إلى أم زوجها في ترفع المركيزة ، وقالت لها : معذرة يا . . سيدتي . .

ثم صعدت «إيما» إلى مخدعها حيث انبطحت على السرير وأخذت تبكي كالطفل وقد دفنت رأسها في الوسادة .

وكانت قد اتفقت مع «رودولف» على أنه إذا جد أمر خطير علقت بمصراع النافذة قصاصة من الورق الأبيض ، حتى إذا كان موجوداً مصادفة في «أيونفيل» أسرع إلى الممر الممتد خلف البيت . وبالفعل علقت «إيما» الشارة ، وبعد أن انتظرت ثلاثة أرباع الساعة لمحت فجأة «رودولف» عند ركن السوق ، فودت لو فتحت النافذة ونادته ، ولكنه كان قد اختفى فانهارت يائسة بائسة .

ومع ذلك فلم تلبث أن خُيل إليها أن أحداً يمشي فوق الرصيف ، فحدثتها نفسها بأنه هو دون ريب ، فنزلت السلم وعبرت الفناء وإذا بها في الخارج تلقي بنفسها بين ذراعيه .

فقال : احذري . .

فقالت : آه . . لو تعلم .

ثم أخذت تقص عليه كل شيء في عجلة وبغير انتظام وهي تبالغ في الوقائع وتخترع الكثير منها وتسرف في الجمل الاعتراضية ، حتى إنه لم يفهم شيئاً ، ولكنه قال : هيا يا ملاكي المسكين . . تشجعي . . عوّدي نفسك على الصبر .

فقالت : لقد مضت أربع سنوات وأنا أصبر وأتألم . . إن حباً كحبنا يجب أن يسفر في ضوء النهار . إنهم يعذبونني ولم أعد أستطيع الاحتمال . أنقذني .

وأخذت تلتصق به وقد امتلأت عيناها بالدموع وبريقهما ينبعث كاللهب ، وأخذ صدرها يلهث في ضربات سريعة ، ولم يشعر نحوها بحب مثلما شعر في هذه اللحظة حتى فقد صوابه وقال لها : «وما الذي يجب أن نفعل؟ ماذا تقترحين؟» .

فصاحت : «خذني . . اختطفني . . أوه إنني أضرع إليك» .وانهالت على شفتيه وكأنها تريد أن تقتنص منه موافقته غير المتوقعة وهي تبحث في قبلة .

فقال «رودولف» : ولكن . . .

ـ ماذا؟

ـ وابنتك؟

ففكرت بضع دقائق ثم قالت : سنأخذها معنا .

فقال وهو ينظر إليها وهي تبتعد : يا لها من امرأة !

وذلك لأنها كانت قد دلفت إلى الحديقة إذ كانوا ينادونها .

•

في الأيام التالية دهشت الأم بوفاري دهشة بالغة من التغيّر الذي طرأ على زوجة ابنها . وبالفعل أصبحت «إيما» أكثر طواعية ، بل وبلغت من التوقير أن طلبت إليها نصيحة في تخليل الخيار .

فهل كان ذلك إمعاناً في خداعها لهما معاً ـ الزوج والأم ـ أم هي لذة الاستشهاد التي تدفعها إلى أن تستشعر ـ في عمق ـ مرارة الأشياء التي ستتخلص منها؟ ولكنها لم تكن تحذر شيئاً . وعلى العكس من ذلك أخذت تعيش كالضالة في اللذة التي تتعجلها من سعادتها القريبة المقبلة . وكان هذا هو الموضوع الدائم لحديثها مع «رودولف» . فهي تتكئ على كتفه وتتمتم : آه عندما تصبح في عربة سفرك . . هل تتصور؟ هل هذا ممكن؟ يخيل إليّ أنني عندما أشعر بالعربة تنطلق أشعر أننا نصعد في بالون ، وكأننا نصعد إلى السحاب . هل تعلم أنني أعد الأيام؟ . . وأنت؟

ولم تكن مدام بوفاري قط جميلة كما كانت في هذه الفترة . فقد كان لها

ذلك الجمال الذي لا يمكن وصفه ، والذي ينبعث عن الغبطة والحماسة والانتصار ، والذي هو انسجام بين المزاج والظروف . فأطماعها وأحزانها ومزاولة اللذة وأحلامها الدائمة الشباب ، قد فعلت فيها ما يفعله السماد والمطر والرياح والشمس في الأزهار فنمت بالتدريج ثم ازدهرت في النهاية واكتملت طبيعتها . وقد أخذ «شارل» يراها كما كانت في أيام زواجه الأولى مغرية لا تقاوم .

وعندما كان يعود في منتصف الليل لم يكن يجرؤ على إيقاظها . وكان مصباح الليل الصغير يعكس على السقف دائرة من الضوء المهتز ، والستائر المغلقة فوق المهد الصغير تكوّن ما يشبه كوخاً أبيض ينتفخ في الظل عند حافة السرير ، و«شارل» ينظر إليها فيخيل إليه أنه يسمع الأنفاس الرقيقة المنبعثة من طفلته التي أخذت تكبر الآن . وكل موسم يؤدي سريعاً إلى تقدم ، حتى لكأنه يراها عائدة من المدرسة عند غروب الشمس ، مشرقة الوجه ، وقد لطخت مريلتها بالمداد ، وعلقت السلة في ذراعها . ثم إنه لا بد من إلحاقها بالقسم الداخلي ، وهذا أمر باهظ التكاليف . فما العمل؟ وعندئذ أخذ يفكر ، وخطر له أن يستأجر مزرعة صغيرة في الناحية يشرف عليها بنفسه كل صباح عند ذهابه لعيادة مرضاه ، وذلك لكي يدخر دخلها ويضعه في صندوق الادخار ، ثم يشتري أسهماً من أية جهة حسبما اتفق ، كما أن الزبائن سوف يزداد عددهم . وقد عول على ذلك لأنه كان يريد أن يربي «بيرت» تربية طيبة ، وأن ينمي عندها المواهب فتتعلم البيانو . . آه كم ستكون جميلة فيما بعد ـ في الخامسة عشرة من عمرها عندما تشبه أمها ـ فتلبس مثلها في الصيف قبعات كبيرة من الخوص ، فيحسبهما الناس عن بعد أختين . وتصورها وهي تعمل في المساء إلى جوارهما تحت ضوء المصباح ، حيث تطرز له خفاً ، وتعنى بأمر المنزل وتملؤه كله بظرفها ومرحها . وأخيراً سيفكران في استقرارها ، فيعثران لها على شاب صالح ذي مركز متين فيسعدها وتدوم تلك السعادة .

ولم تكن «إيما» نائمة عندَ ذلك ولكنها كانت تتظاهر بالنوم . وعندما كان

يغفو إلى جوارها كانت تستيقظ في أحلام أخرى . ومع ذلك فإن هذا المستقبل الحُلم الذي استحضره الخيال لم ينبعث عنه شيء نادر متميز . فالأيام تتشابه رائعة كالموج ، وأخذ كل هذا يتأرجح في الأفق اللانهائي المنسجم الضارب إلى الزرقة والمغطى بالشمس . ولكن الطفلة أخذت تسعل في مهدها وبوفاري يزداد شخيره و«إيما» لم تنم إلاّ عند الصباح عندما ألقى الفجر ضوءه الأبيض على الزجاج ، وأخذ جوستان الصغير يفتح مصاريع الصيدلية في الميدان .

وكانت قد استدعت السيد «ليريه» وقالت له : «إنني سأحتاج إلى معطف . . معطف كبير مبطن ذي ياقة طويلة» .

فسألها قائلاً : هل ستسافرين في رحلة؟

فقالت : «لا . . ولكن . . لا عليك ـ إنني أعتمد عليك ـ أليس كذلك؟» . فانحنى . .

واستأنفت قائلة : وسأحتاج أيضاً إلى حقيبة كبيرة . . ليست مفرطة الثقل . . عملية .

قال : نعم . نعم . لقد فهمت . .

وأضافت : «ومعها حقيبة لليل» .

ففكر «ليريه» في نفسه قائلاً : «قطعاً إن في الأمر سراً» .

وقالت مدام بوفاري وهي تنزع ساعتها من حزامها : «ثم خذ هذه لكي تقتطع منها الثمن» .

ولكن التاجر صاح بأنها مخطئة ، فهو يعرفها ولا يمكن أن يشك فيها ! فما هذا الصغار؟ ولكنها مع ذلك ألحت لكي يأخذ على الأقل السلسلة . وكان «ليريه» قد وضعها في جيبه وأخذ ينصرف عندما نادته لتقول له : إنك ستحتفظ عندك بكل شيء .

ثم فكرت قليلاً وأضافت : وأمّا عن المعطف فإنك لن تحضره أيضاً إلى هنا ، ولكنك ستعطيني عنوان العامل وتنبهه إلى أن يحتفظ به إلى حين أطلبه .

وكان من المقدر للعشيقين أن يهربا في الشهر المقبل ، فيسافرا من «أيونفيل» وكأنهما ذاهبان لقضاء بعض الحاجات في «روان» ، ويكون «رودولف» قد

حجز أماكن وأعد جوازات السفر ، بل وكتب إلى باريس لكي يستأجر العربة كلها إلى «مرسيليا» حيث يستأجران عربة خفيفة يتابعان السير فيها دون توقف على الطريق المؤدي إلى «جنوة» . وكانت قد رتبت الأمر بحيث ترسل حقائبها إلى «ليريه» حيث تحملها «العصفورة» رأساً ، وحيث لا يخامر الشك أي إنسان . وفي كل هذا لم يعرض قط مصير الطفلة ، وكان «رودولف» يتجنب الحديث عنها لأن «إيما» لم تفكر فيها .

وكان يود أن يحتفظ بمهلة أسبوعين لكي ينتهي من بعض الإجراءات . ولم تمض ثمانية أيام حتى طلب خمسة عشر يوماً أخرى ، ثم ادعى أنه مريض ، وبعد ذلك سافر في رحلته . ومر شهر آب/ أغسطس ، وبعد كل هذه التأجيلات قررا نهائياً أن رحيلهما سيكون في يوم الاثنين ٤ أيلول/ سبتمبر .

وأخيراً حل يوم السبت السابق ليوم الرحيل .

وجاء «رودولف» في المساء مبكراً عن عادته فسألته قائلة : هل أعِدَّ كل شيء؟

ـ نعم .

ثم دارا حول حوض من الزهور ، وذهبا ليجلسا إلى جوار الشرفة على حافة الحائط .

قالت «إيما» : «أنت حزين» .

ـ لا . . لماذا؟

ومع ذلك أخذ ينظر إليها في حنان نظرة غريبة .

فاستأنفت قائلة : هل ذلك لأنك سترحل وتترك مواضع حبك وحياتك؟ . . آه . . إنني أقدر ذلك . . ولكنني أنا ليس لي شيء في العالم . . أنت كل شيء بالنسبة إلي . . ولذلك سأكون كل شيء بالنسبة إليك . . سأكون لك أسرة ووطناً وسأعنى بأمرك وسأحبك .

فقال وهو يضمها بين ذراعيه : يا لك من ساحرة .

فقالت وهي تضحك في نشوة : أهذا صحيح؟ هل تحبني؟ أقسم بذلك إذاً .

ـ هل أحبك؟ هل أحبك؟ بل إني أهيم بك يا حبيبتي .

وامتد الليل العذب من حولهما ، ورقاع من الظلال تلف أوراق الشجر ، وأسبلت «إيما» جفونها وأخذت تنشق ـ في تنهدات كبيرة ـ النسيم الرطب الذي يهب . لم يتحادثا ، إذ كانا غارقين في فيض من الأحلام . وعادت إلى قلبيهما عذوبة الأيام الماضية ، فياضة صامتة كالنهر المنساب مع كل تلك الرخاوة التي يثيرها عطر الأزهار ، فعكست في ذكرياتهما ظلالاً أكثر أسىً وعتواً من ظلال أشجار الصفصاف الساكنة الممتدة فوق الحشائش . وكثيراً ما كانت إحدى دواب الليل كالقنفذ أو أم عرس تأخذ في الطرد فتحرك الأوراق ويسمع من وقت إلى آخر صوت خوخة ناضجة تسقط من الخميلة .

وقال «رودولف» : آه . . يا له من ليل جميل !

فقالت «إيما» : ستكون لنا ليال أخرى .

وأضافت وكأنها تحدث نفسها : «نعم ، ما أجمل الأسفار ، ومع ذلك فما هو هذا الحزن الذي في قلبي . . أهو الخوف من المجهول؟ . . وأثر العادات التي نتخلى عنها . . أم أن . . .؟

لا . . إنه فرط السعادة . . يا لي من ضعيفة . . أليس كذلك؟ . . اعذرني» .

فصاح : «إن الأمر لا يزال بأيدينا . . فكري . . فلربما ندمت» .

فقالت في عنف : «أبداً» .

ثم أضافت وهي تقترب منه : «أية كارثة يمكن أن تحل بي؟» . . ليست هناك صحراء ولا هاوية ، ولا محيط لا أعبره معك . . وما دمنا سنعيش سوياً فلن تكون الحياة بالنسبة إلينا سوى عناق يزداد مع الأيام قوة وكمالاً . . ولن يقلقنا شيء . . فلا هموم ولا عقبات وسوف نخلو لأنفسنا وحدنا إلى الأبد . . تكلم إذاً . . أجبني» .

وكان يجيبها على فترات منتظمة : «نعم . . نعم . . » وكانت قد مرّرت أصابعها في شعره وأخذت تردد بصوت صبياني بالرغم من الدموع الغزيرة

التي تساقط : «رودولف . . رودولف . . آه رودولف . حبيبي . . رودولف» .

ودقت الساعة نصف الليل .

فقالت : «نصف الليل . . هيا . إنه الغد ، إنه يوم آخر» .

ونهض لكي يرحل ، وكأن هذه الحركة كانت بدء هربهما ، فبدت «إيما» فجأة في مظهر الفرح وقالت :

ـ لديك الجوازات؟

ـ نعم .

ـ لم تنس شيئاً؟

ـ لا .

ـ متأكد؟

ـ دون شك .

ـ ستنتظرني في فندق بروفانس . . أليس كذلك؟ إنك ستنتظرني عند الظهر؟

فأجاب بإيماءة من رأسه .

وقالت «إيما» وهي تقبله القبلة الأخيرة : إلى غد إذاً .

ونظرت إليه وهو يبتعد .

ولم يلتفت إلى الخلف ، فجرت في أعقابه وانحنت على حافة الماء بين الأعشاب وصاحت : إلى الغد . .

وكان قد عبر إلى الضفة الأخرى من النهر وأخذ يسير مسرعاً وسط المروج .

وبعد بضع دقائق توقف «رودولف» . وعندما رآها في ردائها الأبيض وهي تختفي في الظل شيئاً فشيئاً ، أحس في قلبه من الخفقان ما دعاه إلى أن يستند إلى شجرة لكي لا يسقط . وقال ـ وهو يقسم أغلظ الأيمان ـ : يا لي من مغفل! ولكن لا بأس فقد كانت عشيقة جميلة .

وللتوّ عادت إليه صورة جمال «إيما» ، وجميع لذات ذلك الحب ، فاستشعر

الحنان أول الأمر ، ثم ثار ضدها وهو يقول ويشير بيديه : في النهاية لا أستطيع أن أهجر موطني وأتحمل عبء طفلة .

وكان يقول هذه العبارات كي يشد من عزمه .

وأضاف : ثم هناك الارتباك والنفقات . . آه . لا . . لا . . ألف مرة . . لا . . وإلا كانت حماقة كبرى مني .

•

لم يكد «رودولف» يصل إلى بيته حتى جلس فجأة إلى مكتبه تحت رأس الوعل المعلق على الحائط بين غنائم الصيد ، ولكنه عندما أخذ القلم بين أنامله لم يجد ما يكتبه ، فاتكأ بمرفقيه على المكتب وأخذ يفكر . ولاحت له «إيما» وقد أوغلت في الماضي السحيق ، وكأن القرار الذي اتخذه قد وضع بينهما فجأة فترة شاسعة من الزمن .

ولكي يستعيد شيئاً منها نهض إلى صوان بجوار فراشه واستخرج منه صندوقاً قديماً اعتاد أن يضع فيه الخطابات التي تأتيه من النساء ، فانبعثت منه رائحة تراب وورود ذابلة ، ووقع نظره أولاً على منديل صغير مغطى ببقع باهتة وكان منديلها الذي نزفت فيه يوماً من أنفها في أثناء نزهة . لم يعد يذكر شيئاً من ذلك ، وإلى جواره صورة لها تتخبط في أركان الصندوق . ولاحت له زينتها مسرفة ونظرتها الفضولية سيئة الوقوع . ويطول التأمل في هذه الصورة واستحضار ذكرى صاحبتها اختلطت ملامح «إيما» شيئاً فشيئاً في ذاكرته ، وكأن الوجه الحي والوجه المصور قد احتك أحدهما بالآخر حتى امحى الاثنان . وأخيراً قرأ بعض خطاباتها المليئة بالاستفسارات الخاصة برحلتهما (وهي خطابات قصيرة عملية ملحة كالمكاتبات التجارية) ، وأراد أن يلقي نظرة على الخطابات الطويلة القديمة العهد فانتزع جميع الخطابات الأخرى لكي يعثر عليها في قاع الصندوق ، وأخذ يقلب آلياً في كومة من الأوراق والأشياء حيث اختلطت الباقات وأربطة الساق ، وقناع أسود ودبابيس وخصلات من الشعر .

وهكذا أخذ يفحص ـ وهو يهوّم بين الذكريات ـ الخطوط وأسلوب

الخطابات المتنوعة تنوع تلك الخطوط . لقد كانت عاطفية أو مرحة عابثة أو حزينة . وكان يتذكر من بينها وجوهاً وبعض حركات ونغمات صوت وأحياناً كان لا يتذكر شيئاً .

والواقع أن أولئك النساء اللاتي تزاحمن في ذاكرته كن يتدافعن بعضهن ضد بعض فيصغرن ويهبطن إلى مستوى واحد من الحب يسوّي بينهن . وأخذ يتناول حفنات من هذه الخطابات المختلطة ويلهو لبعض دقائق بأن يتركها تتساقط كالشلال من يده اليمنى إلى يده اليسرى . وأخيراً مل وشعر بالنعاس ، فانصرف حاملاً الصندوق إلى الصوان وهو يقول : يا لها من كومة من المضحكات !

وكانت هذه العبارة خلاصة رأيه ، وذلك لأن اللذات كان قد طال وطؤها على قلبه ، كأطفال المدارس في فناء المدرسة ، حتى إنه لم يعد ينمو في ذلك القلب شيء أخضر . وأولئك اللاتي مررن به كنّ أقل وعياً من الأطفال أنفسهم ، حتى إنهن لم يحرصن كالأطفال على أن ينقشن أسماءهن على الحائط .

وقال لنفسه : هيا فلنبدأ .

وأخذ يكتب «الشجاعة يا «إيما» الشجاعة ! فلست أريد أن أكون سبباً في تعاسة حياتك . .» .

وحدّث «رودولف» نفسه : والواقع أن هذا حق ، فأنا أعمل لمصلحتها كرجل شريف .

«هل قدّرت جيداً عاقبة ما اعتزمت؟ هل تدركين مدى الهاوية التي أسوقك إليها يا ملاكيَ المسكين؟ لا . . أليس كذلك؟ إنك تسيرين واثقة مجنونة مؤمنة بالسعادة في المستقبل . . . آه . يا لنا من تعساء . . حمقى» .

وهنا توقف «رودولف» لكي يجد عذراً مقبولاً .

وقال لنفسه : وماذا لو قلت لها إنني فقدت ثروتي؟ . . آه لا ، هذا لن يمنع شيئاً وسأضطر إلى العودة إلى الموضوع نفسه . وهل من الممكن أن نرد إلى

الصواب مثل أولئك النسوة؟

وفكر ثم أضاف : «إنني لن أنساك ، كوني واثقة من ذلك ، وسأحتفظ لك دائماً بإخلاص عميق ، لكن هذا الهيام سيضعف إن عاجلاً أو آجلاً . فهذا هو مصير المشاعر البشرية ، وقد يتسرب إلينا الملل ، بل ربما يصيبني ذلك الألم الممض الذي سأستشعره عندما تأخذين في الندم الذي قد أشاركك فيه لأنني سأكون سببه . . ومجرد التفكير في الأحزان التي قد تصيبك يعذبني ، فلتنسي يا إيما . لماذا قدّر لي أن أعرفك؟ ولماذا أنت جميلة على هذا النحو؟ هل أنا المخطئ؟ يا إلـهي . لا ، لا ، لا لوم إلاّ على القدر» .

وقال لنفسه : هذه هي الكلمة التي تحدث دائماً الأثر المطلوب .

«آه . لو أنك كنت إحدى أولئك النسوة ذوات القلب العابث على نحو ما نرى ، إذاً لاستطعت أن أقوم بمحاولة لإشباع أثرتي ، دون خطر عليك . ولكن هيامك الممتع الذي هو سر سحرك وعذابك على السواء قد منعك من أن تدركي ـ بالرغم مما أنت أهل له من حب وتقديس ـ ما سوف يكون في وضعنا من شذوذ في المستقبل . وأنا أيضاً لم أفكر في الموضوع في البداية ، بل نعمت في ظل السعادة المثالية التي تشبه شجرة التفاح الأسطورية ذات العصارة السامة الكاوية دون أن أفطن إلى العواقب» .

وقال لنفسه : إنها قد تظن أنني عدلت بسبب البخل . . آه فليكن . . فليكن ، يجب أن أنتهي !

«العالم قاس يا إيما ، وهو سوف يلاحقنا أينما نكون . وقد تضطرين إلى التعرض للأسئلة الحرجة والنميمة والاحتقار وربما للإهانة . . إهانتك . . أوه ، وأنا الذي أريد أن لو أجلستك على عرش ، أنا الذي أحمل ذكراك كتميمة ، وذلك لأنني سأعاقب نفسي بالنفي جزاء ما سببت لك من ألم . إنني راحل ، أين؟ أين؟ لست أدري ! لقد أصبت بالجنون . وداعاً ! كوني دائماً طيبة . احتفظي بذكرى الشقي الذي فقدك ، علمي اسمي لطفلتك لكي تردده مع صلواتها» .

وأخذت ذبالتا الشمعتين ترتجفان ، فنهض «رودولف» لكي يغلق النافذة .

وقال عندما عاد إلى الجلوس : أظن أن هذا هو كل شيء . آه . ولكن هذا أيضاً لكي لا تعود إلى مطاردتي .

«وسأكون بعيداً عندما تطالعين هذه الأسطر الحزينة ، وذلك لأنني أردت أن أهرب بأسرع ما أستطيع لكي أتجنب إغراء العودة إلى رؤيتك . فلنتجنّب الضعف . سوف أعود . وربما تحدثنا سوياً فيما بعد ببرود عن غرامياتنا القديمة ؛ وداعاً» .

وقال لنفسه : والآن كيف أوقع؟ المخلص . . لا . . صديقك؟ . . نعم هو هذا .

«صديقك»

وأعاد قراءة الخطاب فبدا له جيداً .

وحدّث نفسه في حنان قائلاً : يا لها من امرأة مسكينة ! إنها ستظنني أقل إحساساً من الصخر . لقد كان من الواجب أن أسفح فوقه بعض العبرات . ولكنني لا أستطيع أن أبكي ، وليس هذا ذنبي . وعندئذ سكب «رودولف» بعضاً من الماء في كوب وغمس فيه أصبعه ثم أسقط منه نقطة «غليظة» أحدثت بقعة شاحبة فوق المداد . ثم أراد أن يغلق الخطاب فأخذ الختم المنقوشة فوقه عبارة «حبيب القلب» .

ولكنه قال : إن هذا لا يطابق مقتضى الحال . . آه ولكن لا بأس . .

وبعد ذلك دخّن ثلاثة غلايين ثم ذهب لينام .

وفي اليوم التالي ، عندما استيقظ حوالى الساعة الثانية ، إذ كان قد نام متأخراً ، أمر بأن تجنى سلة من المشمش وضع الخطاب في قاعها تحت قليل من ورق العنب ، ثم أمر «جيرار» عامل محراثه بأن يحمل السلة برفق إلى مدام بوفاري . وكان يستخدم هذه الطريقة لمراسلتها فيرسل إليها تبعاً للمواسم الفواكه أو طيور الصيد .

وقال للخادم : إذا سألتك عن أخباري فأجبها بأنني قد سافرت في رحلة ،

ويجب أن تسلم السلة إليها هي ، وأن تضعها بين يديها شخصياً . اذهب وخذ حذرك .

كانت مدام بوفاري عندما وصل «جيرار» إلى منزلها ترتب مع «فيليسيته» ـ على مائدة في المطبخ ـ كومة من الملابس المغسولة .

فقال الخادم : سيدي يرسل لك هذا .

فتملكها شعور بالخوف . وجعلت تبحث في جيبها عن قطعة من النقود وهي تنظر إلى الفلاح بعين شاردة ، بينما كان ينظر هو في دهشة لأنه لم يفهم كيف يمكن لمثل هذه الهدية أن تثير عند إنسان كل هذا الانفعال ، وأخيراً خرج وبقيت «فيليسيته» ولم تعد «إيما» قادرة على الاحتمال ، فأسرعت إلى الصالة كأنما لتحمل إليها المشمش ، وقلبت السلة وانتزعت الأوراق ووجدت الخطاب وفتحته ثم هرولت مذعورة إلى غرفتها وكأن حريقاً هائلاً يلاحقها من الخلف .

وكان «شارل» في الغرفة فلمحته ، وتحدث إليها فلم تسمع شيئاً ، واستمرت تصعد الدرج في سرعة لاهثة ذاهلة قلقة ، وفي يدها دائماً تلك الورقة المروعة التي تقرقع بين أصابعها كقطعة من الصاج . وفي الطابق الثاني وقفت أمام مخزن الغلال الذي كان مغلقاً .

وأرادت عندئذ أن تهدأ ، وتذكّرت الخطاب . وكان لا بد أن تتم قراءته فلم تجرؤ ، فأين وكيف؟ دون أن يراها أحد !

وحدثت نفسها قائلة : آه . . لا . . هنا . . سأكون مطمئنة .

ودفعت الباب ودخلت .

كانت متكئة على إطار النافذة وهي تعيد قراءة الخطاب ، وفي ناصية الشارع انبعث من طابق سفلي صوت يشبه الشخير الحاد ، فقد كان «بينيه» يلفّ مخرطته ، ولكنها كانت كلما ركّزت انتباهها كلما ازدادت أفكارها اختلاطاً ، فكانت تستعيد صورته وتسمع صوته وتطوقه بذراعيها ، وضربات قلبها التي تخفق تحت صدرها ـ وكأنها ضربات عاتية من قرون كبش ـ

أخذت تتتابع سراعاً الواحدة تلو الأخرى في غير انتظام ، وأخذت تلقي من حولها النظرات وبودها لو انهارت الأرض . ولماذا لا تنتهي؟ وما الذي يمسكها عن ذلك؟ إنها حرة . وتقدمت ونظرت إلى الشارع وهي تقول : هيا . . هيا .

وكان شعاع الضوء الصاعد مباشرة من أسفل يجتذب ثقل جسمها نحو الهاوية . وخيل إليها أن أرض الميدان المهتزة ترتفع على طول الجدران ، وأرض الغرفة تميل عند الحافة كالسفينة التي تترنح وهي تغوص في الرمال الطافية وهي ممسكة بالحافة ، وكأنها معلقة ومحاطة بفضاء واسع ، وزرقة السماء تغزوها والهواء يسبح في رأسها الجوفاء ، ولم يكن لديها إلا أن تستسلم وتترك نفسها . ولم يتوقف صوت الخرطة وكأنه نداء صاخب يدعوها .

وصاح «شارل» : زوجتي . . زوجتي .

فتوقفت .

ـ أين أنت؟ تعالي .

وأدت بها فكرة نجاتها من الموت إلى الإغماء من الخوف ، فأغلقت عينيها ثم انتفضت عندما أحست بيد على ذراعيها وكانت يد «فيليسيتيه» التي قالت : إن سيدي ينتظرك يا سيدتي والحساء على المائدة .

وكان لا بد من النزول . . والجلوس إلى المائدة .

وحاولت أن تأكل فكانت اللقم تكتم أنفاسها ، وعندئذ نشرت فوطتها وكأنها تفحص ما بها من ثقوب . وأرادت بالفعل أن تشرع في عد خيوط النسيج . وفجأة تذكرت الخطاب ! هل فقد منها؟ وأين تجده؟ ولكنها لم تعثر قط على سبب لترك المائدة ، ثم إنها أصبحت جبانة . فهي تخاف «شارل» لأنه يعلم كل شيء بلا ريب . . وبالفعل نطق «شارل» بهذه العبارات الغريبة : «يلوح أننا لن نرى السيد «رودولف» قريباً» .

فقالت وهي تنتفض : من قال لك هذا؟

فأجاب بلهجة حادة : من قال لي؟ إنه «جيرار» الذي قابلته منذ هنيهة عند باب القهوة الفرنسية . لقد سافر في رحلة أو هو على وشك السفر .

واختنقت بالعبرات .

فقال : وما الذي يدهشك في هذا؟ إنه يتغيب على هذا النحو من وقت إلى آخر كي يسري عن نفسه . والواقع أني أوافقه وخصوصاً عندما تكون لدى الإنسان ثروة ويكون عزباً ! . . . وفضلاً عن ذلك فصديقنا يلهو كما يحلو له ، وهو مولع بالعبث ـ كما علمت

وصمت مراعاة للياقة حين دخلت الخادمة .

وأعادت الخادمة المشمش الذي كان منثوراً على الرف إلى السلة ، وأمر «شارل» بأن يحمل إليه دون أن يلاحظ الحمرة التي علت وجه زوجته .

ثم أخذ منه واحدة وقضمها وهو يقول : أوه ! مدهش ! خذي ! ذوقي !

ومد السلة نحوها فدفعتها برفق .

فقال وهو يضعها تحت أنفها عدة مرات :

«شمي إذاً . يا لها من رائحة» .

فصاحت وقد نهضت واثبة : «إنني أختنق» .

ولكن بمجهود إرادي اختفى هذا الاختناق .

ثم قالت : «لا شيء . . لا شيء . . إنه طارئ عصبي . اجلس وتناول طعامك» .

وما ذلك إلا لأنها خشيت أن يأخذ في استجوابها والاهتمام بأمرها فلا تترك لنفسها .

وعاد «شارل» إلى الجلوس إطاعة لأمرها ، وأخذ يلفظ في يده نوى المشمش ثم يضعه في طبقه .

وفجأة مرت عربة زرقاء عدواً في الميدان ، فأطلقت «إيما» صرخة ، وسقطت جامدة على الأرض على أم رأسها .

والحقيقة كان «رودولف» بعد تفكير طويل قد قرر أن يسافر إلى «روان» . ولما لم يكن هناك بين «الاهاشيت» و«بوشي» طريق آخر غير طريق «أيونفيل» فقد كان لا مفر من أن يعبر القرية . وكانت «إيما» قد لمحته على ضوء المصابيح الذي كان يخترق ضوء الشفق كالبرق .

وأسرع الصيدلي عندما سمع الضوضاء الذي حدث بالمنزل ، وكانت المائدة قد انقلبت بما عليها من أطباق ، وكانت الصلصة واللحم والسكاكين والملاّحة وزجاجة الزيت منثورة على الأرض ، و«شارل» يستغيث و«بيرت» تصيح رعباً ، و«فيليسيته» تفك بيديها ملابس السيدة التي كانت التشنجات تمتد على طول جسمها .

وحمل الصيدلي من معمله قليلاً من الخل المعطر ، وقال عندما فتحت عينيها وهي تستنشق القارورة : «لقد كنت متأكداً ، فإنه يوقظ الموتى» .

وقال شارل : «حدثينا . حدثينا . استردي جأشك . أنا «شارل» . حبيبك الذي يحبك . هل تدركين من أنا؟ هيا . ها هي ابنتك الصغيرة . قبّليها . .» .

ومدت الطفلة ذراعيها نحو أمها لكي تتعلق بعنقها ، ولكن «إيما» أدارت رأسها وقالت بصوت متقطع «لا . . لا . . لا أريد أحداً» .

وأغمي عليها من جديد فحملوها إلى الفراش . وظلت ممددة فاغرة الفم ، مغلقة الجفنين ، باسطة يديها ، ساكنة شاحبة كتمثال من الشمع .

وخرج من عينيها نهران من الدموع التي انسابت على الوسادة .

وظل «شارل» واقفاً عند طرف المخدع ، والصيدلي إلى جواره صامتاً مفكراً على نحو يليق بالمناسبات الخطيرة .

وقال وهو يضغط ذراع «شارل» : «اطمئن ، فأنا أعتقد أن الأزمة قد مرت» .

وأجاب «شارل» : نعم . . إنها تستريح الآن قليلاً .

قال ذلك وهو يراها تنام ، ثم أضاف : «يا لها من امرأة مسكينة . . . يا لها من امرأة مسكينة . . . ها هي تنتكس» .

وعندئذ سأله «هوميه» كيف حدثت هذه الحادثة ، فأجاب «شارل» بأنها قد سقطت فجأة وهي تأكل المشمش .

فقال الصيدلي : «هذا أمر عجيب ! ولكن من الجائز مع ذلك أن يكون المشمش هو الذي سبب الإغماء ، فهناك طبائع حساسة من ناحية بعض الروائح ، بل إن هذا الموضوع جُدير بالدرس من الناحية الباثولوجية والناحية

الفسيولوجية على السواء ، والقسس يعرفون أهمية هذا الأمر فهم يمزجون دائماً بالعطور في طقوسهم ، وهم يستخدمونها لتخدير العقل وإثارة النشوة ، وهذا أمر يسهل الحصول عليه في الجنس الآخر لأنهن أكثر حساسية من الآخرين ، ولقد قيل إن بعضهن يصبن بالإغماء من القرن الذي يحترق أو رائحة الخبز الطري !» .

وقال بوفاري بصوت خافت : «احذر من أن توقظها» .

واستأنف «هوميه» وهو يبتسم ابتسامة الرضى عن نفسه قائلاً : «وفي هذا ما يدلنا على مدى الاضطراب في جهازنا العصبي . وأما عن السيدة فإنني أعترف أنها قد لاحت لي دائماً مصابة بالحساسية . ولذلك لم أوصك قط أيها الصديق العزيز بأي من تلك العقاقير التي يدّعون أنها تصدم المزاج . لا . . لا عقاقير طفيلية بل نظام للحياة . وهذا كل ما في الأمر . مسكنات وملينّات ومنعشات . ثم هل تظن أنه ربما كان من الضروري إثارة خيالها» .

وقال بوفاري : «بماذا؟ وكيف؟» .

فقال الصيدلي : «آه . . هذا هو السؤال» .

«نعم . هذا هو السؤال . . أو كما قرأت أخيراً في إحدى الصحف . . هذه هي المشكلة» .

ولكن «إيما» صاحت وهي تستيقظ : «والخطاب؟ والخطاب؟» .وظنا أنها تهذي ، وفعلاً أصيبت بالهذيان ابتداء من نصف الليل ، وظهرت عليها أعراض حمى مخيّة .

ولم يغادرها زوجها خلال ثلاثة وأربعين يوماً ، فتخلى عن جميع مرضاه ، ولم يعد يرقد ، بل كان يجس نبضها باستمرار ، ويضع لها اللبخات ومكمدات الماء البارد ، وكان يرسل «جوستان» حتى «نيوشاتل» ليحضر الثلج الذي كان يذوب في الطريق فيرسله ثانية . واستدعى السيد «كانيفيه» ليستشيره ، واستحضر الدكتور «لاريفيير» أستاذه القديم من «روان» ، إذ كان اليأس قد أخذ يساوره . وكان انهيار «إيما» هو الذي يخيفه بنوع خاص ، وذلك

لأنها لم تكن تتكلم أو تسمع شيئاً ، بل ولاح أنها لا تتألم ، وكان جسمها وروحها قد استراحا معاً من كل اضطراب .

وحوالى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر استطاعت «إيما» أن تجلس في الفراش ومن خلفها الوسائد . وبكى «شارل» عندما رآها تأكل أول قطعة من الخبز المغطى بالمربى . وعادت إليها قواها ، فكانت تنهض لبضع ساعات بعد الظهر . وشعرت يوماً بتحسن فحاول أن يحملها على أن تقوم بنزهة في الحديقة مستندة إلى ذراعه . وكان رمل ممرات الحديقة قد اختفى تحت الأوراق الميتة ، فسارت خطوة خطوة وهي تجر خفيها وتستند بكتفها إلى «شارل» وهي ما زالت تبتسم .

وسارا على هذا النحو حتى نهاية الحديقة بالقرب من الشرفة ، فمدت قامتها ببطء ، وظللت عينيها بيدها لكي تنظر . ونظرت إلى بعد سحيق ، ولكن لم يكن ثمة شيء حتى الأفق غير نيران مستعرة تشتعل في الأعشاب وترسل الدخان فوق التلال .

فقال «شارل» : «إنك ستتعبين نفسك يا حبيبتي» . ودفعها برفق لكي تدخل تحت العريشة وقال : «اجلسي على هذا المقعد لكي تستريحي» .

فقالت بصوت متهافت : «أوه . لا . لا أريد أن أجلس هنا . ليس هنا» .

وأصيبت بدوار . ومنذ المساء عاد إليها المرض بأعراض غامضة ، وإن تكن في الواقع أكثر تعقيداً . فهي أحياناً تشكو القلب ثم الصدر والمخ والأطراف ، كما كانت تصاب بقيء ، لمح فيه «شارل» أول أعراض السرطان .

وفوق كل ذلك كان الزوج التعيس يحس بقلق من الناحية المادية .

•

ها هو بداية لا يعرف ماذا يفعل لكي يعوض السيد «هوميه» عن كل تلك الأدوية التي أخذها من صيدليته ، وإنه وإن كان يستطيع كطبيب أن لا يدفع ثمنها ، إلا أنه مع ذلك كان يحمر خجلاً من هذا الدين المتراكم . ثم إن نفقات المنزل قد أصبحت باهظة بعد أن صارت الطاهية سيدة المنزل . فالفواتير تتوالى ، والمتعهدون يتمتمون ، والسيد «ليريه» بنوع خاص أخذ يلاحقه .

والواقع أن هذا الأخير قد انتهز الفرصة عند اشتداد المرض بالزوجة لكي يشحن الفاتورة ، فأحضر المعطف وحقيبة الليل ، وحقيبتي سفر كبيرتين بدلاً من واحدة ، وعدة أشياء أخرى . وعبثاً كان «شارل» يردد أنه لا حاجة به إلى كل هذه الأشياء ، فقد ردّ التاجر ـ في غطرسة ـ بأنها قد طلبتها منه وأنه لن يستردها ، فضلاً عما في ذلك من مضايقة للسيدة في أثناء نقاهتها ، فعلى السيد أن يفكر وأن يتدبّر . وعموماً كان مصمماً على أن يرفع الأمر إلى القضاء للمحافظة على حقوقه بدلاً من أن يسترد بضائعه .

وبعد ذلك بوقت قصير أمر «شارل» بأن ترد إلى دكانه ، ولكن «فيليسيته» نسيت إذ كانت لديها مشاغل أخرى ، ولم يفكر أحد بعد ذلك في ردها . فعاد السيد «ليريه» مطالباً وهو يهدد ويئن طوراً بعد طور ، وظل يحاور ويداور حتى اضطر بوفاري أن يضحي بكتابة كمبيالة تستحق بعد ستة أشهر . ولكنه لم يكد يوقع الكمبيالة حتى خطرت له فكرة جريئة وهي أن يقترض ألف فرنك من السيد «ليريه» ، فسأل في ارتباك عمّا إذا كان من الممكن الحصول عليها ، مضيفاً أنها ستكون لمدة سنة وبالأرباح التي يريدها التاجر . فجرى «ليريه» إلى دكانه وعاد بالنقود ، وأملى كمبيالة أخرى تعهد بوفاري بمقتضاها أن يدفع لأمره في أول أيلول/ سبتمبر المقبل مبلغ ألف وسبعين فرنكاً ، تضاف إلى المائة وثمانين فرنكاً المتفق عليها من قبل ، فيصبح المبلغ ألفاً ومائتين وخمسين . وهكذا أقرض بستة في المائة مضافاً إليها الربع مقابل عمولة ، وذلك فضلاً عن أن البضاعة قد جنى منها ربحاً يساوي الثلث على الأقل بحيث يخرج من الصفقة بربح قدره مائة وثلاثون فرنكاً في اثني عشر شهراً .

بل وكان يأمل أن لا تقف العملية عند هذا الحد ، فلا يستطيع سداد المبلغ ويجدد الكمبيالة فتربى نقوده عند الطبيب وكأنها في دار علاج ، فتعود إليه يوماً وقد اكتنزت وتضخمت حتى ليتمزق منها الكيس .

والواقع أنه كان ناجحاً في كل شيء . فقد رسا عليه مزاد توريد عصير التفاح لمستشفى «نيوشاتل» ، ووعده السيد «جيومان» بعدد من الأسهم في

مناجم تراب النفط في «جرومينيل» ، وكان يحلم بأن ينتظم خط مواصلات بالعربات بين «أرجي» و«روان» ، ولن يطول الزمن عندئذ في شل عربة «الأسد الذهبي» وستكون عرباته الأسرع والأقل أجراً والأكبر حمولة كفيلة بأن تضع كل تجارة «أيونفيل» بين يديه .

وتساءل «شارل» مرات عدة بأية وسيلة يستطيع في العام المقبل أن يسدد كل هذا الدين .

وأخذ يبحث ويتخيّل الوسائل ، كأن يرجع إلى والده ، أو أن يبيع شيئاً . ولكن والده سيصم دونه أذنيه ، وهو ليس لديه شيء يبيعه . وعندئذ أحس من الحرج والارتباك ما دفعه إلى أن يبعد عن تفكيره موضوعاً محضاً كهذا . ولام نفسه إذ أنساه هذا الموضوع «إيما» ، وكأن كل تفكيره رهن تلك المرأة ، وكأنه يسلبها شيئاً إذا لم يفكر فيها باستمرار .

وكان الشتاء قاسياً وطالت بالسيدة النقاهة .

ولكن عندما كان يصحو الجو كانوا يدفعونها في المقعد إلى جوار المدفأة التي تطل على الميدان ، وذلك لأنها أصبحت تبغض الحديقة . وظلت النافذة المطلة عليها مغلقة باستمرار . وودّت لو باعوا الحصان الذي كانت تحبه فيما مضى والذي أصبحت تبغضه الآن . ولاح بأن جميع أفكارها قد اقتصرت على العناية بنفسها ، فكانت تظل في الفراش حيث تتناول وجبات خفيفة ، وتدق الجرس لكي تسأل الخادمة عن النقيع الذي تعده ، أو لكي تتحدث معها .

ومع ذلك أخذ الجليد يعكس من فوق سقف السوق في الغرفة شعاعاً أبيض ساكناً . ثم جاء المطر الذي أخذ يتساقط . وكانت «إيما» تنتظر في لهفة كل يوم تكرر تلك الأحداث الصغيرة المحتومة التي لم تكن مع ذلك تهمها في شيء . وكان أهم تلك الأحداث هو وصول «العصفورة» في المساء .

ومع وصول «العصفورة» كانت صاحبة الفندق تأخذ في الصياح وتجاوبها أصوات أخرى ، بينما يبحث «هيبوليت» عن الحقائب فوق غطاء العربة وفي يده مصباحه الكبير وكأنه نجمةٌ وسط الظلام . وعند الظهر كان «شارل» يعود

إلى المنزل ثم يخرج ثم يتناول طبقاً من الحساء . وحوالى الساعة الخامسة عند الغروب كان الأطفال يعودون من المدارس وهم يجرون أحذيتهم فوق الرصيف ويضربون الواحد بعد الآخر مدقات المنازل بمساطرهم .

وتلك كانت الساعة التي يأتي فيها السيد «بورفيزيان» لرؤيتها . وكان يسأل عن صحتها ويحمل إليها الأخبار ، ويدعوها إلى الدين في ثرثرة صغيرة ناعمة لم تكن تخلو من طرافة .

وكان منظر مسوحه نفسه يشد من عزمها .

وفي يوم اشتد بها المرض حتى ظنت أنها تحتضر ، فطلبت أن تتناول القربان ، وبينما كانوا يعدون العدة بالغرفة لهذا التناول ويضعون المائدة المزدحمة بأنواع العقاقير لتستخدم كمذبح ، و«فيليسيتيه» تنثر الأرض بأزهار الداليا ، إذ «بإيما» تحس بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من آلامها ومن إدراكها وإحساسها ، ويريح جسمها من عبء الفكر ، وابتدأت حياة أخرى ولاح لها أن كيانها الصاعد نحو الله سيفنى في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخاراً .

رشوا الماء المقدس فوق ملاءات السرير ، وأخذ القسيس القربان الأبيض من المزود المقدس ، وانهارت من النشوة الإلـهية وهي تمدّ شفتيها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم إليها ، وانتفخت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكأنها سحب ، والشمعتان تلتهبان فوق المائدة فتلوحان لها هالتي مجد يعشي الأبصار . عندئذ تركت رأسها يسقط ، وقد خيل إليها أنها تسمع في فضاء السماوات أغنية الملائكة على نغمات الأعواد ، وأنها ترى زرقة السماء .

وظلت هذه الرؤية الرائعة في ذاكرتها كأجمل شيء يمكن أن تحلم به ، حتى إنها لتجاهد الآن لكي تسترد الإحساس بها ، ورغم أن الإحساس لا يزال مستمراً ، ولكن على نحو أقل استحواذاً ، وإن يكن بالعذوبة العميقة نفسها . فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح أخيراً في خشوع ، وتتذوق لذة الإحساس بضعفها . وأخذت تتأمل في ذاتها تحطم إرادتها التي أخذت تفتح الباب واسعاً

لفيض من رحمة الله . وهكذا أحست بأنه بدلاً من السعادة توجد مسرات أعظم ، كما يوجد حب فوق كل أنواع الحب الأخرى ، حب لا ينقطع ولا ينتهي ، بل يزداد على نحو دائم . ولمحت بين رؤى آمالها حالة من الطهارة تسبح فوق الأرض وتختلط بالسماء ، هفت إليها روحها ، فودت أن لو أصبحت قديسة ، فاشترت مسابح وحملت تمائم ، وتمنت أن تجد في غرفتها ـ عند مرقدها ـ أيقونة مرصعة بالزمرد لكي تقبلها كل مساء .

وقد دهش القسيس لهذا الاستعداد الذي أبدته ، وإن رأى دين «إيما» يمكن أن ينتهي بالاقتراب من الانحراف أو الإسراف لفرط ما فيه من لهفة . ولكنه لـمّا لم يكن متبحراً في هذه الأمور إذا تجاوزت حداً معيناً ، فإنه كتب إلى السيد «بولار» أمين مكتبة «مونسينيور» لكي يرسل إليه كتاباً قيماً لشخص من الجنس اللطيف ، مليء بالذكاء ، فشحن إليه الأمين خليطاً من كل ما كان شائعاً عندئذ في تجارة الكتب المقدسة ـ شحنها في غير مبالاة ـ وكأنه يشحن كمية من الخردوات للزنوج . وكانت كتيبات صغيرة مكونة من أسئلة وأجوبة ، ونشرات ذات نغمة خشنة ، كتلك التي كتبها السيد «ديستر» وروايات وردية الغلاف ذات أسلوب معسول لفقها قسس متجولون ، أو راهبات نادمات من بينها كتيبات «فكر في هذا جيداً» و«رجل المجتمع عند أقدام مريم» لمؤلفه السيد دي . . . الذي يحمل عدة نياشين و«ضلالات فولتير» موضحة للشبان إلخ .

ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا بعد على نحو تستطيع معه أن تقرأ أي شيء قراءة جدية ، فكانت تقرأ في سرعة مسرفة ، فثارت ضد طقوس الدين ، كما أن غطرسة الكتب الجدلية نفرتها لما فيها من تكالب على مطاردة أناس لم تكن تعرفهم من قبل ، والقصص الدنيوية المطعمة بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة ، ينحيها على نحو غير محسوس عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلاً يؤيدها . ومع ذلك واظبت على القراءة . وعندما كان يسقط من يدها مجلد كانت تظن نفسها مأخوذة بذلك الأسى الكاثوليكي الرفيق الذي تستطيع أن تحسه روح أثيرية .

وأما ذكرى «رودولف» فإنها كانت قد نزلت بها إلى أعماق قلبها ، حيث بقيت في حالة أكثر جموداً وسكوناً من مومياء ملك في تابوت . وكانت تنبعث من هذا الحب الكبير المحنط رائحة تخترق كل شيء ، وتعطر بالحنان جو الطهارة الذي أرادت أن تعيش فيه . وعندما كانت تركع على ركبتيها فوق المصلى القوطي كانت توجه إلى الرب العبارات العذبة نفسها التي كانت تهمس بها قديماً لعاشقها وسط ابتهالات الحب المحرم .

واستسلمت عندئذ لأعمال البر المسرفة ، فكانت تحوك الملابس للفقراء ، وترسل الحطب إلى الوالدات . وذات يوم وجد «شارل» عند عودته إلى المنزل ثلاثة صعاليك يتناولون الحساء على مائدة في المطبخ . لقد استرجعت إلى المنزل ابنتها الصغيرة التي كان زوجها قد أرسلها إلى المرضع في أثناء مرض زوجته ، وأرادت أن تعلمها القراءة ، ولم تعد أعصابها تثور مهما بكت ابنتها .

وقد وطدت نفسها على الاستسلام والتسامح الشامل . وأصبحت لغتها إزاء كل شيء مليئة بالعبارات المثالية . فكانت تقول لطفلتها : «هل زال مغصك يا ملاكي؟» .

ولم تجد مدام بوفاري الأم ما تعيبه إلاّ إذا كان الولع المسرف بصنع قمصان للأيتام من الصوف بدلاً من أن تصلح خرق مطبخها . ولكن هذه السيدة الطيبة التي أضنتها الخلافات المنزلية راقها أن تعيش في هذا المنزل الهادئ ، بل واستمرت فيه حتى إلى ما بعد عيد القيامة لكي تتجنب استهتار الأب بوفاري الذي لم يكن يفوته في كل يوم من أيام الجمعة المقدسة أن يشتري المقانق .

وفضلاً عن صحبة أم زوجها ، التي كانت تقوي إيمانها قليلاً بفضل استقامة آرائها ووقار حركاتها ، كانت «إيما» تحظى كل يوم بصحبة أخريات مثل مدام «لانجلوا» ومدام «كارون» ومدام «ديبوي» ومدام «تيفاش» والسيدة الممتازة مدام «هوميه» التي لم ترد قط أن تصدق شيئاً من الشائعات التي انتشرت عن جارتها ، فكانت تصاحبها بانتظام بين الساعة الثانية والخامسة . وكان أطفال «هوميه» يأتون أيضاً لرؤيتها في صحبة «جوستان» الذي كان يصعد معهم إلى

الغرفة ، حيث يقف إلى جوار الباب ساكناً صامتاً . بل وكثيراً ما كانت مدام بوفاري تغفل عن وجوده فتأخذ في إعداد زينتها وتبدأ بسحب مشطها وهي تهز رأسها بحركة عنيفة . وعندما رأى لأول مرة كل هذا الشعر الذي ينزل حتى ركبتيها في حلقات سوداء كان هذا المنظر بالنسبة إلى الفتى المسكين بمثابة دخول مفاجئ في شيء خارق جديد أخافته روعته .

ولا شك أن «إيما» لم تلاحظ تلطفاته الصامتة ولا تهيّبه ، ولم يخطر ببالها قط أن الحب ـ الذي اختفى من حياتها ـ ينبض هنا إلى جوارها تحت هذا القميص المصنوع من القماش السميك ، وداخل هذا القلب اليافع المتفتح لنداءات جمالها . فقد أصبحت الآن تغلف كل شيء بغلاف سميك من عدم المبالاة ، فعباراتها مليئة بالعاطفة ، ونظراتها بالترفع ، وحركاتها بالتفاوت ، حتى لم يعد من الممكن تمييز الأثرة عن محبة الغير ، والفساد عن الفضيلة . فذات مساء مثلاً غضبت من خادمتها التي طلبت منها أن تسمح لها بالخروج وأخذت تتمتم باحثة عن عذر .

وفجأة قالت : «أنت تحبينه إذاً» .

ودون أن تنتظر جواباً من «فيليسيته» ، التي احمرت خجلاً ، أضافت في نغمة حزينة : «هيا انطلقي . . تمتعي» .

وفي أوائل الربيع قلبت الحديقة رأساً على عقب بالرغم من ملاحظات بوفاري . ومع ذلك فإن هذا الأخير كان سعيداً بأن يراها تبدي إرادة ما . وأخذت هذه الإرادة تزداد كلما تقدمت في استعادة عافيتها .

فابتدأت بأن وجدت وسيلة لطرد الأم «روليه» المرضع التي كانت قد اعتادت في أثناء نقاهتها أن تتردد كثيراً على المطبخ ومعها رضيعاها وربيبها ، والذي كانت أسنانه أحد من أسنان آكلي لحوم البشر . ثم تخلصت من أسرة «هوميه» ، كما أخذت تتخلص من جميع الزيارات الأخرى ، بل إنها أخذت تخفف من مواظبتها على الكنيسة ، ما حظي بموافقة الصيدلي المطلقة ، إذ قال لها في نغمة ودية : «إنك مخدوعة قليلاً بالمسوح» .

والواقع أنّ الصيدلي نصح شارل بأن يذهب بامرأته إلى المسرح في «روان» لكي يرفه عنها بسماع المغني الشهير «لاجاردي» وقال له : «صدقني ، خذ السيدة إلى المسرح ، ولو لم يكن في ذلك إلاّ إثارتك مرة في حياتك لأحد هؤلاء الغربان القساوسة . والله ، لو استطاع أحد أن يحل محلي ، لصحبتكما بنفسي . أسرعا فإن «لاجاردي» لن يغني غير ليلة واحدة ، وقد ارتبط في إنكلترا بأجور ضخمة ، فهو فيما يقولون «غس» ماهر ! يتقلب فوق الذهب ، أو هو يصطحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! إن هؤلاء الفنانين الكبار يحرقون الشمعة من طرفيها ، وهم في حاجة إلى حياة متهتكة لكي يثيروا خيالهم قليلاً ، ولكنهم يموتون في المستشفى ، وذلك لأنهم لم يفطنوا في شبابهم إلى أن يدخروا شيئاً ! هيا ! هنيئاً مريئاً ! وإلى الغد !» .

وهكذا لم تلبث فكرة المسرح أن رسخت بسرعة في رأس بوفاري ، فقد بادر فأخبر بها امرأته ، التي رفضت في أول الأمر متعللة بالتعب والمشقة والتكاليف ، ولكن «شارل» على غير عادته لم يرضخ ، وذلك لشدة إيمانه بأن هذا الترويح سيفيدها كثيراً . ولم يكن هناك أي عائق ، فقد أرسلت إليهما أمه ثلاثمائة فرنك لم يكونا يتوقّعانها ، والديون الجارية لم تكن جسيمة ، وموعد استحقاق كمبيالتي «ليريه» لا يزال بعيداً ، بحيث أنه لم يكن هناك مجال للتفكير فيها ! ولما كان «شارل» يظن أن امرأته غير متحرجة ، فقد أخذ يزداد إلحاحاً ، حتى انتهى الأمر بأن وافقت تحت تأثير إلحاحه . وفي اليوم التالي سافرا في الساعة الثامنة في «العصفورة» .

وتنهّد الصيدلي الذي لم يكن هناك ما يستوجب بقاءه في «أيونفيل» ، ولكنه اعتقد مع ذلك أنه مضطر إلى عدم مغادرتها ، وقال وهو يراهما مسافرين : «هيا ـ رحلة سعيدة ! يا لكما من محظوظين !» .

ثم وجه الحديث إلى «إيما» التي كانت تلبس ثوباً من الحرير الأزرق بمراوح أربع قائلاً : «إنني أراك جميلة كإلـهة الحب ولسوف يشرق ضياؤك في روان !» .

وتوقفت «العصفورة» عند فندق «الصليب الأحمر» في ميدان «بوفوازين» ، وكان من تلك الفنادق التي توجد في قرى الريف ، وبها حظائر واسعة ، وغرف نوم ضيقة . وفي فنائها يشاهد الدجاج وهو يلتقط الشوفان تحت عربات المندوبين التجاريين الملطخة بالأوحال . . .

وأخذ شارل يعمل فوراً . . فذهب إلى المسرح وكان يخلط بين الصالة والمقاصير ، وبين البناوير واللوجات ، وطلب إيضاحات ولكنه لم يفهمها ، فأرسله المراقب إلى المدير . وعاد إلى الفندق ثم ارتد إلى المكتب ، وهكذا جاب المدينة من أقصاها إلى أدناها عدة مرات من دار المسرح إلى الطريق العام .

واشترت السيدة قبعة وقفازاً وباقة زهر . وأمّا السيد فقد كان يخشى كثيراً أن يتأخر عن بدء المسرحية ، فلذلك لم يجد الوقت الكافي لكي يزدرد حساءه ووصل الاثنان أمام أبواب المسرح التي كانت لا تزال مقفلة .

•

كان النظّارة واقفين بإزاء الحائط ، وقد تجمعوا في مجموعات متقابلة بين حواجز الشرف ، وعلى ناصية الشوارع المجاورة كانت توجد إعلانات ضخمة كتبت عليها بأحرف كبيرة عبارات «لوسي دولامرمور . . . . . . لاجاردي . . . . . . أوبرا . . . . . . إلخ» .

كان الجو صحواً حاراً ، والعرق يتصبب من الوجوه ، والمناديل المنشورة تجفف الجباه الحمراء ، وأحياناً تهب ريح فاجرة من النهر فتهز في رفق حافة مظلات القماش المعلق فوق أبواب المقاهي . ومع ذلك فعلى مسافة قريبة كان يسري تيار منعش من الريح الثلجية تفوح منه رائحة الشحم والجلد والزيت ، وتلك كانت رائحة شارع العربات المليء بحوانيت كبيرة يدحرجون فيها البراميل .

وأرادت «إيما» أن يتمشيا قليلاً على رصيف الميناء للنزهة وتمضية الوقت ، حتى لا يلوحان مضحكين وهما ينتظران أمام أبواب المسرح التي لا تزال

مغلقة . وأمسك «شارل» على سبيل الاحتياط بالتذكرتين في يده داخل جيب سرواله الذي ضمه إلى بطنه .

وخفق قلبها منذ دلفت إلى الردهة ، وابتسمت ابتسامة غير إرادية من الغرور عندما رأت الجمهور يتدافع على اليمين في المشاة الأخرى ، بينما صعدت هي سلالم الدرجة الأولى . وكانت تجد سروراً كسرور الأطفال عندما تدفع بأصبعها الأبواب الواسعة المبطنة باللباد ، وكانت تستنشق بملء رئتيها رائحة النعال المعبأة بالغبار ، وعندما جلست في مقصورتها شدت جسمها في غطرسة المركيزة .

راحت الصالة تمتلئ ، واستلت هي النظارة من جرابها ، وأخذ المشاهدون يلمح بعضهم بعضاً عن بعد ويتبادلون التحية ، وقد أتوا ليتلهوا بالفنون الجميلة عن قلق التجارة ، ولكنهم لم ينسوا الأعمال قط ، فكانوا لا يزالون يتحدثون عن القطن والخمور . . وكانت ترى رؤوس العجائز المسالمة الخالية من كل تعبير وكأنها ميداليات من الفضة أطفأ بريقها بخار الرصاص ، والشبان المرد يشرقون في الصالة ناشرين من فتحات صداراتهم الرقبة الوردية أو التفاحية الخضراء .

وكانت مدام «بوفاري» تعجب بهم من أعلى ، وهم يقبضون بقفازاتهم الصفراء على كرات عصيّهم المذهبة .

وأنيرت مصابيح الأوركسترا ، وتدلت الثريا من السقف فانساب من بلورها نور ، ناشراً بهجة مفاجئة في الصالة ، ثم دخل الموسيقيون بعضهم خلف بعض ، وسمع أولاً ضوضاء من شخير الفيولونسل ، ثم صراخ الكمان ، وضجة البوق ، ونوح الناي والمزمار . ولكن لم تلبث أن سمعت ثلاث دقات على المسرح ، وأخذت الطبول تدق ، وعزفت الآلات النحاسية بعض الأنغام ، وعندما ارتفعت الستارة كشفت عن منظر طبيعي .

كان ملتقى طرق في غابة وعلى اليسار نافورة ماء تظللها شجرة بلوط ، وفلاحون ، ونبلاء يحملون معاطفهم فوق أكتافهم ، وقد أخذوا يغنون جميعاً

إحدى أغنيات الصيد . ثم ظهر ضابط وأخذ يبتهل إلى ملاك الشر رافعاً ذراعيه إلى السماء ، فظهر شخص آخر ثم اختفيا ، واستأنف الصيادون غناءهم .

وأحست «إيما» بنفسها من بين قراءات الشباب وسط قصص «ولتر سكوت» ، وخيل إليها أنها تسمع من خلال الضباب صوت القرب الإسكتلندية ، وهو يتردد بين الأعشاب الملتفة . والواقع أن ذكريات القصة سهلت لها فهم الأوبريت فتابعت القصة عبارة بعد عبارة ، وذلك بينما كانت الخواطر الخفية التي تعود إليها لا تلبث أن تتبدد تحت أمواج الموسيقى ؛ وأخذت تترنح مع هدهدة الأنغام ، وأحست بكيانها كله يهتز وكأن قوس الكمان يمر فوق أعصابها ، ولم تكفها عيناها لكي تتأمل الملابس والديكور والأشخاص والأشجار الملونة التي كانت تهتز عندما يسير الممثلون فوق المسرح ، والمعاطف وملابس الممثل والجراب وكل هذه الرؤى التي كانت تتحرك في انسجام الموسيقى وكأنها في جو من عالم آخر . ولكن امرأة شابة تقدمت وهي تقذف ببدرة من النقود إلى فارس أخضر الثياب وبقيت وحدها ، وعند ذلك سمع ناي يحدث نغماً كأنه خرير نافورة أو زقزقة عصفور ، وغنت «لوسي» مذهباً في نغمة جادة من «الصول ماجير» ، كانت تشكو الغرام وتتمنى جناحين ، وكذلك «إيما» كانت تود أن تهرب من الحياة لتطير في عناق ، وفجأة ظهر «إدغار لاجاردي» .

كان في شحوب رائع يوحي بعظمة الرخام التي تبدو على تلك الأجناس المارة من سكان الجنوب ، وكان صدره القوي مشدوداً في صدار بني اللون ، وخنجر صغير منقوش يصطك بفخذه الأيسر وهو يقلب نظرات ولهانة ويكشف عن أسنانه البيضاء .

ويروون أن أميرة بولندية سمعته ذات مساء وهو يغني على شاطئ «بيارتز» حيث كان يعمل في القوارب ، فأغرمت به وفقدت ثروتها بسببه ، ثم تخلى عنها بسبب نساء أخريات . وقد ساهمت هذه الشهرة الغرامية في شهرته الفنية .

بل وكان هذا الممثل الخبيث يحرص دائماً على أن يزج في إعلاناته عبارة شعرية عما في شخصه من سحر وفي روحه من حساسية . وبحنجرة قوية وجرأة ثابتة ، وحرارة أكثر من ذكاء ومبالغة أكثر من عاطفة شعرية ، استطاع هذا المهرج أن يرفع من طبيعته التي كان فيها شيء من طبيعة الحلاق ومصارع الثيران .

وقد أثار الحماسة منذ الشهر الأول وهو يضم «لوسي» بين ذراعيه ويتركها ثم يعود إليها وقد لاح عليه أنه بائس . كانت تنطلق منه انفجارات الغضب وحشرجة الأنين في حنان لا حد له .

والنغمات تنطلق من عنقه العاري مليئة بالتنهدات والقبلات ، وكانت «إيما» تنحني لكي تراه وهي تخدش بأظفارها مخمل المقصورة ، وأخذت تملأ قلبها بالنحيب المنغم الذي استرسل مع صوت «الكنترباص» ، وكأنه صيحات غرقى في ضجيج العاصفة . ووجدت فيه صدى لكل ذلك الثمل واللهفة اللذين أوشكا أن يقتلاها ، وكان صوت المغنية يلوح لها ترجيعاً لمكنون نفسها ، بل ولاحت لها كل هذه الرؤية جزءاً أصيلاً من حياتها .

ولكن أحداً في الدنيا لم يحبها مثل هذا الحب ، فهو لم يبك كإدغار في العشية الأخيرة عندما تبادلا عبارة : إلى الغد . . إلى الغد .

واهتزت القاعة بعبارات الاستحسان ، واستعيدت الخاتمة كلها ، وتحدث العشيقان عن أزهار قبرهما ، وعن العهد والفراق والقدر والآمال . وعندما نطقا بالوداع الأخير ، أطلقت «إيما» صيحة حادة اختلطت برنين آخر النغمات الموسيقية .

وتساءل بوفاري : لماذا يضطهدها هذا النبيل بهذه الطريقة؟

فأجابت «إيما» : لا . . إنه عشيقها .

فقال «شارل» : «ومع ذلك يقسم بأنه سينتقم من أسرتها ، بينما الآخر الذي ظهر من هنيهة كان يقول ، «إني أحب «لوسي» وأظن أنها تحبني» ، كما أنه انصرف مع أبيها وكل منهما يتأبط ذراع الآخر ، لأنه أبوها ـ أليس كذلك؟

ذلك الرجل القصير القبيح الذي يضع ريش ديك في قبعته؟

وبالرغم من تفسيرات «إيما» منذ بدء الحوار الذي عرض فيه «جيلبير» حيله الآثمة على سيده «أشتون» ، فإن «شارل» عندما رأى خاتم الخطوبة الكاذبة التي انخدعت بها «لوسي» اعتقد أنها كانت تذكار حب مرسل من إدغار ، وإن يكن قد اعترف بأنه لم يفهم القصة بسبب الموسيقى التي أساءت كثيراً إلى الحوار .

وقالت «إيما» : «فليكن . اسكت» .

فقال وهو ينحني فوق كتفها : «إنني فقط أحب أن أفهم كما تعلمين» .

فقالت وقد نفد صبرها : اسكت . . اسكت .

وكانت «لوسي» تتقدم ونساؤها يسندنها نصف إسناد ، وفي شعرها تاج من أغصان البرتقال ، ووجهها أكثر شحوباً من حرير ثوبها الأبيض ، فأخذت «إيما» تحلم بيوم زواجها وقد تصورت نفسها هناك وسط حقول القمح على الطريق الصغيرة ، عندما كانوا يسيرون نحو الكنيسة . فلماذا إذاً لم تقاوم كهذه ولم تتضرع مثلها؟

لقد كانت على العكس من ذلك فرحة لا ترى الهاوية التي تتردى فيها . آه . . يا ليتها وهي في نضرة الجمال وقبل التلوث بالزواج وضلال الخيانة الزوجية قد علقت حياتها بقلب كبير صلب ، وعندئذ كانت الفضيلة والحنان والشهوة والواجب تختلط معاً بحيث لا تسقط قط من قمة تلك السعادة . ولكن هذه السعادة كانت بلا ريب أكذوبة متخيلة لكي تنزل اليأس بكل رغبة . فهي الآن تعرف ضآلة الإحساسات التي يبالغ فيها الفن . وهكذا حاولت «إيما» أن تصرف تفكيرها لكي لا ترى في تمثيل آلامها على المسرح إلاّ خيالاً مجسماً يصلح لتسلية العيون ، بل وأخذت تبتسم ابتساماً داخلياً في إشفاق مترفّع ، وذلك عندما ظهر في أقصى المسرح ، تحت باب من المخمل ، رجل يرتدي عباءة سوداء .

وسقطت قبعته الإسبانية عندما قام بحركة ، وبعد ذلك مباشرة ابتدأت

الآلات والمغنون في القطعة السداسية ، وغطى «إدغار» الهائج الغضب على جميع الآخرين ، بصوته الأكثر صفاء ، وقد أخذ «أشتون» يوجه إليه بنغمات عميقة تحدياته القاتلة ، كما أخذت «لوسي» تطلق شكواها الحادة ، بينما أخذ «أرثير» ينغم جانباً بعض الأنغام المتوسطة ، والباريتون الأول يدوي كالأرغون ، وأصوات النساء ترجع عباراته على هيئة جوقة ممتعة . وكانوا يقفون في صف واحد ، وكان الغضب والانتقام والغيرة والرعب والدهشة تنطلق معاً من أفواههم المنفرجة ، فالعاشق المهتاج يشهر سيفه المسلول ، وياقة الدانتيلّا ترتفع وتنخفض تبعاً لحركات صدره ، وهو يذهب يمنة ويسرة بخطى واسعة ، ويقعقع على خشبة المسرح بمهمازه القرمزي المركب في حذائه الطري الذي ينفرج عند ساقه . وخطر لها أنه يحمل بلا ريب حباً لا ينفد حتى يستطيع أن يصب فيه على الجمهور كل هذا الفيض الكبير . واختفت كافة نزعات النقد من نفسها تحت تأثير شاعرية الدور التي أخذت تغذوها ، وانجذبت نحو الرجل بوهم التمثيل ، فحاولت أن تتصور حياته ، تلك الحياة الصاخبة الفريدة الرائعة ، والتي كانت تستطيع مع ذلك أن تحياها لو سمح الحظ فتتعرف أحدهما بالآخر وأحبه . وكانت تستطيع أن تجوب معه أوروبا عاصمة عاصمة ، وأن تشاركه متاعبه ومواضع فخاره ، وأن تلتقط الأزهار التي ترمى إليه ، وأن تطرز بنفسها ملابسه ، وفي كل مساء تلتقي مشدوهة ، وهي جالسة في أحد الألواج خلف الحاجز ذي القضبان الذهبية ، انفجارات عواطف تلك الروح التي لن تغني عندئذ إلاّ لها وحدها ، وهو ينظر إليها من فوق المسرح في أثناء قيامه بدوره . ثم استولى عليها الخجل . . . أن ينظر إليها لا شك في ذلك وثارت بها الرغبة في أن تلقي بنفسها بين ذراعيه لكي تحتمي بقوته ، وكأنه قد أصبح الحب مجسماً ، وأن تقول له بل وتصيح : اختطفني . . خذني . . فلنرحل . . فلك ، لك وحدك كل أشواقي وكل أحلامي .

ونزلت الستارة .

واختلطت رائحة الغاز بالأنفاس ، وزاد هواء المراوح الجو اختناقاً . وأرادت

«إيما» أن تخرج . وكان الجمهور يملأ الممرات فارتمت في مقعدها مختنقة بدقات قلبها . وخشي «شارل» أن تصاب بالإغماء ، فجرى لكي يحضر لها كوباً من نقيع الشعير . ووجد مشقة كبيرة في أن يعود إلى مقعده ، وأخيراً وصل إلى جوار زوجته وقال وهو يلهث : لقد ظننت أنني لن أصل فهناك زحام . . . زحام . . .

ثم أضاف : «احدسي من قابلت هناك؟ . . . السيد ليون . . ليون !» .

ـ ليون؟

ـ هو نفسه . . وسيحضر ليقدم إليك تحياته .

ولم يكد ينتهي من هذه العبارة حتى دخل المقصورة كاتب «أيونفيل» القديم .

ومد يده في غير تكلف وكأنه من الطبقة العليا المهذبة ، ومدت مدام بوفاري يدها آلياً وهي تستجيب بلا ريب إلى جاذبية إرادة أقوى . ولم تكن قد مست تلك اليد منذ أمسية الربيع التي كان ينهمر فيها المطر فوق الأوراق الخضراء ، عندما ودع أحدهما الآخر وهي واقفة عند حافة النافذة . ولكنها تذكرت في سرعة ما يقتضيه الموقف من لياقة ، فنفضت في جهد ما في ذكرياتها من خمول ، وأخذت تتمتم في عبارات سريعة :

ـ آه . . طاب وقتك . . . كيف حالك؟

ـ أنت هنا؟

وصاح صوت من الصالة ، إذ كان الفصل الثالث قد ابتدأ «صه» .

ـ أنت إذاً في «روان»؟

ـ نعم .

ـ ومنذ متى؟

ـ اخرجوا ، اخرجوا!

والتفت إليهما الأنظار فسكتا .

ولكنها منذ تلك اللحظة لم تعد تنصت إلى جوقة الممثلين ومشهد «أشتون»

وخادمه ، وهو ديالوغ غنائي كبير ، كل هذا مر بالنسبة إليها قصياً ، وكأن الآلات قد أصبحت أقل رنيناً والشخصيات أكثر بعداً . وأخذت تتذكر لعب الورق عند الصيدلي ، والنزهة عند المرضع ، والقراءات تحت العريشة ، والخلوات إلى جوار المدفأة ، وكل هذا الحب المستكين الهادئ الطويل المتحفظ الحنون ، الذي كانت مع ذلك قد نسيته . فلماذا يعود إذاً؟ كيف تآمرت المصادفات لكي تعود به إلى حياتها؟ وظل واقفاً خلفها مستنداً بكتفه إلى حاجز المقصورة ، وبين وقت وآخر كانت تحس برعشة من تأثير الأنفاس الدافئة المنبعثة من أنفه إلى شعرها .

وقال وهو ينحني فوقها عن قرب حتى مس طرف شاربه خدها : «هل هذا يروقك؟» .

فأجابت في غير اهتمام : «أوه ! في الحق . . لا ! لا يروقني كثيراً» .

وعندئذ اقترح أن يخرجوا من المسرح ليتناولوا المثلجات في جهة ما .

فقال بوفاري : لا ليس الآن ؛ فلننتظر ، إن شعرها منفوش ، ما يدل على أن المشهد سيكون عنيفاً .

ولكن مشهد الجنون لم يُثر اهتمام «إيما» ، ولاح لها تمثيل المغنية مبالغاً فيه ، وقالت إنها تصيح بصوت أكثر ارتفاعاً مما يجب .

والتفت إلى «شارل» وهي تقول هذه العبارة ، بينما كان هو منصتاً .

فأجاب وهو يتأرجح بين حيرته الواضحة والاحترام الذي يحمله لآراء زوجته : «نعم . . ربما . . قليلاً» .

وقال «ليون» وهو يتنهد :

ـ يا له من جو حار !

ـ هذا لا يحتمل بالفعل !

وسأل بوفاري : هل أنت منزعجة؟

ـ نعم . . إني أختنق . . فلنخرج .

ووضع السيد «ليون» في رفق فوق كتفيها شالها الطويل المصنوع من

الداتيللا ، وهب الثلاثة لكي يجلسوا عند الميناء في الهواء الطلق أمام واجهة أحد المقاهي .

وجرى الحديث أولاً عن مرضها وإن تكن «إما» قد قاطعت «شارل» من وقت إلى آخر ، زاعمة أنها تخشى أن يكون في هذا الحديث ما يضايق السيد «ليون» .

وأخبرهما هذا الأخير بأنه قد أتى إلى «روان» لكي يمضي سنتين في مكتب كبير يتمرس فيه بالأعمال التي تختلف في «نورمانديا» عنها في «باريس» . ثم سأل عن «بيرت» وأسرة «هوميه» والأم «لو فرانسوا» . ولـمّا لم يكن لديهما شيء آخر يقولانه في حضور الزوج فإن الحديث لم يلبث أن توقف .

وكان الناس الخارجون من المسرح يمرحون على الرصيف وهم يدندنون أو ينهقون بملء حناجرهم : «أيها الملاك الجميل» . . أي «لوسي» .

وعندئذ أخذ «ليون» يتفلسف ويتحدث عن الموسيقى . فهو قد رأى «تامبوريني» و«روبيني» و«برسياني» و«جريزي» فضلاً عن «لاجاردي» الذي لا يساوي شيئاً رغم صرخاته العالية .

وقاطعه «شارل» وهو يرتشف في جرعات صغيرة شرابه الممزوج «بالروم» : ومع ذلك فإنهم يقولون إنه رائع كل الروعة في الفصل الأخير وإني لنادم لخروجي قبل النهاية ، وذلك لأنه كان قد أخذ يروقني .

فقال الكاتب : «ومع ذلك فإنهم سيعرضون عما قريب رواية أخرى» .

ولكن «شارل» أجاب بأنهما سيرحلان في الغد .

وأضاف وهو يلتفت نحو زوجته : هذا ما لم تريدي أن تبقي وحدك يا قطتي الصغيرة .

وانتهز الشاب هذه الفرصة غير المتوقعة التي سنحت له ، فغيّر من مناورته وأخذ يمتدح «لاجاردي» في مقطوعته الختامية قائلاً : لونه شيء مميّز جليل !

وعندئذ ألح «شارل» قائلاً : «استعودين يوم الأحد . . هيا . . قرري . . إنك مخطئة في ترددك إذا كنت تحسبين أن هذا قد يفيدك أقل فائدة» .

وفي أثناء ذلك أخذت الموائد تخلو من حولهم ، وجاء خادم ووقف إلى جوارهم في تأدب . وفهم «شارل» فسحب كيسه ، فمنعه الكاتب بذراعه ، بل ولم

ينس أن يترك ، فضلاً عن الثمن ، قطعتين من العملة الفضية رنهما على الرخام .

وتمتم بوفاري قائلاً : «إنني في الواقع غير مرتاح للنقود التي . . .» .

وبدت من «ليون» حركة حفاوة مترفعة ثم قال وهو يتناول قبعته : «اتفقنا . . أليس كذلك . . إلى الغد في الساعة السادسة» .

وصاح «شارل» مرة أخرى بأنه لا يستطيع أن يتغيب أكثر من هذا ، ولكن شيئاً لا يمنع «إما» .

وتمتمت «إما» مع ابتسامة فريدة : «ذلك أنني . . ذلك أنني لا أدري . .» .

فقال «شارل» : «وعلى أية حال فستفكرين ، وأمامنا الليل كله . . .» .

ثم قال لـ«ليون» الذي كان يصاحبهما : «والآن ، ما دمت في مقاطعتنا فإني آمل أن تأتي من وقت إلى آخر لتتناول معنا الغداء» .

فأكد الكاتب أنه لن يتخلف عن ذلك ، كما أن لديه حاجة للذهاب إلى «أيونفيل» بسبب أمر يتعلق بمكتبه .

وافترقوا أمام ممر «سان بلان» عندما كانت الكاتدرائية تدق الحادية عشرة والنصف .

كان «ليون» ، مع دراسته للقانون ، يتردد على مقهى «الشوميير» ، بل وأحرز فيها بعض انتصارات مع الغانيات اللاتي كن يجدنه أنيق المظهر .

وكان أكثر الطلبة احتشاماً ، فهو لا يرسل شعره مسرف الطول ، ولا يبالغ في قصه قصيراً ، ولا يصرف في أول يوم في الشهر نقود الأشهر الثلاثة القادمة ، وهو يحافظ على علاقة طيبة مع أساتذته . وأمّا عن الإفراط فإنه كان يتمنّع عنه سواء بدافع إرادته أو لرهافة حسه .

وعندما كان يجلس ليقرأ في غرفته أو تحت أشجار الزيزفون بحديقة اللكسمبورغ في المساء ، كثيراً ما كان يترك مجموعة القوانين تسقط من يده على الأرض ، وتعود إليه ذكرى «إما» . ولكن هذا الشعور أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، وتجمعت فوقه أطماع أخرى ، وإن يكن قد ظل موجوداً خلال هذه الأطماع ، وذلك لأن «ليون» لم يفقد كل أمل . وكان هناك بالنسبة إليه وعد

غامض يتأرجح في المستقبل كالثمرة الذهبية المعلقة بغصن خيالي موهوم .

فلمّا عاد إلى رؤيتها بعد غيبة ثلاث سنوات ، استيقظت عاطفته ، وخيل إليه أنه لا بد من أن يقرر في النهاية الاستسلام إلى رغبته في تملكها ، فإن حياءه قد تضاءل بحكم مخالطاته الماجنة ، وقد عاد إلى الريف وهو يحتقر كل من لم يحظ بحذاء لامع وهو في إسفلت باريس . ولا شك أن «ليون» المسكين كان يرتعد بلا ريب كأنه طفل أمام باريسية مغطاة بالدانتيلّا في صالون طبيب شهير ذي شخصية وألقاب وعربة خاصة ، ولكن هنا في «روان» ، وعلى الميناء ، وأمام هذا الطبيب الشاب ، كان لا يشعر بأي حرج ، متأكداً مقدماً من أنه سيتألق . والجرأة تتوقف على الأوساط التي يوجد المرء فيها ، فالإنسان لا يتحدث في الدور الأرضي كما يتحدث في الدور الرابع . والمرأة الغنية تبدو كأنها محاطة بكل هذه الأوراق من «البنكنوت» لحماية فضيلتها ، وكأنها درع في بطانة صدرها .

وعندما ترك «ليون» في مساء اليوم السابق السيد والسيدة بوفاري ، أخذ يتبعهما عن بعد في الشارع ، وعندما رآهما واقفين عند فندق «الصليب الأحمر» دار على عقبيه ، وأمضى الليل بطوله في تدبير خطة . وفي اليوم التالي ، دخل ردهة الفندق حوالى الساعة الخامسة مختنق الأنفاس شاحب الوجنتين ، وقد انعقد منه عزم الجبناء الذين لا يقف في سبيلهم شيء .

ردّ خادم قائلاً : «إن السيد ليس هنا» . فلاح له هذا الرد فأل خير ، وصعد ، ولم تضطرب لمقدمه ، وعلى العكس قدمت إليه الاعتذارات لأنهما نسيا أن يخبراه عن الفندق الذي ينزلان فيه .

فقال «ليون» : «أوه لقد حدسته» .

ـ كيف؟

فزعم أنه قد استسلم لغريزته فقادته نحوه ، وأسرع إلى إصلاح سخافته ، فقص عليها أنه قد أنفق صباحه كله في البحث عنها في فنادق المدينة ، الواحد بعد الآخر .

وأضاف قائلاً : «لقد قررت أن تبقي إذاً» .

ـ نعم ، ولقد أخطأت ، فلا يجوز أن يعتاد الإنسان مسرات ليس في طوقه ممارستها ، عندما يكون الإنسان محاطاً بآلاف من الالتزامات .

ـ آه يخيل إليّ . . .

ـ إيه ، لا ، فأنت لست امرأة !

ـ ولكن للرجال أيضاً أحزانهم . . .

وبدأت المناقشة ببعض الأفكار الفلسفية ، وأفاضت «إيما» في الحديث عن بؤس العواطف الأرضية ، والوحدة الدائمة التي يرزح فيها القلب .

ولكي يمنح نفسه أهميته ، أو من باب المحاكاة الساذجة لتلك السوداوية التي أثارت سوداويته ، أعلن الشاب أنه قد أصابه سأم شديد طوال مدة دراسته ، فعلم المرافعات يهيج أعصابه ، ومهن أخرى تستميله ، وأمه لا تمسك عن تعذيبه في كل خطاب . ولأنهما كانا يحددان شيئاً فشيئاً بواعث ألمهما ، أخذ كل منهما يستعذب هذه الثقة المتزايدة خلال الحديث ، ولكنهما كانا يتوقفان أحياناً دون الكشف الكامل لأفكارهما ، ويحاولان عندئذ تصور عبارة يمكن أن تترجم مع ذلك ، فهي لم تعترف بحبها لشخص آخر ، وهو لم يقل إنه كان قد نسيها .

فهو ربما لم يذكر وجبات العشاء التي كان يتناولها بعد الرقص مع الغانيات ، وهي لم تعد تذكر بلا ريب مقابلات العهد الماضي ، عندما كانت تجري في الصباح وسط الأعشاب نحو قصر عشيقها ! وكان ضوضاء المدينة لا يكاد يصل إليهما ، ولاح أن الغرفة صغيرة عن عمد لكي تزيدهما قرباً في خلوتهما . وكانت «إيما» تسند عقصة شعرها إلى ظهر المقعد القديم ، وقد ارتدت معطفاً من القطن المطرز ، وكان ورق الحائط الأصفر يتلوّن من خلفها بأرضيّة مذهبة ، وقد ظهرت في المرآة صورة رأسها ، بالخط الأبيض الذي يفرق شعرها ، وطرفا أذنيها يبرزان من تحت خصلاته .

قالت : «ولكن معذرة . . إني مخطئة ! . . فأنا أصيبك بالسأم بشكاياتي التي لا تنتهي !» .

ـ كلاّ ! أبداً ! أبداً !

فقالت وهي ترفع إلى السقف عينيها الجميلتين اللتين تترقرق فيهما دمعتان :

ـ ليتك تعلم كل ما كنت أحلم به !

ـ وأنا أيضاً؟ ! . . أوه ! لقد قاسيت كثيراً ! . . وكثيراً ما كنت أخرج وأسير وأتسكع على طول شواطئ «السين» ، وأذهل نفسي بضجيج الجمهور ، دون أن أستطيع التخلص من الخيال الذي يلاحقني . وفي أحد الشوارع الكبيرة توجد عند أحد تجار اللوحات صورة إيطالية تمثل إحدى ربات الفن وهي تلتف بقميص وتنظر إلى القمر ، وفوق شعرها المرسل زهرة ، وكان شيء يدفعني دائماً إلى هناك حيث أظل ساعات كاملة . . .

ثم أضاف بصوت مرتعش : «إنها تشبهك قليلاً !» .

وأدارت مدام بوفاري رأسها لكي لا يرى على شفتيها تلك الابتسامة التي شرعت فيها ولم تستطع كبتها .

واستمر يقول : «كثيراً ما كنت أكتب لك خطابات ، ثم أمزقها بعد ذلك !» .

ولم تجب ، واستمر يقول : «لقد كنت أتخيل أحياناً أن مصادفة ستأتي بك ، وكنت أعتقد أني أراك عند منعطفات الطرق ، وكنت أعدو خلف كل عربة يتطاير من بابها شال أو وشاح يشبه وشاحك» .

ولاح أنها مصممة على أن تتركه يتكلم دون أن تقاطعه ، وقد شبكت ذراعيها ، وحنت رأسها وأخذت تنظر إلى كرات خفها ، ومن وقت إلى آخر تحركها حركات صغيرة بأصابع قدمها . ثم تنهدت قائلة : «إنه لمما يثير أشدّ الأسى أن يحيا الإنسان حياة كحياتي لا فائدة فيها . . ولو أنه كان من الممكن أن يستفيد غيرنا من آلامنا لوجد الإنسان إذاً عزاء في فكرة التضحية !» .

وأخذ هو يشيد بالفضيلة والواجب والتضحيات الصامتة ، لأنه هو نفسه في

حاجة ماسّة ـ لا يستطيع إشباعها ـ إلى البذل والتضحية .

وقالت : «كم أود لو كنت راهبة في مستشفى» ! فأجاب : «واأسفاه ! إن الرجال لا يؤدون مثل هذه الرسالات المقدسة ، ولست أرى في أية جهة أية مهنة . . . . إلاّ أن تكون مهنة الطبيب . . .» .

وبهزة خفيفة من كتفيها قاطعته لكي تشكو من مرضها الذي أوشك أن يقتلها ، ويا ليته فعل ! إذاً لما عادت الآن إلى التألم ! وعلى الفور تمنى «ليون» هدوء القبر ، بل كان قد كتب وصيته ذات مساء موصياً بأن يكفن بذلك الغطاء المحلى بالقطيفة ، الذي كان يحتفظ به منها . ذلك لأن هذا هو الوضع الذي كانا يودان أن يكونا عليه !! وقد حدد كل منهما مثله الأعلى ، الذي يريد أن لو طابق الآن بينه وبين حياته الماضية ؛ والواقع أن الكلام يشحذ المشاعر دائماً !

وقالت عندما سمعت حكاية الغطاء : «ولكن لماذا؟» .

ـ لماذا؟

وتردّد قليلاً ثم قال : «لأنني أحببتك حباً مبرحاً !» .

وهنأ «ليون» نفسه هنا إذ تخطى العقبة ، وأخذ يراقب ملامحها بزاوية عينه ! كانت كالسماء عندما تطرد منها السحب هبة ريح ، فانسحبت من عينيها الزرقاوين مسحة الأفكار الحزينة التي كانت تنشر عليهما الكآبة ، وتهلّل وجهها كله بالإشراق .

وانتظر ، فأجابت في النهاية قائلة : «لقد خُيل إليّ ذلك دائماً» .

وعندئذ أخذا يقصان الأحداث الصغيرة التي دفعتهما في تلك الحياة البعيدة التي كانا قد لخصا ـ في كلمة واحدة ـ لذاتها وأحزانها . فتذكر عريشة اللبلاب ، والأثواب التي كانت تلبسها ، وأثاث غرفتها ، ومنزلها كله .

فقال : «وأين هو صبارنا المسكين؟» .

ـ لقد أماته البرد هذا الشتاء .

ـ آه . . كم فكرت فيه ! هل تعلمين أنني كثيراً ما تخيلته على نحو ما كان

عليه فيما مضى ، عندما كانت الشمس تلقي بأشعتها صباح كل يوم من أيام الصيف على خشب النافذة . . . وألمح ذراعيك العاريتين تمران بين الأزهار !

فقالت وهي تمد إليه يدها : «أيها العزيز المسكين !» .

فأسرع «ليون» إلى إلصاق شفتيه بها ثم قال بعد أن استنشق جرعة كبيرة من الهواء :

ـ «لقد كنت بالنسبة إليّ في ذلك الوقت قوة غامضة لا أدرك كنهها ، تأسر حياتي . ففي ذات مرة ، مثلاً ، حضرت عندكم ولكنك لا تتذكرين بلا ريب . . .» .

فقالت : «أتذكر ، استمر !» .

ـ لقد كنت في الردهة في الطابق الأسفل على أهبة الخروج . . . فوق آخر درجة . . بل وأذكر أنك كنت تريدين قبعة محلاة بزهور صغيرة زرقاء . ودون أية دعوة منك ، وبالرغم مني صاحبتك ، ومع ذلك كنت أزداد شعوراً من دقيقة إلى أخرى بحماقتي ! وواصلت السير بالقرب منك وأنا لا أجرؤ على أن أتبعك كما لا أريد أن أتركك . وعندما دخلت دكاناً بقيت في الشارع أنظر إليك من الزجاج ، وأنت تخلعين قفازيك وتعدين النقود على المكتب ، ثم دققت بعد ذلك الجرس ، عند مدام «تيفاش» ، الثقيل الذي أغلق دونك !

وكانت مدام بوفاري تدهش وهي تنصت إليه من أنها قد أصبحت عجوزاً على هذا النحو ، فكل هذه الأشياء التي تستعاد ذكراها الآن بدت أنها توسع من حياتها إذ تعطيها آفاقاً عاطفية شاسعة تعود إليها . وكانت تقول من وقت إلى آخر في صوت خفيض وقد أسبلت جفونها : «نعم ! هذا صحيح ! . . . هذا صحيح ! . . .» .

وسمعا الساعة الثامنة تدقها الساعات المختلفة في حي «بوفوازين» ، المليء بدور الضيافة والكنائس والفنادق الكبيرة المهجورة ، ولم يعودا يتحدثان ، ولكنهما كانا يشعران ـ وهما ينظران أحدهما إلى الآخر ـ بدندنة في رأسيهما ، وكأن شيئاً منغماً قد انطلق من عيني كل منهما نحو الآخر ، واشتبكت

أيديهما ، واختلط في عذوبة هذه النشوة الماضي والمستقبل والذكريات والأحلام ، وأخذت ظلمة الليل تتكاثف فوق الجدران ، وأوشكت أن تختفي في الظلال ألوان لوحات تمثل أربعة مناظر ، ومن خلال شجرة كانت ترى زاوية من السماء السوداء من بين الأسقف المدببة .

ونهضت لكي تشعل شمعتين فوق الصوان ثم عادت إلى الجلوس .

فقال «ليون» : ثم ماذا؟ . . .

وأجابت : «ثم ماذا؟» .

وبينما هو يبحث عن وسيلة يستأنف بها الحوار ، الذي انقطع ، قالت له : «كيف حدث أن أحداً لم يعبّر لي حتى اليوم عن مثل هذه المشاعر؟» .

فصاح الكاتب قائلاً : «إن الطبائع المثالية من الصعب فهمها» . فهو قد أحبها من النظرة الأولى ، وكان الألم يحز في نفسه عندما يفكر في السعادة التي كان من الممكن أن تغمرهما لو أن القضاء ترفق فسمح بلقائهما قبل ذلك وارتبط أحدهما بالآخر برباط لا ينفصم .

فقالت : لقد فكرت في ذلك أحياناً .

فانبرى قائلاً : يا له من حلم !

وأضاف وهو يداعب في رفق الأهداب الزرقاء لحزامها الطويل : وما الذي يمنعنا إذاً من أن نبدأ من جديد؟

فأجابت : لا يا عزيزي . . إنني عجوز وأنت شاب . . . انسني ! ستحبك أخريات . . . وستحبهن !

فصاح : «لسن مثلك !» .

ـ يا لك من طفل ! هيا . . فلنكن عاقلين ! إنني أريد ذلك !

وأوضحت له أسباب استحالة حبهما ، وأن من الواجب أن يظلا كما كانا من قبل في حدود الصداقة الأخوية .

فهل كانت جادة في حديثها هذا؟ لا شك أن «إيما» نفسها لم تكن تعلم . فقد كانت غارقة في سحر الإغراء وضرورة المقاومة . وكانت ـ وهي تنظر

إلى الشاب نظرة حنان ـ تدفع في رفق المداعبات الحيية التي كانت تقوم بها يداه المرتعشتان .

فقال ـ وهو يرتد إلى الخلف ـ : آه ! معذرة ! وتولى «إيما» فزع غامض من هذا الحياء ، الذي كان أكثر خطراً عليها من جراءة «رودولف» عندما كان يتقدم نحوها فاتحاً ذراعيه . ولاح لها أنها لم تر قط رجلاً في مثل هذا الجمال ، لقد كانت الطهارة الممتعة تنبعث من ملامحه . وأسدل أهدابه الطويلة الدقيقة المقوسة واحمرت بشرة خديه النضرة ، فرأت في هذه الحمرة رغبته في شخصها ، وأحست برغبة لا تدفع في أن تحمل إلى هذين الخدين شفتيها ، ثم قالت وهي تنحني نحو الساعة كأنها تستطلع الوقت :

ـ يا إلـهي ! لقد مر بنا الوقت حتى تأخرنا ونحن في ثرثرتنا !

ففهم الإشارة وبحث عن قبعته . . وأضافت :

ـ بل لقد نسيت المسرح ! وقد تركني المسكين بوفاري من أجله خصوصاً ، وكان من المقدر أن يصطحبني إليه مع زوجة السيد «لورموه» المقيم في شارع الجسر الكبير .

وكانت الفرصة قد ضاعت لأنه كان من المقدر أن تسافر في اليوم التالي .

فقال «ليون» : أهذا صحيح؟

ـ نعم !

ـ ومع ذلك فلا بد أن أراك ثانية ، فإن لديّ ما أقوله لك . . .

ـ ماذا؟

ـ شيئاً خطيراً . . جدياً . إيه ! لا . . ثم إنك لن تسافري . . فهذا مستحيل ! إنك لو علمت . . . أنصتي إليّ . . . إنك إذاً لم تفهميني ! إنك لم تحدسي ما بنفسي ! . . .

فقالت «إيما» : «ومع ذلك فأنت بالغ الفصاحة !» .

ـ آه ! هذه النكات ! كفى . كفى ! ارحميني واقبلي أن أراك ثانية . . . مرة . . . مرة واحدة .

ـ ثم ماذا . . .

وتوقفت ثم استأنفت وكأنها تراجع نفسها : أوه ! ليس هنا !

ـ في أي مكان تريدين .

ـ هل تريد . .

ولاح أنها تفكر . . . ثم قالت في نغمة موجزة : «غداً عند الساعة الحادية عشرة بالكاتدرائية» .

فصاح وهو يمسك بيديها اللتين استخلصتهما منه : «سأكون هناك !» .

وكان الاثنان واقفين ، وهو من خلفها ، وأحنت رأسها ، فلم يلبث أن انحنى فوق رقبتها وقبّلها قبلة طويلة ، فقالت وهي تضحك ضحكات صغيرة رنانة بينا تتكرر القبلات : «آه ! إنك مجنون . . . إنك مجنون !» .

وعندئذ أخذ يطل من فوق كتفها ، وكأنه يبحث عن موافقة عينيها اللتين سقطتا عليه مليئتين بعظمة باردة !

وارتد «ليون» ثلاث خطوات إلى الخلف لكي يخرج ، ووقف على العتبة ، ثم همس في صوت مرتعد : «إلى الغد !» .

فأجابت بإيماءة من رأسها ، ثم اختفت كالعصفور في الغرفة المجاورة !

*

في المساء كتبت «إيما» إلى الكاتب خطاباً لا ينتهي ، تتحلّل فيه من الموعد وتقول إن كل شيء بينهما قد انتهى الآن ، وإن سعادته تقتضي ألا يعود إلى لقائها . ولكنها عندما ختمت الخطاب أحست بارتباك شديد ، لأنها لم تكن تعرف عنوان «ليون» .

وقالت لنفسها : «سأعطيه له بنفسي ، فهو سيحضر غداً» .

وفي اليوم التالي فتح «ليون» النافذة ووقف يغني في الشرفة ويلمع حذاءه بنفسه عدة مرات ، وقد لبس بنطلوناً أبيض وحلة خضراء ، وسكب في منديله كل ما لديه من عطور ، ثم جعد شعره ، وعاد فأسبله ، وذلك لكي يزيده رشاقة طبيعية !

ثم قال لنفسه ـ وهو ينظر إلى ساعة الحلاق فيرى أنها التاسعة ـ : «إن الوقت لا يزال مبكراً جداً !» .

وتصفّح صحيفة قديمة عن الأزياء ، وخرج ودخن سيجاراً ، وقطع ثلاثة شوارع ؛ ثم ظنّ أن الوقت قد حان فاتجه في بطء نحو ساحة نوتردام .

واشترى الشاب باقة من الزهور ، وكانت هذه أول مرة يشتري فيها زهوراً لامرأة ! وعندما كان يستنشق عبيرها كان صدره ينتفخ كبرياء ، وكأن هذه التحية التي أعدها لشخص آخر قد ارتدت فتوجهت إليه !

وخشي أن يراه أحد ، فدخل الكنيسة في عزم .

وراح «ليون» يتمشى بوقار إلى جوار الجدران ، ولم تلح له الحياة قط في مثل هذه العذوبة ، فهي ستحضر بعد قليل ساحرة مضطربة ، ترقب النظرات التي تتابعها من خلف ، وقد ارتدت ثوبها ذا الباقات ، ونظارتها الذهبية ، وحذاءها الرفيع ، وكل تلك الأناقات التي لم يسبق له أن رآها !

ولكنها لم تحضر ! وجلس فوق مقعد ، والتقت عيناه بلوح من الزجاج الأزرق رسمت فوقه صورة بحارة يحملون سلالاً ؛ فنظر إلى اللوح طويلاً في انتباه ، وعدّ قشر السمك ، وأزرار أقمصة البحارة ، بينما أخذت أفكاره تحوم باحثة عن «إيما» .

وأخذ خادم القس يشمئز داخلياً من هذا الشخص الذي سمح لنفسه بأن يتأمل في إعجاب الكاتدرائية وحده ! ولاح له سلوكه بشعاً ، وكأنه يسرق منه شيئاً ، ويدنس شيئاً مقدّساً !

ولكن ها هو يسمع حفيف ثوب من الحرير فوق البلاط ، ويرى حافة قبعة وسترة سوداء . . . . . إنها هي ! ونهض وعدا لكي يلقاها !

كانت «إيما» شاحبة تسير بسرعة .

وقالت وهي تمد إليه ورقة : «اقرأ ! أو . . . . لا !» .

وأعادت يدها فجأة لكي تدخل في هيكل العذراء ، حيث جثت على ركبتيها فوق مقعد وأخذت تصلي ! وثار الشاب من تلك النزوة الدينية . ثم

شعر مع ذلك بشيء من اللذة في أن يراها وسط موعد غرامها غارقة ، على هذا النحو ، في الابتهال كأنها إحدى مركيزات الأندلس ! ولكنه لم يلبث أن شعر بالسأم ، لأنها لم تنته من صلاتها .

كانت «إيما» تصلي ، أو على الأصح تحاول أن تصلي ، على أمل أن ينزل عليها من السماء قرار مفاجئ . وركعت قرب المذبح كي تستجلب العون الإلهي وتستنشق عطر الزهور البيضاء المتفتحة في الزهيرات الكبيرة ، وتلقي أذنها لصمت الكنيسة الذي لم يكن له من أثر سوى أن يزيد في صخب قلبها .

ونهضت وهمّت بالخروج ، وإذا بخادم الأسقف يقترب منها بسرعة وهو يقول :

ـ إن السيدة ليست من هنا بلا ريب ، ولكنها تريد أن ترى طرائف الكنيسة .

فصاح الكاتب قائلاً : «لا» .

وقالت هي : «ولم لا؟» .

وذلك لأنها كانت ـ بفضيلتها المهتزة ـ تتعلق بالعذراء والتماثيل والمقابر في جميع المناسبات . ولكي يسيرا في المشاهدة بنظام عاد بهما خادم الأسقف إلى المدخل بالقرب من الميدان ، حيث أشار بعصاه إلى دائرة كبيرة من الأرض المرصوفة السوداء ، خالية من النقوش والزخارف ، ثم قال في عظمة :

ـ هذا هو محيط ناقوس أمبواز الجميل ، الذي كان يزن أربعين ألف رطل ، ولم يكن له مثيل في أوروبا كلها ، وقد مات العامل الذي صبه من الفرح . . .

وقال «ليون» : فلننصرف !

واستأنف الرجل السير ثم عاد إلى هيكل العذراء ، ومدّ ذراعيه في حركة قوية الدلالة ، وفي كبرياء يفوق كبرياء ملاّك الريف ، عندما يطلعونك على عرائش حدائقهم ، قال :

ـ إن هذه البلاطة البسيطة تغطي «بيير دي بريزيه» ، سيد «الفارين» ، و«بريزاك» مريشال «بواتو» وحاكم «نورمنديا» ، الذي مات في معركة

«مونتيريه» في تموز/ يوليو سنة ١٤٦٥!

وأخذ «ليون» يتقزز وهو يعض شفتيه .

واستمر القواس في الشرح والتفصيل وأخذت مدام بوفاري نظارتيها ، و«ليون» ينظر إليها ساكتاً دون أن يحاول أن يقول حتى كلمة واحدة ، أو أن يقوم بحركة واحدة ، وذلك لشدة ما أحس من بأس إزاء هذه المؤامرة المزدوجة من الثرثرة وعدم المبالاة .

واستمر الدليل الكنسي دون أن يتوقف ، ومع استمراره في الكلام ، دفع بهما إلى صومعه مكدسة بالحواجز التي أزاح بعضاً منها ، وكشف عن كتلة من الحجر ، ربما كانت فيما مضى تمثالاً رديء الصنع ، وقال في أنة طويلة : إنه كان يزين فيما مضى قبر «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنكلترا . ولكن «ليون» أخرج بحركة عصبية قطعة بيضاء من جيبه ، وأمسك «إيما» من ذراعها ، فأخذت رجل الدين الدهشة ، ولم يفهم قط هذا السخاء المفاجىء ، بينما ظلت أمام الزائر الغريب أشياء كثيرة تستحق أن تُرى ، ولذلك ناداه قائلاً : «أين أيها السيد ! السهم ! السهم ! . . .» .

فقال «ليون» : «شكراً!» .

وقال خادم الكنيسة : «إن السيد مخطىء! إن طوله أربعمائة وأربعون قدماً ، أي تسعة أقدام أقل من هرم مصر الأكبر ، وهو كله من الحديد الزهرة وهو . . .» .

وأخذ «ليون» في الهرب ، إذ لاح له أن حبه الذي تجمد في الكنيسة منذ ساعتين كالحجارة ، سيأخذ الآن في التبخر كالدخان ، من طريق تلك القصبة المثلومة الصاعدة من القفص المستطيل ، وكأنها مدخنة مثقوبة جاثمة بشكل مضحك على الكاتدرائية .

وسألته «إيما» : «إلى أين نحن ذاهبان؟» .

واستمر «ليون» في السير بخطى سريعة دون أن يجيب . وكانت مدام بوفاري قد غمست بالفعل أصبعها في الماء المقدس ، عندما سمعا خلفهما

نفساً كبيراً لاهثاً يقطعه في انتظام وقع عصاً ، فالتفت «ليون» .

ـ سيدي !

ـ ماذا؟

ورأى أمامه خادم الأسقف حاملاً تحت ذراعه ، ومسنداً إلى بطنه ، حوالى عشرين مجلداً كبيراً كانت عبارة عن الكتب التي تتحدث عن الكاتدرائية !

فتمتم «ليون» وهو ينطلق خارج الكنيسة :

«يا له من مغفل !» .

ورأى طفلاً يلعب في الساحة فقال له : «اذهب وأحضر عربة !» .

فانطلق الطفل كالسهم ، في شارع «كاترفان» وعندئذ بقيا وحيدين لبضع دقائق وجهاً لوجه في شيء من الارتباك .

فقالت في دلال : «آه! ليون! . . . حقاً . لست أدري . . . إذا كان من الواجب . . .

ثم أضافت بنغمة جادة : «هذا غير لائق بتاتاً! . . . ألا ترى ذلك؟» .

فأجاب الكاتب : «ما وجه عدم لياقته؟ . . . إن هذا يحدث في باريس !» .

وجعلتها هذه العبارة تبت في الأمر كأنها حجة لا تدفع .

ولكن العربة لم تصل ، وكان «ليون» يخشى أن تعود إلى الكنيسة !

وأخيراً ظهرت العربة !

وصاح بهما خادم الأسقف الذي كان لا يزال واقفاً : «اخرجا على الأقل من الباب الشمالي لتشاهدا البعث ويوم الحساب والجنة و«الملك داوود» و«المعذبين في نار جهنم» .

وسأل الحوذي : «إلى أين يذهب السيد؟» .

فقال «ليون» وهو يدفع «إيما» في العربة : «إلى حيث تشاء !» .

وانطلقت المركبة الثقيلة في الطريق .

قال صوت منبعث من داخلها : «استمر!» .

فاستأنفت العربة السير . وبمجرد أن غادرت ميدان «لافاييت» انساقت في

الانحدار حتى أوشكت أن تدخل وهي تعدو محطة سكة الحديد .

فصاح الصوت نفسه : «لا ! . . . استمر ! إلى الأمام !» .

وخرجت العربة من السور الحديدي ، وبمجرد أن وصلت إلى الساحة أخذت تخب في رفق وسط أشجار الدردار الضخمة ، فجفف الحوذي جبينه ، ووضع قبعته الجلدية بين فخذيه ، ودفع العربة خارج الطريق المعبّد على حافة الماء ، إلى جوار الحشائش .

وسارت العربة في محاذاة النهر على طريق مرسى السفن المرصوف بالإسفلت الجاف إلى مسافة طويلة من ناحية «أويسيل» ، بعد أن جاوزت الجزر .

ولكنها اندفعت فجأة عبر طريق «كاترمار» و«سوتفيل» و«غراند شوسيه» ، وشارع «أليف» ، ووقفت وقفتها الثالثة أمام حديقة النباتات .

وصاح الصوت في عنف أشد : «استمر في السير !» .

واستأنفت الشوط فوراً ، ثم عادت وأخذت تتسكع دون قصد ولا اتجاه معين ، فرؤيت عند «سان پول» ، وجبل «جارجان» ، و«روجيمار» ، و«ميدان جياربوا» ، وشارع «مالادريريه» ، والمقبرة التذكارية ! ومن وقت إلى آخر كان الحوذي يلقي من فوق مقعده بنظرات يائسة إلى الحانات ، إذ لم يفهم هذا الولع بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين إلى حد لا يريدان معه الوقوف !! ولقد حاول أن يقف أحياناً ، ولكنه كان يسمع فوراً صيحات الغضب تنطلق من خلفه ! وعندئذ كان ينهال بالسوط على الحصانين الهزيلين المتصببين عرقاً ، دون أن يلقي بالاً إلى اهتزازات العربة وهي تميل هنا وهناك وقد اعتل مزاجه ، وأوشك أن يبكي من العطش والتعب والحزن !

وعند الميناء وسط عربات النقل والبراميل ، وفي الشوارع ، وعند المنعطفات ، كان الناس يحملقون بعيونهم دهشة من هذا المنظر الفريد في الريف : منظر عربة ذات ستائر مسدلة ، وقد لاحت باستمرار أكثر إغلاقاً من قبر وهي تهتز كالسفينة .

وذات مرة ، في منتصف النهار ، وفي قلب الحقول ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الشمس أقوى أشعتها فوق المصابيح العتيقة الفضية اللون ، مرت يد عارية من تحت الستائر الصغيرة الصفراء ، وألقت بقصاصات من الورق انتثرت مع الريح ، وتساقطت عن بعد قريب كفراشات بيضاء فوق حقل من البرسيم الأحمر المزدهر !

ثم وقفت العربة حوالى الساعة السادسة في زقاق بحي «بوفوازين» ، ونزلت منها امرأة أخذت تسير مسدلة الخمار دون أن تلتفت إلى الوراء !

•

عندما وصلت مدام بوفاري إلى الفندق أدهشها ألا ترى «العصفورة» فإن «هيفير» بعد أن انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة كان قد رحل .

ومع ذلك فإن شيئاً لم يكن يضطرها إلى الرحيل ، إلا أنها كانت قد وعدت بأن تعود في المساء نفسه ، وكان «شارل» ينتظرها ، كما أنها كانت قد أخذت تشعر في قلبها بذلك الخضوع الجبان الذي يعتبر بالنسبة إلى الكثيرات من النساء بمثابة العقاب ، لتكفر عن الخيانة الزوجية في وقت واحد .

وبسرعة أعدت حقيبتها ودفعت الحساب ، وأخذت عربة من الساحة ، وحثّت الحوذي وشجعته ، وهي تسأل في كل دقيقة عن الساعة ، وعن الكيلومترات التي قطعتها ، حتى تمكنت من اللحاق بـ«العصفورة» عند مشارف قرية «كوينكانبوا» .

وبمجرد أن جلست في مقعدها أغلقت عينيها ولم تفتحهما إلا أسفل الهضبة ، حيث لمحت «فيليسيته» عن بعد ، والتي كانت تقف في مكان بارز أمام منزل البيطار . وشد «هيفير» عنان الخيل ، واشرأبت الطاهية حتى مقبض باب العربة ، ثم قالت في توجّس : «يجب أن تذهبي يا سيدتي فوراً عند السيد «هوميه» من أجل شيء لا يحتمل الإبطاء» .

كانت القرية صامتة كعادتها ، وفي أركان الشوارع كراسيّ صغيرة وردية يتصاعد منها البخار في الهواء ، وذلك لأننا كنا في موسم المربّيات ، وكان

جميع الناس في «أيونفيل» يعدّون خزينهم في اليوم نفسه . ولكن الناس كانوا يعجبون ـ أمام دكان الصيدلي ـ بكومة أكبر كثيراً تفوق الكومات الأخرى بقدر ما يفوق مصنع فرناً منزلياً وبقدر ما تفوق حاجة عامة نزوات فردية !!

ودخلت ، حيث رأت المقعد الكبير مقلوباً ، حتى إنَّ صحيفة «فانال دي روان» كانت ملقاة على الأرض ممددة بين الهاونين . ودفعت باب الصالة فرأت وسط المطبخ ، بين القدور الداكنة المليئة بعنب الذئب المنفرط ، والسكر المدقوق ، والسكر القوالب ، والموازين الموضوعة على المائدة ، والأحواض التي على النار ، رأت عائلة «هوميه» كباراً وصغاراً ، وقد ارتدوا مرايل تصعد حتى أذقانهم ، وفي أيديهم المغارف ، و«جوستان» واقف محني الرأس ، والصيدلي يصيح :

ـ من الذي قال لك أن تذهب لتبحث عنه في المخزن؟

ـ ماذا تعني؟ وما الأمر؟ . .

فأجاب الصيدلي : «ماذا أعني؟ إننا نصنع مربّيات ، ولكنها أوشكت ، وها هي على النار ، أن تفيض بسبب الغليان الشديد . وقد طلبت حوضاً آخر ، وإذا به ـ بسبب الرخاوة والكسل ـ يذهب ليأخذ مفتاح المخزن من المسمار المعلق في معملي» . وهذا هو الاسم الذي كان الصيدلي يطلقه على حجرة تحت السقف مليئة بالأواني والسلع اللازمة لمهنته .

لقد لاح له عمل «جوستان» بشعاً ، بما يدل عليه من نقص في الاحترام ، وأصبح في وجهته أكثر من عنب الذئب !! وهو يردد قائلاً «نعم ! مفتاح المخزن ! المفتاح ، الذي يغلق الباب على الأحماض والقلويات الكاوية ! ثم يذهب ليأخذ حوضاً احتياطياً ! حوضاً ذا غطاء ، حوضاً ربما لا أستخدمه قط . وكل شيء له أهميته في العمليات الدقيقة التي تزاولها في فنّنا . ولكن ! . . . يجب إقامة الحدود بحيث لا نستخدم في مهمات تكاد تكون منزلية ما هو معد لمهمات الصيدلة ، وإلاّ كنّا كمن يقطع دجاجة بمشرط ، أو كقاض . . .» .

وقالت مدام «هوميه» : «ألا فلتهدئ من روعك !» .

وشدته ابنته «أتالي» من سترته وهي تقول : «بابا ! بابا !» فقال الصيدلي : «لا» . اتركوني ! . . اتركوني ! يا للخيبة ! . . . . إنه لمن الأفضل إذاً أن أفتح محل بقالة . . . بشرفي ! هيا . . . . اذهب ! . . . . لا تحترم شيئاً ! كسّر ! حطّم ! أطلق العلق ! أحرق الأعشاب الملّينة ! وخلل الخيار في زجاجات الدواء ، ومزق الضمادات !» .

وقالت «إيما» : «ومع ذلك فإن لديك . . .» .

ـ هل تعرف لأي شيء تعرّضت منذ لحظة؟ . . . . ألم تر شيئاً في الركن إلى اليسار على المنضدة الثالثة الصغيرة؟ تكلم ! أجب ! انطق بشيء !

فتمتم الغلام قائلاً : «إنني . . . لا أعرف» .

ـ آه . . . أنت لا تعرف ، ولكنني أنا أعرف ! لقد رأيت زجاجة زرقاء مغلقة بالشمع الأبيض تحتوي على مسحوق أبيض ، وقد كتبت عليها . . . «خطر» ! وهل تعرف ماذا كان بها؟ «زرنيخ» ! وكنت ستمسه ! وتأخذ حوضاً في جواره !

وقالت مدام «هوميه» وقد ضمت يديها : «زرنيخ» إلى جواره !؟ لقد كان من الممكن أن تصيبنا جميعاً بالتسمّم !

وأخذ الأطفال يطلقون الصيحات ، وكأنهم قد أخذوا يشعرون في أمعائهم بآلام مبرحة .

واستمر الصيدلي بقوله : أو يصيب مريضاً بالتسمم ! لقد أردت إذاً أن أذهب إلى مقعد المجرمين في محكمة الجنايات ! وأن تراني أصعد إلى المشنقة . . . وهل تجهل الحرص الذي أراعيه في تناول تلك المواد بالرغم من خبرتي الطويلة؟ ! وكثيراً ما يأخذني أنا نفسي الفزع عندما أفكر في مسؤوليتي ، وذلك لأن الحكومة تطاردنا ، والقانون الأحمق الذي نخضع له مسلط على رؤوسنا كأنه سيف «داموكليس»(*) !!

(*) رجل من حاشية ديونيسيوس حاكم سيراكوزا (القرن الرابع قبل الميلاد) دعاه الحاكم إلى وليمة وعلّق فوق رأسه سيفاً مربوطاً بشعرة حصان ليبيّن له أن سعادة الظالم معرضة أبداً للأخطار .

ولم تعد «إيما» تفكر في أن تسأل عما يراد منها !

واستمر الصيدلي يقول في عبارات لاهثة :

«هكذا تقدر كل الحسنات التي تسديها إليك ! هكذا تكافئ العناية الأبوية التي أغمرك بها ! لقد ابتدأت أندم ندماً شديداً لعنايتي بشخصك ، وقد كان من الأفضل أن أتركك في الماضي قابعاً في بؤسك ، وفي القذارة التي ولدت فيها ! فما كنت لتصلح قط لأن تكون حارساً طيباً للماشية ذات القرون ! ! وأنت خال من كل استعداد للعلوم . وكل ما تستطيع لا يعدو لصق البطاقات ! وها أنت تَعيش عندي هنا كالقسيس أو كديك من معجون ، تلهو وتلعب !» .

ولكن «إيما» قالت ، وهي تلتفت نحو مدام «هوميه» : «لقد استدعيتموني . . .» .

فقاطعتها السيدة الطيبة قائلة في صوت حزين : «آه ! يا إلـهي . . ماذا أقول لك؟ . . . إنها كارثة !» .

ولم تكمل حديثها فقد انفجر الصيدلي : «أفرغه ! نظفه ! أرجعه إلى مكانه ! أسرع !» .

وهزّ «جوستان» قبة سترته فسقط من جيبه كتاب !

وانحنى الفتى ، ولكن «هوميه» كان أسرع منه فالتقط الكتاب وأخذ يتأمل فيه ، محدقاً بعينيه ، فاغراً فاه ، وقال ـ وهو يفصل الكلمتين إحداهما من الأخرى في بطء : «الحب . . . . الزوجي ! . . . . آه ! حسن جداً ! حسن جداً ! شيء جميل ! وصور ! آه ! هذا شيء فظيع !» .

وتقدمت مدام «هوميه» .

فقال الصيدلي : «لا . . لا تمسيه !» .

وأراد الأطفال أن يروا الصور ، فقال في عنف : «اخرجوا» .

وخرجوا !

ومشى أولاً طولاً وعرضاً بخطوات واسعة ، محتفظاً بالكتاب مفتوحاً بين أصابعه ، وعيناه تدوران ، وقد اختنقت أنفاسه وتورم وجهه ، كأنما قد أصيب

بالصرع ! ثم جاء رأساً إلى تلميذه ، حتى انتصب أمامه ، وقد ربّع ذراعيه ، ثم قال : «إن لديك إذاً أيها الشقي جميع الرذائل ! احذر ! إنك على المنحدر ! . . . إنك لم تفطن إلى أن هذا الكتاب الحقير كان يمكن أن يقع بين يدي أولادي ، وأن يضرم النار في عقولهم ، فيلوث طهارة «أتالي» ، ويفسدنا بـ«ليون» ، وقد بلغ فعلاً طور الرجولة ! وهل أنت متأكد على الأقل من أنه لم يقرأه؟ هل تستطيع أن تدلل لي . . . .؟» .

وقالت «إيما» : «ولكنك يا سيدي تريد أن تقول لي شيئاً . . .؟» .

فقال : «هذا صحيح يا سيدتي . . . إن حماك قد توفي !» .

والحقيقة أن السيد بوفاري الأب قد توفي منذ يومين فجأة نتيجة ذبحة صدرية عند نهوضه من أمام المائدة ، وزيادة في الحيطة ومراعاة لحساسية «إيما» كان «شارل» قد رجا السيد «هوميه» أن ينقل إليها الخبر المزعج في ترفق .

وكان«هوميه» قد فكر في العبارة ، وهذب فيها ، وشذب منها ، وأحكم إيقاعها ، حتى أصبحت مثلاً أعلى في الحيطة والتدرج والترفق والرقة ، ولكن الغضب أطاح بالبلاغة والبيان !

وعدلت «إيما» عن أن تطلب أية تفصيلات ، ثم تركت الصيدلية لأن السيد «هوميه» كان قد استأنف هياجه . ولكنه مع ذلك عاد إلى الهدوء وأخذ يتمتم في نغمة أبوية وهو يروّح عن نفسه بقلنسوته الإغريقية قائلاً : ليس ذلك لأنني أعيب الكتاب كله ، فالمؤلف كان طبيباً ، وفي الكتاب بعض النواحي العلمية التي لا بأس من أن يلم بها الإنسان ، بل إنني لأجرؤ على القول بأن من واجب المرء أن يعلم ، ولكن في وقت متأخر عن هذا . . نعم في وقت متأخر ! ولتنتظر على الأقل حتى تصبح أنت نفسك رجلاً ، وحتى يتكوّن مزاجك !

وعندما دقت «إيما» الباب ، تقدم «شارل» ، الذي كان ينتظرها مفتوح الذراعين ، وقال والدموع في صوته : آه يا عزيزتي . . .

وانحنى في رفق لكي يقبلها ، ولكنها عندما أحست بشفتيه لم تلبث أن استعادت ذكرى «ليون» ، ومرت بيدها فوق وجهها وهي ترتعش !

وأجابت قائلة : نعم ، إنني أعرف . . . إنني أعرف . . !

وأطلعها على الخطاب الذي تقص فيه أمه الحادث دون أية مداراة عاطفية ، وإن تكن قد أبدت أسفها لأن زوجها لم يتلق العون الديني ، لأنه توفي في «دورفيل» في الشارع على مدخل مقهى ، وبعد وجبة شعبية مع ثلة من قدامى الموظفين !

ردّت «إيما» الخطاب إليه ، ثم تصنّعت عند العشاء ـ على سبيل اللياقة ـ شيئاً من التعفف . ولكنها إزاء إلحاحه أخذت في الأكل بعزم ، بينما ظل «شارل» جامداً في مواجهتها في وضع مثقل بالأحزان .

ومن وقت إلى آخر كان يرفع رأسه ويرسل إليها نظرة مليئة بالحزن . وتنهّد مرة قائلاً : «لقد كنت أود لو أراه مرة أخرى» ! .

ولزمت الصمت ، ولكنها أدركت أنه لا بد من الكلام ، فقالت : «في أي سن كان والدك؟» .

ـ في الثامنة والخمسين !

ـ آه !

وكان هذا كل ما قالته .

وبعد ذلك بربع ساعة أضاف : وأمي المسكينة؟ . . ما مصيرها الآن؟

فقامت بحركة تفيد أنها لا تعرف !

وعندما رآها «شارل» في هذا الصمت ، ظنّ أنها حزينة ، وأخذ نفسه بأن لا يقول شيئاً لكي لا يثير هذا الألم الذي يحرك شفقته . ومع ذلك فقد نفض حزنه ليسأل : هل طابت لك النسرية أمس؟

ـ نعم .

وعندما رفعت المائدة لم ينهض السيد بوفاري ، وكذلك «إيما» . وكانت كلما نظرت في وجهه كلما أخذ اطراد المنظر ينحي عن قلبها ـ شيئاً فشيئاً ـ كل شعور بالرثاء . وقد لاح لها هزيلاً ضعيفاً تافهاً ، وعموماً رجلاً مسكيناً من جميع النواحي ! فكيف السبيلَ إلى التخلص منه؟ ! يا لها من أمسية لا تنتهي !

وقد أخذ شيء مخدّر كبخار الأفيون يخدّر أعصابها .

وسُمع في الصالة وقع عصا على البلاط ، وإذا به «هيبوليت» جاء حاملاً حقائب السيدة ، التي اضطر لكي يضعها على الأرض إلى أن يرسم بعكازه ربع دائرة .

قالت وهي تنظر إلى هذا الشقي ، الذي كان شعره الأحمر الكثيف يتصبب عرقاً : «إنه لم يعد يفكر في مصيبته» ! .

وفتش بوفاري عن قطعة نقد في قاع كيسه ، ودون أن يلوح عليه أنه فهم شيئاً من الإهانة التي يحملها مجرد حضور هذا الرجل الذي يقف أمامه كشاهد مجسم على خيبته ، قال : «خذ» ! . . ثم قال مخاطباً زوجته وهو ينظر فوق المدفأة إلى باقة بنفسج «ليون» : «إن لديك باقة جميلة» ! .

فقالت «إيما» في غير اكتراث : «نعم ! إنها باقة اشتريتها منذ هنيهة من متسولة» .

وتناول شارل البنفسج ، واستنشق عبيره في رقة ، لكنها انتزعته من يده وحملته لكي تضعه في كوب ماء .

وفي اليوم التالي ، وصلت مدام بوفاري الأم ، وبكت كثيراً هي وابنها بينما اختفت «إيما» بحجة إصدار أوامر للخدم .

وفي اليوم التالي كان لا بدّ من أن ينظروا معاً في أمور الحداد . فذهبت المرأتان ومعهما صناديق الخياطة وجلستا على شاطئ الماء تحت العريشة .

كان شارل يفكر في أبيه ، وتأخذه الدهشة من أن يشعر بكل هذا الحب نحو هذا الرجل الذي كان يعتقد من قبل أنه لا يحبه ، إلاّ حباً ضئيلاً ! وكانت مدام بوفاري الأم تفكر في زوجها ، ولاحت لها أتعس الأيام القديمة أياماً تتلهّف إليها ! وقد اختفى كل شيء تحت تأثير ذاك الندم الغريزي الذي شعرت به نحو عادة طال بها كل هذا الزمن ! ومن وقت إلى آخر ، وفي أثناء دفعها الإبرة ، كانت تسقط دمعة كبيرة على طول أنفها ، وتظل معلقة لوقت ما . وكانت «إيما» تفكر في أنه لم يمض ثمان وأربعون ساعة على وجودها مع

«ليون» بعيدين عن العالم في نشوة ، وعيناها لا تكادان تكفيان ليتأمل كل منهما الآخر ! وكانت تحاول أن تستعيد أصغر تفاصيل ذلك اليوم الذي انقضى ، ولكن حضور حماتها وزوجها كان يضايقها . وكانت تود ألاّ تسمع شيئاً وألاّ ترى شيئاً ، حتى لا تقلق استجمام حبها الذي كان آخذاً في التلاشي مهما عملت ، تحت تأثير الإحساسات الخارجية !

وفجأة رأوا السيد «ليريه» تاجر الأقمشة يدخل عبر سياج الحديقة .

لقد جاء ليعرض خدماته مراعاة لظرف الحداد ، ولكن «إيما» أجابت بأنها تعتقد أن باستطاعتها أن تستغني عن هذه الخدمات ، ولكن التاجر لم يسلّم بالهزيمة .

فقال : «ألف معذرة ، لقد أردت أن أحظى بحديث خاص» .

وفي صوت خفيض قال : «وإنه خاص بذلك الموضوع . . هل تذكرين؟ . .» .

واحمرّ «شارل» حتى أذنيه ، وقال : «آه ! . . نعم ! . . . هذا حق !» .

ثم التفت نحو امرأته وهو مضطرب وقال : «هل تستطيعين . . . يا عزيزتي؟» .

ولاح أنها تفهمه ، ذلك لأنها نهضت . وقال «شارل» لأمه : «ليس هذا بشيء . . . إنه بلا ريب أمر تافه من أمور المنزل . .» .

لم يكن يريد أن تعرف شيئاً عن قصة الكمبيالتين خوفاً من ملاحظاتها !

وبمجرد أن انفردا معاً أخذ السيد «ليريه» يهنئ «إيما» في ألفاظ واضحة بالميراث ثم تحدث في أمور تافهة كعرائش الشجر والمحصول وصحته التي تتخبط في سيرها بين بين ، لأنه ـ في الواقع ـ كان يرهق نفسه في العمل والسعي ، وإن لم تتجاوز ثروته ـ بالرغم من أقاويل الناس ـ ما يكفي لأدام خبزه !

وتركته «إيما» يتكلم ، وكانت قد أخذت تشعر منذ يومين بسأم شديد !

فاستمر يقول : «وهأنت قد استعدت صحتك كاملة ! وفي الحق لقد رأيت زوجك المسكين في حالات مؤلمة ، إنه رجل طيب ، وإن تكن قد نشأت بيننا صعوبات !» .

فسألته عن تلك الصعوبات ، لأن «شارل» كان قد أخفى عنها كل شيء .

فقال «ليريه» : «إنك تعرفين الموضوع جيداً ، فقد كان بسبب رغباتك ، أعني صناديق السفر !» .

وكان يبتسم وقد أنزل قبعته فوق عينيه ، ووضع يديه خلف ظهره ، وفي صوته صفير ، وأخذ ينظر إليها مواجهة في هيئة لا تحتمل . فهل كان يفترض شيئاً؟ لقد ظلّت سادرة في جميع أنواع المخاوف .

ومع ذلك فإنه في النهاية استأنف قائلاً : «لقد استأنفنا علاقاتنا ، بل لقد أتيت لكي أعرض عليك تسوية» .

وكانت هذه التسوية عبارة عن تجديد الكمبيالتين الموقع عليهما من بوفاري . وفضلاً عن ذلك ، فإن السيد بوفاري يستطيع أن يتصرف وفق هواه ، وما ينبغي أن يعني نفسه ـ وخصوصاً الآن ـ وهو مقبل على الكثير من الارتباكات ـ بل إن من الخير له أن يتخلى عن هذا الموضوع إلى شخص آخر ، وليكن لك أنت مثلاً ، وبتوكيل يسهّل الأمور ، وعندئذ ستتم بيننا بعض العمليات البسيطَة !

ولم تفهم «إيما» شيئاً ، فسكت ، ثم انصرف إلى حانوته وهو يفترض أن السيدة لا تستطيع أن تستغني عن أن تأخذ منه شيئاً ، وأنه سيرسل إليها قطعة من القماش الخفيف الأسود طولها اثنا عشر متراً لتخيط منها ثوباً ، مردداً : «إن هذا الثوب الذي ترتدينه يصلح للمنزل ، ولكن لا بد لك من ثوب آخر للزيارات ، وقد لمحت أنا ذلك لأول نظرة عند دخولي ، فلديّ عين أميركية !» .

ولم يرسل القماش ، بل أحضره بنفسه ، ثم عاد بسبب المقاس ، كما عاد لتعلّلات أخرى ، محاولاً في كل مرة أن يبدو ودوداً خدوماً متسللاً على نحو ما يقول «هوميه» ، مسدياً دائماً إلى «إيما» نصيحة ما عن التوكيل . ولم يكن يتكلم عن الكمبيالتين ، كما أنها هي الأخرى لم تكن تفكر فيهما . وكان «شارل» قد قصّ عليها شيئاً في بدء نقاهتها ، ولكن رأسها كان قد مرّ به من الاضطرابات ما جعلها لا تذكر شيئاً . وفضلاً عن ذلك فإنها كانت حريصة على ألاّ تفتح أية مناقشة في المسائل المادية . وقد اندهشت الأم بوفاري لهذه

الحالة ، وعزت تغيير مزاجها إلى المشاغل الدينية ، التي استولت عليها في أثناء مرضها !

ولكن ما إن رحلت الأم حتى أخذت «إيما» تدهش زوجها بحسها العملي ، فكانت تذهب لتحصل على المعلومات ، ولتتحقق من الرهونات ، ولتبحث عمّا إذا كان هناك محل لتصحيح إجراء أو عمل تصفية . وكانت تستعمل عبارات فنية كيفما اتفق متفوهة بألفاظ كبيرة : كالنظام والمستقبل والتبصر ، كما كانت تبالغ دائماً في ارتباكات التركة ، حتى أطلعته يوماً على أنموذج لتصريح عام بإدارة أعماله ، بما فيها عقد القروض وتوقيع الكمبيالات وتظهيرها ودفع المبالغ . . . وغير ذلك . . فقد كانت استفادت من دروس «ليريه» !!

وسألها «شارل» في سذاجة من أين أتت بهذه الورقة .

فأجابت : «من السيد جيومان» .

وأضافت في برود شديد : «إنني لا أثق به كثيراً ، والموثقون لهم شهرة بالغة السوء ، وربما كان من الواجب أن نستشير . . . إننا لا نعرف غير . . . أوه ! لا أحد !» .

فأجاب «شارل» الذي كان يفكر : «وذلك ما لم يكن «ليون» . . .» .

وكان من الصعب التفاهم بالمراسلة ، ولذلك عرضت «إيما» أن تقوم بالسفر ، فشكرها . وألحت فكانت ثورة من الإشفاق ، وأخيراً صاحت في نغمة عناد مصطنعة قائلة : «لا ـ أرجوك ـ سأذهب» .

فقال وهو يقبّلها في جبهتها : «كم أنت طيبة !» .

وصباح اليوم التالي تربّعت في «العصفورة» لكي تذهب إلى «روان» لتستشير السيد «ليون» . . وهناك بقيت ثلاثة أيام !!

•

وكانت ثلاثة أيام طويلة لذيذة رائعة ، بل كانت شهر عسل حقيقي !

نزلا في فندق «بولون» على الميناء ، وعاشا هناك والنوافذ مغلقة ، والأبواب

موصدة ، وفوق الأرض ورود ، والمشروبات السكرية المثلجة تحمل إليهما مع كل صباح !

وقبيل المساء كانا يستأجران زورقاً مغطى ويذهبان إلى إحدى الجزر لتناول العشاء ! وكانا ينزلان وسط الزوارق الراسية التي تمس حبالها المنحرفة مساً خفيفاً أعلى الزورق .

وكان ضوضاء المدينة يبتعد على نحو غير محسوس ، بما في ذلك ضجيج العربات والأصوات ونباح الكلاب فوق متون السفن ، وكانت تحمل عقدة قبعتها وينزلان إلى جزيرتهما .

وفي الصالة المنخفضة بإحدى البارات ، التي كنت ترى على بابها بعض الشباك السوداء المعلقة ، كانا يجلسان ويأكلان السمك المقلي والكريمة والكريز ، ويضطجعان فوق العشب ويتبادلان القبل تحت أشجار الحور . وكانا يودان أن لو عاشا إلى الأبد في هذا المكان الصغير مثل «روبنسن كروزو» ، وقد لاح لهما هذا المكان وسط سعادتهما أروع مكان في الأرض . ولم تكن هذه أول مرة يريان فيها أشجاراً وسماءً زرقاء وحشائش ، كما لم تكن أول مرة يسمعان فيها خرير الماء وهبوب النسيم بين الأغصان ، ولكنهما لم يكونا قط قد أعجبا بكل هذا ، وكأن الطبيعة لم تكن موجودة قبل ذلك ، أو كأنها لم تبد جمالها إلاّ منذ أن أشبعا رغباتهما !

وفي الليل كانا يرحلان والزورق يتابع شواطئ الجزر ، وقد قبعا فيه معاً ، مختفيين في الظلال ، دون أن يتكلما ، والمجاذيف المربعة تصطك في حلقاتها الحديدية ، فيشبه اصطكاكها ـ وسط الصمت ـ دقات الساعة .

وذات مرة ظهر القمر فلم يفتهما أن يصفاه بعبارات عذبة إذ وجدا الكوكب حزيناً موحياً بالشعر ، بل أخذت «إيما» تغني !

«ذات مساء ، هل تذكرين ، ونحن نجذف . .» .

وكان صوتها الرخيم العذب يتلاشى فوق الموج ، وكانت الريح تحمل الترجيعات التي كان «ليون» يسمعها ، وهي تمر كحفيف أجنحة من حوله !

وكانت تقف في مواجهته مستندة إلى حافة الزورق ، حيث كان القمر يدخل من أحد المصاريع المفتوحة . وكان ثوبها الأسود الذي ينتفخ قماشه في هيئة مروحة ، يظهرها نحيفة ، وأكثر طولاً ، وقد رفعت رأسها وضمت يديها واتجهت بعينيها نحو السماء . وأحياناً كان ظل الصفصاف يخفيها كلها ، ثم تعود إلى الظهور فجأة كالرؤية في ضوء القمر .

وعثر «ليون» تحت يدها ، وهو إلى جوارها على الأرض ، بشريط من الحرير المخمل . وفحصه صاحب الزورق ثم انتهى بأن قال : «آه ! إنه كان لجماعة صحبتهم في نزهة منذ أيام ، وقد أتوا كفريق من المهرجين رجالاً ونساء ، ومعهم فطائر وشمبانيا وآلات عزف ، و«العدة» كلها ! وكان بينهم بنوع خاص رجل طويل جميل بشوارب قصيرة ، وكان مسلياً على نحو مدهش وكانوا يقولون هكذا : «هيا ! قص علينا شيئاً . . أدولف . . أدولف . . . على ما أظن» .

ارتعشت «إيما» ، وقال «ليون» وهو يقترب منها : «هل تشعرين بألم؟» .

فقالت : «أوه ! لا شيء . . إنها بلا ريب رطوبة الليل» .

وأضاف الرجل العجوز في رفق ـ وهو يظن أنه يقدم للغريبين تسلية : «وأظن فوق ذلك أن النساء لا تعوزه» .

ثم بصق في يديه ، واستأنف الضرب بالمجذافين !

ومع ذلك لم يكن بد من الافتراق ! وكان الوداع حزيناً ، وقد اتفقا على أن يرسل الخطابات عند الأم «روليه» . وزودته هي بتوصيات دقيقة خاصة بالغلاف المزدوج ، حتى لقد أعجب كثيراً بهذه الحيلة الغرامية .

وقالت مع القبلة الأخيرة : «وهكذا تؤكد لي أن كل شيء على ما يرام» .

فأجاب : «نعم . بكل تأكيد !» .

وأخذ يفكر وهو عائد وحده : «ولكن لماذا تحرص كل هذا الحرص على هذا التوكيل؟» .

*

بعد أيام قلائل اتخذ «ليون» أمام زملائه هيئة استعلاء ، وامتنع عن

مصاحبتهم ، وأهمل عمله إهمالاً تاماً !

كان ينتظر خطاباتها ويعيد قراءتها ويكتب إليها ، كما كان يستحضرها أمام خياله بكل ما في رغبته وما في ذكرياته من قوة . وأخذت الرغبة في رؤيتها مرة أخرى تزداد بدلاً من أن تنقص بغيابها ، حتى هرب من مكتبه في صبيحة يوم سبت . وعندما لمح من أعلى الهضبة في الوادي برج الكنيسة وعلمها المرفوع فوق عمود من الحديد الأبيض ـ وهو يدور مع الريح ـ أحس بتلك اللذة الممزوجة بالغرور المنتصر ، وبالحنان الأناني الذي كثيراً ما يحس به أصحاب الملايين عندما يعودون لزيارة قريتهم !

وهبط ليحوم حول منزلها ، ولمع ضوء في المطبخ ، وأخذ يترقب ظلها خلف الستائر ، ولكن أحداً لم يظهر !

وعندما لمحته الأم «لوفرانسوا» أطلقت صيحات تعجب كبيرة ، ووجدت أنه قد ازداد طولاً كما ازداد نحافة ، بينما وجدت «أرتميز» أنه على العكس قد ازداد قوة واسمراراً .

وتناول العشاء في الصالة الصغيرة كما كان يفعل في الماضي ، ولكنه تناوله وحيداً هذه المرة دون المحصل ، وذلك لأن «بينيه» كان قد تعب من انتظار «العصفورة» فعجّل موعد عشائه بمقدار ساعة ، وأصبح يتناوله في الساعة الخامسة تماماً ، بل وكثيراً ما كان يدّعي أن الساعة القديمة الخربة تؤخر !

ومع ذلك فقد عقد «ليون» عزمه وذهب ليطرق باب الطبيب . وكانت السيدة بوفاري في غرفتها التي لم تنزل منها إلا بعد ربع ساعة . وظهر السيد بوفاري مبتهجاً لرؤيته من جديد ، ولكنه لم يتحرك طوال المساء ولا اليوم التالي .

لقد رآها وحيدة في المساء في وقت متأخر خلف الحديقة في الزقاق ، كما كانت تفعل مع الآخر ! وكان الجو عاصفاً ، وأخذا يتحدثان تحت مظلة على ضوء البرق .

لقد أصبح فراقهما شيئاً لا يطاق !

وقالت «إيما» : «إن الموت أفضل !» .

وكانت تتلوّى فوق ذراعه والدموع تنصبب من عينيها .

وقال : «الوداع ! . . . الوداع ! . . . متى سأراك ثانية؟» .

وعادا أدراجهما لكي يتبادلا القبلات مرة أخرى ، وعندئذ وعدته بأن تجد قريباً ، بأية وسيلة ، فرصة تسمح بأن يلتقيا في حرية ، مرة واحدة على الأقل كل أسبوع . ولم تكن «إيما» تشك في ذلك بل كانت مليئة بالأمل ، وعمّا قريب سيأتيها المال .

وهكذا اشترت لغرفتها زوجاً من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة ، وكان التاجر السيد «ليريه» قد مدح لها رخصها . وحلمت بسجادة وأكد «ليريه» أن ثمنها لن يكون باهظاً ، وتعهد في أدب بأن يأتيها بواحدة ، وقد أصبحت لا تستطيع أن تستغني عن خدماته ! وفي اليوم الواحد كانت ترسل في استدعائه عشرين مرة ، فيترك أعماله من غير تململ . كما أن أحداً لم يفهم لماذا أخذت الأم «روليه» تتناول عندها الغداء كل يوم ، بل وأخذت تزورها زيارات خاصة .

وفي تلك الفترة ، أي في بداية فصل الشتاء ، ظهر أنها قد أخذت بحماسة كبيرة للموسيقى .

وذات مساء بينما كان «شارل» ينصت إليها ، ابتدأت أربع مرات متوالية المقطوعة نفسها دون أن ترضى قط بعزفها ، وذلك بينما أخذ «شارل» يصيح ، دون أن يلاحظ الفارق قائلاً : «برافو ! . . . حسن جداً ! . . . إنك مخطئة في ظنك ! استمري إذاً !» .

فردت قائلة : «إيه ! لا ! هذا شيء قبيح . . إن أصابعي قد أصابها الصدأ !» .

وفي اليوم التالي رجاها أن تعزف له شيئاً مرة أخرى ، فقالت : «فليكن . . . إرضاء لك !» .

واعترف «شارل» بأنها قد نسيت قليلاً . . وكانت قد أخطأت في الجملة الموسيقية ، وتخبطت ثم توقفت وقالت : «آه ! كفى ! يجب أن أتلقى دروساً ، ولكن . . .» .

وعضت على شفتيها ثم أضافت : «عشرون فرنكاً لساعة الدرس . . هذا كثير !» .

وقال «شارل» في بله : «نعم . هذا صحيح . . . إلى حد ما ! ومع ذلك يلوح لي أنه ربما كان من الممكن تلقي هذه الدروس بأجر أقل ، وذلك لأن هناك فنانين بلا شهرة ، ومع ذلك ، كثيراً ما يتساوون مع ذوي الشهرة العريضة !» .

فقالت «إيما» : «ابحث عنهم إذاً» .

وفي اليوم التالي أخذ «شارل» ينظر إليها عند دخوله بنظرة ماكرة ، وفي النهاية لم يستطع أن يمسك عن أن يفوه بهذه العبارة : «يا لك من عنيدة أحياناً ! لقد كنت في «بارفيشير» اليوم ، وقد أكدت لي مدام «ليجار» أن آنساتها الثلاث الملحقات بالملجأ يأخذن دروساً مقابل خمسين سنتاً لكل جلسة من مدرسة شهيرة !» .

فرفعت كتفيها ، ولم تلمس بعد ذلك قط معزفها !

ولكنها عندما كانت تمر إلى «جواره» ويكون بوفاري حاضراً كانت تتنهد قائلة : «آه . . معزفي المسكين» .

وعندما كان أحدٌ يأتي لزيارتها لم تكن تغفل أن تخبره أنها قد هجرت الموسيقى ، ولم تعد الآن تستطيع العودة إليها لأسباب قهرية . وعندئذ كانوا يرثون لها ويرون في هذا الهجر خسارة ، وذلك بسبب موهبتها الفذة ! بل ولم يكن أحد يتحدث إلى بوفاري ، لأن في ذلك ما يخجله ، وخصوصاً الصيدلي ، الذي قال له : «إنك مخطىء ! فلا ينبغي أن يترك الإنسان الملكات الطبيعية معطلة ! وفوق ذلك عليك أن تقدر يا عزيزي أنك عندما تدفع السيدة نحو الدرس ، فإنك تقتصد بالنسبة إلى المستقبل فيما يختص بالتربية الموسيقية الواجبة لطفلتك ، وفي رأيي أن الأمهات يجب أن يقمن بأنفسهن بتعليم أطفالهم ، وهذه فكرة أخذتها من «روسو» ، وربما كانت لا تزال حديثة ،

ولكنني متأكد من أنها سوف تنتصر كما انتصرت فكرة رضاعة الأم وفكرة الختان !» .

وعاد شارل مرة ثانية إلى موضوع المعزف ، وأجابت «إيما» في مرارة بأنه من الأفضل بيعه ! ولكن هذا المعزف المسكين الذي طالما أرضى غروره كيف يمكن أن يراه خارجاً من بيته ـ لقد كان هذا بالنسبة إلى «بوفاري» بمثابة انتحار عجيب لبضعة من نفسه !

فقال : «إذا أردت ، من وقت إلى آخر ، درساً ، فإن هذا لن يتسبب في النهاية في خراب شامل !» .

فأجابت قائلة : «ولكن الدروس لا تثمر إلاّ إذا كانت متتابعة !» .

وهكذا استطاعت أن تحصل من زوجها على تصريح بأن تذهب إلى المدينة مرة كل أسبوع لترى عشيقها ، بل وقد لوحظ بعد شهر أنها قد أحرزت تقدماً كبيراً !

*

في يوم خميس استيقظت «إيما» وارتدت ملابسها في صمت كي لا توقظ «شارل» خشية أن يبدي ملاحظات حول رحيلها الباكر جداً . ثم أخذت تمشي طولاً وعرضاً ، وتقف أمام النوافذ وتنظر إلى الميدان .

وأخذ ضوء الفجر ينبعث بين أعمدة السوق وبين بيت الصيدلي الذي كان مغلق النوافذ . وكانت الحروف الكبيرة بلافتته تظهر بفضل لون الفجر الشاحب .

وعندما دقت الساعة السابعة والربع ، اتجهت إلى فندق «الأسد الذهبي» الذي كانت «أرتميز» قد فتحت بابه وهي تتثاءب . ونبشت الخادمة ـ من أجل السيدة ـ قطع الفحم المدفونة في الرماد ، ثم ظلت «إيما» وحدها في المطبخ . ومن وقت إلى آخر كانت تخرج . وكان «هيفير» يشد الخيل إلى العربة في تراخ ، وهو يستمع في الوقت نفسه إلى الأم «لوفرانسوا» التي كانت أخرجت رأسها المغطى بقلنسوة قطنية من كوة ، وأخذت تكلفه بمهمات ، وتقدم إليه

تفسيرات خليقة بأن تنزل الاضطراب برأس رجل من طراز آخر ! بينما «إيما» تدق بنعل حذائها على بلاط الفناء .

وأخيراً ، بعد أن تناول حساءه ، وارتدى معطفه ، وأشعل غليونه ، وقبض على سوطه ، استقر في هدوء فوق مقعده !

وانطلقت «العصفورة» في خبب بطيء . وخلال ثلاثة أرباع الفرسخ كانت تقف ، من مكان إلى آخر ، لتلتقط المسافرين ، الذين كانوا يترقبونها وقوفاً على حافة الطريق أمام سياج الأفنية ، وكانت تنتظر أولئك الذين اتفقوا معها على موعد ، بل وكان بعضهم لا يزال في فراشه بالمنزل . وكان «هيفير» ينادي ويصيح ويشتم ، ثم ينزل من مقعده ، ويذهب ليدق على الأبواب دقات قوية .

ومع ذلك امتلأت المقاعد الأربعة ، وانطلقت العربة ، وتتابعت أشجار التفاح ، وأخذ الطريق المحصور بين خندقين مليئين بالماء الأصفر يضيق باستمرار عند حدود الأفق .

كانت «إيما» تعرف هذا الطريق من طرف إلى طرف ، وتعرف أن بعد الأعشاب عموداً ، ثم شجرة دردار ، ثم مخزناً أو كوخ خفير ، بل وأحياناً ، كانت تغلق عينيها لكي تهيّئ لنفسها المفاجآت ، ولكنها لم تفقد قط إحساسها الدقيق بالمسافة التي لا بد من اجتيازها .

وأخيراً قربت المنازل المبنية من الآجرّ ، وأخذت الأرض ترن تحت العجلات ، وانسابت «العصفورة» بين الحدائق التي كانت ترى بداخلها من خلال الفرجات بعض التماثيل ، أو عريشة عنب ، أو شجر السرو المشذب ، أو أرجوحة . . . ثم ظهرت المدينة في لمحة بصر !

كانت المدينة النورماندية القديمة تمتد أمام عينيها كعاصمة ضخمة وكأنها تدخل بابل ! وارتكزت بيديها فوق الشراعة وهي تستنشق النسيم ، والخيل الثلاثة تعدو في الوحل ، والعربة تهتز ، وهيفير يصيح بالعربات الصغيرة على الطريق ، بينما أهل المدينة ، الذين قضوا الليل في غابة «جيوم» ، ينزلون عن الهضبة في سكون فوق عرباتهم العائلية الصغيرة .

ووقفوا عند السياج ، وخلعت «إيما» الخفين اللذين تلبسهما فوق الحذاء ، ولبست قفازين آخرين ، وأصلحت من وضع شالها . وعلى بعد عشرين خطوة من هناك خرجت من «العصفورة» .

كانت المدينة عندئذ آخذة في الاستيقاظ ، والخدم في «قلنسواتهم الإغريقية» آخذون في مسح واجهات الدكاكين ، والنساء يطلقن من نواحي الشوارع صيحات مجلجلة ، وهن حاملات السلال فوق خصورهن . وسارت «إيما» منكسة البصر إلى جوار الجدران ، مبتسمة من السرور تحت وشاحها الأسود المسدل !

وخوفاً من أن تُرى ، لم تكن تسلك عادة أقرب الطرق ، بل كانت تندس في الأزقة المظلمة . . وصلت وهي تتصبب عرقاً عند نهاية شارع «الناسيونال» إلى جوار النافورة القائمة هناك ، وهو حي المسرح والصالات وبنات الهوى . وكثيراً ما كانت تمر إلى جوارها إحدى العربات وهي محملة بمناظر المسرح التي تهتز فوقها ، وغلمان في مرايل يسكبون الرمال على البلاط بين الشجيرات الخضراء . وكانت تفوح رائحة الخمر والسيجار والقواقع !

وانعطفت في شارع . . . وعرفته من شعره المجعد المطل من قبعته !

واستمر «ليون» يسير على الرصيف وهي تتبعه حتى الفندق ، ثم صعد وفتح الباب ودخل . . . وكان عناق !

ثم انهالت العبارات بعد القبلات ! وكانا يتبادلان الحديث عن أشجان الأسبوع ، والمخاوف ، والقلق على الخطابات . ولكن كل شيء قد نُسي الآن ، وها هما وجهاً لوجه مع ضحكات اللذة ، ونداءات الحنان .

كان السرير سريراً كبيراً من الأكاجو في شكل زورق ، وكانت الستائر المصنوعة من الحرير الأحمر تنزل من السقف وتتجمع في أسفل بالقرب من الوسادة حيث تنفرج . ولم يكن في العالم شيء في جمال رأسها ذي الشعر الأسود ، وجلدها الأبيض يبرز فوق هذا اللون القرمزي ، عندما كان الحياء يدفعها إلى أن تضم ذراعيها العاريتين وهي تخفي وجهها في يديها .

وكم كانا يحبان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالمرح ، بالرغم من فخامتها التي ذبلت قليلاً ! وكانا يجدان دائماً الأثاث في مكانه ، بل ودبابيس الشعر التي كانت قد نسيتها يوم الخميس الماضي تحت قاعدة الساعة . وكانا يتناولان الغداء إلى جوار النار فوق مائدة مستديرة مطعّمة بخشب الأبنوس . وكانت «إيما» تقطع اللحم وتضع القطع في طبقه وهي تسرد جميع أنواع المداعبات ، وكانت تضحك ضحكات رنانة خليعة عندما يفيض زبد الشمبانيا من الكأس الخفيف فوق خواتم أصابعها . وكانا غارقين غرقاً كاملاً في امتلاك ذاتيهما ، حتى لكأنهما يعتقدان أنهما في بيتهما الخاص ، وأنهما سيعيشان فيه حتى الموت كزوجين خالدين ! وكانا يقولان «غرفتنا» و«سجادتنا» و«كراسينا» ، بل وكانت تقول «خفي» الذي كان هدية من «ليون» استجابة لإحدى نزواتها ، وكان خفاً من الستان الوردي ، محلاة حافته بالبجع ! وعندما كانت تجلس فوق ركبتيه ، كان ساقها القصير يتدلى في الهواء ، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك بأطراف أصابعه قدمها العارية فقط .

لقد تذوق «ليون» لأول مرة تلك الرقة المرهفة المنبعثة من الأناقة النسائية ، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة وهذه اللغة وهذه الألوان من الثياب المشكلة وهذه الأوضاع الشبيهة بأوضاع الحمامة الغافية . وكان يعجب بحرارة روحها ودنتيلّا ردائها ! ولم لا؟ أليست هي إحدى نساء الطبقة الراقية ، وامرأة متزوجة؟ ! وبالجملة ، أليست عشيقة حقيقية؟ !

ويتلوّن مزاجها المتنقل طوراً بعد طور ، من الإحساس الصوفي إلى المرح ، ومن الثرثرة إلى الصمت ، ومن العنف إلى عدم المبالاة ـ كانت تثير في نفسه مئات الرغبات والغرائز والذكريات ـ لقد كانت المغرمة التي تتحدث عنها الروايات ، والبطلة التي تتحدث عنها المسرحيات ، و«هي» الغامضة التي تتحدث عنها دواوين الشعر ! وكان يجد على كتفيها اللون العنبري الخاص بـ«الجارية في الحمام» ، كما يجد القدّ الطويل الخاص بربات قصور الإقطاع ، كما كانت تشبه أيضاً امرأة برشلونة الشاحبة ،

ولكنها فوق كل هذا كانت بالنسبة إليه ملاكاً!

وعندما كان ينظر إليها ، كثيراً ما كان يخيل إليه أن روحه قد هربت إليها ، وانسابت كموجة فوق حدود رأسها ، ثم انحدرت كالسيل في بياض صدرها!

وكان يلقي بنفسه على الأرض أمامها ، ويتكئ بمرفقيه فوق ركبتيه ثم يأخذ في تأملها مبتسماً مشدود الجبهة .

وكانت تنحني نحوه وتتمتم ، وكأنها مختنقة من الثمل وتقول : «أوه! لا تتحرك! لا تتكلم! انظر إليّ! إن عينيك ينبعث منهما شيء عذب تستريح إليه نفسي» .

وكانت تسميه طفلاً .

ـ أيها الطفل! هل تحبني؟

ولم تكن تسمع جواباً مع سرعة شفتيه اللتين كانتا تصعدان إلى الفم .

وكان فوق الساعة الدقاقة تمثال صغير من البرونز لإلـه الحب ، مبتسماً ، وقد حنا ذراعيه تحت باقة مذهبة . وكثيراً ما كانا يضحكان منه . ولكن كل شيء كان يبدو جاداً عندما يحين موعد الفراق .

كان كل منهما يكرر للآخر وهما واقفين ساكنين : «إلى يوم الخميس! . . . إلى يوم الخميس! . . .» .

وفجأة كانت تأخذ رأسه بين يديها وتقبله مسرعة في جبهته وهي تصيح : «الوداع!» ثم تنطلق من السلم .

كانت تنصرف! وتصعد الشوارع حتى تصل إلى فندق «الصليب الأحمر» . وكانت تأخذ خفها الذي أخفته في الصباح تحت المقاعد ، وتجلس صامتة في مكانها بين المسافرين النافدي الصبر . وكان بعضهم ينزل عند أسفل الهضبة فتبقى وحدها بالعربة .

وعند كل منحنى كانت تريد رؤية أضواء المدينة ، التي تتجمع كموجة واسعة من البخار المضيء فوق المنازل المختلطة . فكانت تركع على ركبتيها فوق المساند ، وتظل بعينيها في هذا الوهج المعشي ، وكانت تنتحب وتناجي

«ليون» ، وترسل إليه ألفاظاً رقيقة ، وقبلات تضل في الهواء .

وكان على الطريق المرتفع متشرد يائس يمسك عصا وسط العربات وعليه كومة من الأسمال تغطي كتفيه ، وقلنسوة مهدمة مستديرة كالطاسة تخبئ وجهه ، وكان يغني أغنية قصيرة وهو يتبع العربات مطلعها : «كم تدفع حرارة يوم صحو البنت الصغيرة إلى أن تحلم بالحب!» .

وكان ركاب «العصفورة» ينتهي بهم الأمر في الطريق إلى النوم ، بعضهم وهو فاغر فاه ، والبعض الآخر وقد حنى ذقنه واستند على كتف جاره ، أو أدخل ذراعه في المقبض الجلدي ، وأخذ يهتز هزات منتظمة على وقع العربة .

وشعاع المصباح الذي يهتز في الخارج فوق أشجار الليمون يتسلل إلى الداخل من خلال الستائر الصفراء الداكنة ، فيلقي ظلالاً قريبة من لون الدماء على كل أولئك الأشخاص الساكنين . وكانت «إيما» الثملة بالحزن ترتعد تحت ملابسها وتزداد إحساساً بالبرد ، في قدميها .

وفي المنزل كان «شارل» ينتظرها . وقد اعتادت «العصفورة» أن تصل متأخرة يوم الخميس . وأخيراً وصلت السيدة فلا تكاد تُقبل على تقبيل طفلتها . وكان العشاء لم يُعدّ فلم تهتم بالأمر والتمست العذر للطاهية ، فكل شيء أصبح الآن مسموحاً به لهذه الفتاة!!

وكثيراً ما كان زوجها يلاحظ شحوبها فيسألها عما إذا كانت مريضة .

وكانت «إيما» تجيب قائلة : «لا!» .

فيقول : «ولكنك لست على ما يرام هذا المساء!» .

ـ لا تقلق! ليس هناك شيء! ليس هناك شيء!» .

بل وفي بعض الأيام كانت لا تكاد تدخل حتى تصعد إلى غرفتها ، حيث كان «جوستان» يروح ويجيء بخطى صامتة مبادراً إلى أفضل من أية وصيفة ، فكان يضع أعواد الثقاب ، والشمعدان ، وكتاباً في متناول يدها ويرتب قميصها ويقلب الملاءات!

وكانت تقول له : «هيا! هذا حسن! اذهب!» .

ذلك لأنها كانت تظل واقفة مدلاة اليدين مفتوحة العينين ، وكأنها مشدودة بخيوط ساكنة من حلم مفاجئ!

وكان اليوم التالي مزعجاً ، والأيام الأخرى أشد إزعاجاً ، بسبب صبر «إيما» النافد في استرجاع سعادتها . فكان الشوق المتأجج المتكالب الملتهب بصور الذكريات ينفجر في اليوم السابع فينطلق في أحضان «ليون» ! أمّا مشاعره هو فقد كانت تختفي تحت فورات تعجّب وعرفان بالجميل ، وكانت «إيما» تتذوق هذا الحب على نحو خفي مستغرق ، وكانت تتعهده بجميع حيل الحنان ، وترتعد قليلاً خشية ضياعه بعد ذلك !

وكثيراً ما كانت تقول له في صوت عذب حزين : «آه ! سوف تتركني أنت ! . . . سوف تتزوج ! . . . ستكون كالآخرين !» .

وكان يسأل : «من تعنين بالآخرين؟» .

وكانت تجيب : «أعني الرجال» .

ثم تضيف وهي تدفعه بحركة ولهانة : «إنكم جميعاً أنذال !» .

وبينما كانا يتحدثان يوماً حديثاً فلسفياً عن أوهام الحياة الدنيا ، انساقت «إيما» رغبة في اختبار غيرته أو بدافع قوي نحو الانطلاق ـ انساقت إلى القول بأنها كانت قد أحبت قبله في الماضي رجلاً ـ ثم أضافت أنه لم يكن يشبهه ، وأقسمت بحياة ابنتها أنه لم يحدث بينهما شيء !

وصدّقها الشاب ، ولكنه مع ذلك استجوبها لكي يعرف ماذا كان يفعل .

فقالت : «كان قائد سفينة يا عزيزي !» .

وكان في هذه الإجابة ما يقطع الطريق على كل بحث ، كما كان فيها أيضاً ما يرفع من قدرها بسبب ذلك السحر المدّعى ، الذي انصب منها على رجل لا بد أنه كان ذا طبيعة مقاتلة ، معتاداً على تلقي الاهتمام .

وأحس الكاتب عندئذ بوضاعة مركزه ، وود أن لو كانت له نجوم وتيجان وألقاب ، فإن كل هذا كان جديراً بأن يروقها ، وقد ظن بها ذلك لما رآه من اعتيادها الإسراف .

ومع ذلك فإن «إيما» كانت تكبح عدداً من نزواتها المسرفة ، كرغبتها في أن

تمتلك عربة فخمة زرقاء يشدها حصان إنكليزي ، ويقودها سائس في حذاء طويل مثني لكي تحملها إلى «روان» . وكان «جوستان» هو الذي أوحى إليها بهذه النزوة ، وهو يضرع إليها أن تأخذه عندها كخادم عربة . وهذا الحرمان لم يكن يضعف من سرورها بكل لقاء ، وإن كان يزيد بلا ريب من مرارة العودة .

وعندما كانا يتحدثان عن پاريس كثيراً ما كانت تنتهي بأن تتمتم قائلة : «آه . . كم نكون سعداء لو عشنا هناك !» .

وكان الشاب يجيب في رفق وهو يمر بيده فوق جدائل شعرها : «ألسنا سعداء؟» .

فتقول : «نعم . هذا صحيح . . إنني مجنونة ـ قبّلني !» .

*

أصبحت «إيما» بالنسبة إلى زوجها أكثر سحراً من أي وقت مضى ، فهي تصنع له الكريمة بالفستق ، وتعزف الفالس بعد العشاء . وهكذا وجد نفسه أسعد البشر ! وعاشت «إيما» دون قلق . حتى كان مساء قال فيه «شارل» فجأة : «إن الآنسة «الميرور» هي التي تعطيك الدروس أليس كذلك؟» .

ـ نعم !

فاستأنف شارل قائلاً : «ولكنني قابلتها منذ هنيهة عند مدام «اليجار» ، وقد تحدثت إليها عنك ، ولكنها لا تعرفك !» .

وكان وقع هذه العبارات كالصاعقة ، ولكنها مع ذلك ردت في نغمة طبيعية : «آه . . . إنها بلا شك قد نسيت اسمي !» .

وقال الطبيب : «ولكن ربما كان في «روان» عدة آنسات يحملن الاسم «الميرور» ويدرّسن البيانو !» .

ـ هذا ممكن !

ثم قالت في حدّة : «ومع ذلك فإن لديّ الإيصالات ! . . . انتظر !» .

وذهبت إلى الصوان حيث أخذت تفتش في الأدراج وتقلب الأوراق ، وانتهت بأن أصابها الدوار ، حتى أن «شارل» دعاها في قوة إلى ألا تتعب

نفسها كل هذا التعب من أجل إيصالات تافهة !

قالت : «أوه ! . . سوف أجدها !» .

وبالفعل في يوم الجمعة التالي بينما كان «شارل» ينتعل أحد أحذيته في الغرفة المظلمة التي تحوي ملابسه ، أحس بورقة بين الجلد وجوربه ، فأخذها وقرأ : «وصل لدروس ثلاثة أشهر وتوريدات مختلفة بمبلغ خمس وستين فرنكاً» .

فيليسيتيه ليرور

«مدرسة موسيقى»

وقال «شارل» : «ولكن كيف وصلت هذه الورقة إلى حذائي؟» .

فأجابت : «إنها بلا ريب سقطت من ملف الإيصالات الموضوع على حافة الرف» .

ومنذ تلك اللحظة لم تعد حياتها غير سلسلة من الأكاذيب التي كانت تلف فيها حبها ـ وكأنها أوشحة ـ لكي تخفيه .

وأضحى الكذب بالنسبة إليها حاجة وولعاً ولذة ، إلى درجة أنها كانت إذا قالت إنها قد مرت بالأمس من الناحية اليمنى لأحد الشوارع ، كان من الواجب أن نعتقد حكماً أنها مرت من الناحية اليسرى !

وفي صباح يوم سقط الجليد فجأة بعد أن كانت قد سافرت بملابس خفيفة كعادتها . وبينما كان «شارل» ينظر إلى الجو من النافذة ، رأى السيد «بورنسيان» في عربة السير «تيفاش» وهو يقودها إلى «روان» ، وعندئذ نزل لكي يعطي القس شالاً سميكاً ليحمله إلى السيدة بمجرد أن يصل إلى فندق «الصليب الأحمر» . وبمجرد أن وصل «بورنسيان» إلى الفندق سأل عن زوجة طبيب «أيونفيل» ، فأجابت صاحبة الفندق بأنها لا تتردد على فندقها إلاّ لماماً ، ولذلك عندما رأى القس مدام بوفاري في المساء في «العصفورة» قص عليها حيرته وارتباكه دون أن يبدو عليه أنه يعلق اهتماماً على الموضوع ، وذلك لأنه ابتدأ الحديث عن موضوع آخر ، وهو ثناؤه على واعظ أخذ يثير الإعجاب في

الكاتدرائية ، بحيث تتسابق السيدات إلى سماع عظته !

ولكن إذا لم يكن القس قد اهتم بأن يطلب إيضاحات ، فإن غيره قد يكون فيما بعد أكثر فضولاً ، ولذلك رأت من المفيد أن تنزل كل مرة في فندق «الصليب الأحمر» بحيث أن أهل قريتها الذين يرونها في السلالم لا يشكّون في شيء .

ومع ذلك فقد رآها السيد «ليريه» وهي تخرج من الفندق متأبطة ذراع «ليون» . وتملكها الخوف ، متصورة أنه قد يأخذ في الثرثرة ، وخصوصاً أنه ليس مغفلاً !

ولكنه بعد ذلك بثلاثة أيام دخل غرفتها وأغلق الباب ، وقال لها : «إنني قد أحتاج إلى المال !» .

وأعلنت أنها لا تستطيع أن تعطيه شيئاً . فأخذ يئن ، ويذكّرها بكل ما قدمه لها من خدمات .

والواقع أن «إيما» لم تكن قد دفعت حتى تلك اللحظة غير قيمة واحدة من الكمبيالتين اللتين وقّعهما «شارل» ، أمّا الثانية فقد قبل التاجر ـ بناء على رجائها ـ أن يستبدلها بكمبيالتين ، بل وجددهما لمواعيد طويلة . ثم استلّ من جيبه قائمة بالتوريدات التي لم يحاسب على ثمنها ، وهي الستائر والسجادة وقماش المقاعد وعدة أثواب وأدوات متنوعة للزينة ، يرتفع ثمنها ليصل إلى مبلغ ألفي فرنك تقريباً !

وطأطأت رأسها ، فاستأنف يقول : «ولكن إذا لم تكن لديكم نقود سائلة فلديكم عقارات !» .

وحدّد لها بيتاً حقيراً يقع في «بارنفيل» إلى جوار «أومال» ، وهو لا يغل دخلاً كبيراً ، وكان فيما مضى ملحقاً بمزرعة صغيرة ابتاعها السيد بوفاري الأب ، وذلك لأن «ليريه» كان يعرف كل شيء ، حتى مقدار الهكتارات واسم الجيران !

وقال : «لو أنني كنت في مكانكم لتخلّصت من الدين ، وبقي لي الفائض بعد ذلك» .

واعترضت «إيما» لصعوبة العثور على مشتر . فأعطاها الأمل بأن يجد مشترياً . ولكنها تساءلت عما يلزم لكي تستطيع أن تبيع .

فأجاب : «أليس لديك التوكيل؟» .

فوصلت إليها هذه العبارة كهبة هواء رطب .

وقالت : «اترك لي القائمة» .

فأجاب : «أوه ! . . لا داعي لهذا !» .

وعاد في الأسبوع التالي فخوراً بأنه قد استطاع بعد مساع مضنية أن يكتشف الشاري المدعو «لانجوا» ، الذي كان يتطلع إلى البيت دون أن يفصح عن الثمن !

فصاحت : «الثمن لا يهم !» .

وكان الواجب ـ على العكس ـ الانتظار ، وجس هذا المارد !

وكان الأمر يستحق العناء ، ولكنها لـمّا كانت لا تستطيع القيام بهذا السفر ، فقد عرض أن يذهب هو إلى المكان ، لكي يتفاوض مع «لانجوا» ، وبمجرد عودته أعلن أن المشتري قد اقترح أربعة آلاف .

وتهللت «إيما» لهذا الخبر .

وأضاف : «بصراحة هذا ثمن جيّد !» .

وقبضت نصف المبلغ فوراً . وعندما أخذ التاجر يصفي حسابه قال : «أقسم أنه ليؤلمني أن أراك تدفعين مثل هذا المبلغ المحترم مرة واحدة» .

وعندئذ نظرت إلى الأوراق النقدية وهي تحلم بعدد المواعيد التي لا حصر لها والتي يمثلها هذان الألفان من الفرنكات .

وتمتمت قائلة : «كيف؟ ! . . . كيف؟ ! . . .» .

فأجاب وهو يضحك في مظهر وديع : «أوه . . . إن الإنسان يضع كل شيء على الحساب . . . ألست أعرف المنازل؟» .

وأخذ يحدق فيها وهو يمسك في يده قائمتين طويلتين يتحسسهما بين أصابعه ، وأخيراً فتح حافظته ونشر على المائدة أربع كمبيالات كل منها بألف

فرنك ، وقال : «وقّعي لي هذه ، واحتفظي بالكل !» .

واستنكرت قوله مشمئزة .

ولكنه أجاب في وقاحة : «ولكنني أعطيك الفائض . . . أليس في ذلك خدمة لك أنت؟ !» .

ثم أخذ قلماً وكتب في أسفل قائمة الحساب : «وصل من مدام بوفاري أربعة آلاف فرنك» ، وأضاف قائلاً : «ماذا يقلقك ما دمت ستتسلّمين بعد ستة أشهر متأخر ثمن منزلك ، وما دمت قد حددت ميعاد آخر كمبيالة لما بعد الدفع؟» .

وارتبكت «إيما» قليلاً في هذه الحسابات ، وأخذت أذناها تطنان ، كأن قطعة من الذهب قد شقت أكياسها وأخذت ترن حولها على الأرض . وأخيراً أوضح لها «ليريه» أن له صديقاً اسمه «فانسار» صاحب بنك في «روان» ، وأنه سيخصم هذه الكمبيالات الأربع ، ثم إنه سيدفع بنفسه إلى السيدة ما يفيض عن الدين الحقيقي .

ولكن بدلاً من ألفي فرنك لم تفز إلاّ بألف وثمانمائة ، وذلك لأن الصديق «فانسار» أخذ مائتين كمصاريف عمولة وأجرة خصم !

ثم طلب متظاهراً بعدم الاكتراث أن تكتب له وهو يقول : «أنت تعرفين . . . في التجارة . . . أحياناً . . . . ومع التاريخ من فضلك ـ التاريخ . . .» .

وانفتح عندئذ أمام «إيما» أفق للنزوات الممكنة التحقيق ، وكان لديها من الحزم ما دفعها إلى أن تضع ألف فرنك من الاحتياطي ، وبوساطتها استطاعت أن تدفع قيمة الكمبيالات الثلاث الأولى عندما حل موعدها . ولكن الرابعة سقطت في المنزل مصادفة يوم خميس ، وانتظر «شارل» مضطرباً في صبر عودة امرأته ليطلب إيضاحات .

وإذا كانت زوجته لم تخبره بهذه الكمبيالة ، فإنما كان ذلك لكي تجنبه الهموم المنزلية ! وجلست فوق ركبتيه وداعبته وناغته ، وأخذت تعدد قائمة

طويلة من الأشياء الضرورية التي أخذتها على الحساب .

وأضافت قائلة : «ولا شك أنك تقدّر أن هذا الثمن ليس مرتفعاً بالنسبة إلى هذه الأشياء الكثيرة !» .

وعاد «شارل» إلى «ليريه» بعد أن استنفد كل أفكاره ، وأقسم التاجر أن يسوّي الأمور إذا وقّع السيد له كمبيالتين ، إحداهما بسبعمائة فرنك تدفع بعد ثلاثة أشهر . ولكي يغطي الموقف كتب إلى أمه خطاباً مؤثراً ، ولكنها بدلاً من أن ترد حضرت بنفسها . وعندما أرادت «إيما» أن تعرف ما إذا كان قد استخلص منها شيئاً أجاب قائلاً : نعم! ولكنها طلبت أن تطّلع على الحساب .

وفي صباح اليوم التالي أسرعت «إيما» عند بزوغ الشمس إلى السيد «ليريه» لكي ترجوه أن يعد قائمة حساب أخرى لا تتجاوز الألف فرنك ، وذلك لأنه لكي تظهر كمبيالة الأربعة آلاف كان لا بد أن تقول إنها دفعت الثلثين ، وأن تعترف تبعاً لذلك ببيع العقار الذي أحسن التاجر المساومة عليه ، والذي لم تعلم ببيعه فعلاً إلاّ بعد ذلك .

وبالرغم من رخص ثمن كل سلعة ، فإن مدام بوفاري الأم لم يفتها أن تلاحظ المبالغة في المصروف .

وأضافت قائلة : ألم يكن من الممكن الاستغناء عن سجادة؟ وما الداعي إلى تجديد قماش المقاعد؟ في أيامنا لم يكن في المنزل غير مقعد واحد للمسنين ، أو على الأقل كان هذا هو الحال عند أمي التي كانت سيدة راقية . أؤكد لكم أن كل إنسان لا يستطيع أن يكون غنياً! إن أية ثروة لا تستطيع أن تثبت مع الإسراف! إنه ليخجلني أن أدلل نفسي كما تفعلون! ومع ذلك فأنا عجوز وفي حاجة إلى العناية . ما هذه الأبهة والفخفخة : حرير للبطانة بفرنكين بينما يوجد قماش بنصف فرنك بل وربع فرنك يؤدي الغرض نفسه!

وأجابت «إيما» في هدوء مطلق وهي منطرحة على المقعد : «إيه يا سيدتي . . كفى . . . كفى . . .» .

واستمرت الأخرى تعظها وتنبأ بأنهما سينتهيان إلى المستشفى! كما أن

الخطأ يعود إلى بوفاري ، وأنه لمن حسن الحظ أنه وعد بأن يلغي التوكيل .

ـ كيف؟

ـ آه ، لقد أقسم لي بذلك .

وفتحت «إيما» النافذة ونادت «شارل» . واضطر المسكين إلى أن يعترف بالوعد الذي انتزعته منه أمه .

واختفت «إيما» ثم عادت مسرعة وهي تمد إليه في عظمة ورقة كبيرة .

فقالت السيدة العجوز : «أشكرك!» .

ورمت التوكيل في النار!

وأخذت «إيما» تضحك ضحكاً صارخاً صاخباً مستمراً ، إذ إنها قد أصيبت بأزمة عصبية . وصاح «شارل» قائلاً : «آه . . . يا إلـهي . . . إنك أنت الأخرى مخطئة . . لقد أتيت لتشني عليها حرباً!» .

وهزت أمه كتفيها وادعت أن كل هذا ليس إلاّ تمثيلاً .

ولكن «شارل» ـ الذي ثار لأول مرة ـ أخذ جانب الدفاع عن امرأته ، حتى إن مدام بوفاري ، الأم ، أرادت أن ترحل . وفي اليوم التالي رحلت بالفعل ، وعندما أراد «شارل» أن يثنيها عن الرحيل وهي واقفة على العتبة أجابت قائلة : «لا . . لا . . . إنك تحبها أكثر مني! سوف ترى . . . أتمنى لك العافية . . . وذلك لأنني لست مستعدة لأن أشن عليها معارك كما تقول!» .

ومع ذلك لم يكن «شارل» أقل ارتباكاً إزاء «إيما» التي لم تخف الموجدة التي بقيت في نفسها من نقص ثقته فيها . وكان لا بد من ضراعات متكررة قبل أن توافق على استرداد توكيلها ، بل واصطحبها عند السيد «جيومان» لكي يحرر لها توكيلاً ثانياً مشابهاً للأول تماماً .

وقال الموثق : إنني أفهم ذلك ، فرجل العلم لا يستطيع أن يشغل نفسه بتفاصيل الحياة العملية .

وأحس «شارل» بالراحة عندما سمع هذه العبارات الماكرة التي تضفي على الضعف مظاهر خداعة من الاهتمام بأمور أكثر سمواً .

•

يا لها من انفعالات تلك التي شهدتها غرفة الفندق في الخميس التالي مع «ليون»! لقد ضحكت «إيما» وبكت وغنت ورقصت وطلبت مثلجات من عصير الفاكهة الممزوج بالخمر، وأرادت أن تدخن السجاير، وبدت له مسرفة ولكن ساحرة رائعة. ولم يدر أي تفاعل في شخصها كان ذلك الذي يدفعها ـ أكثر من ذي قبل ـ إلى التهالك على لذات الحياة. وقد أصبحت عصبية، نهمة شهوانية. وأخذت تتنزه معه في الشوارع رافعة الرأس، ودون خوف ـ فيما تقول ـ من الفضيحة. ومع ذلك فإنها كانت ترتعد أحياناً عندما تمر برأسها فجأة فكرة الالتقاء بـ«رودولف»، وذلك لأنه كان يلوح لها أنها لم تتحرر تحرراً مطلقاً من التعلق به، بالرغم من أنهما قد افترقا إلى الأبد.

وفي مساء يوم لم تعد إلى «أيونفيل»، فطار صواب «شارل»، ولم ترد الصغيرة «بيرت» أن تنام دون أمها، فأخذت تبكي بكاء كاد يصدع صدرها. وانطلق «جوستان» على الطريق دون هدف، وترك السيد «هوميه» صيدليته بسبب هذا الغياب.

وأخيراً، في الساعة العاشرة، نفد صبر «شارل»، فأعد عربته وقفز فيها وساط الدابة، ووصل حوالى الساعة الثانية صباحاً إلى فندق «الصليب الأحمر»، ولكنه لم يجدها. وظن أن الكاتب قد رآها، ولكن أين يقيم هذا الكاتب؟ ومن حسن الحظ تذكر «شارل» عنوان رئيسه، فأسرع إلى هناك.

كان الفجر قد أخذ يظهر، ورأى لافتة على باب فندق، وصاح شخص من الداخل دون أن يفتح، مقدّماً المعلومات التي طلبها، وهو يسب أولئك الذين يقلقون الناس في الليل.

وكان المنزل الذي يقطنه الكاتب دون جرس ولا مدقة ولا بواب، فأخذ «شارل» يضرب بقبضة يده ضربات قوية على خشب النوافذ. ومر شرطي فتملكه الخوف، وانصرف وهو يحدث نفسه قائلاً (إنني مجنون... إنهم بلا ريب قد استبقوها لتناول العشاء عند السيد «لورمو»).

ولم تكن أسرة «لورمو» تقيم بعد في روان. فحدّث نفسه ثانية قائلاً (إنها قد تخلفت للعناية بمدام دي بروي... آه! إن مدام دي بروي قد ماتت منذ

ستة أشهر... أين هي إذاً؟).

وخطرت له فكرة، فطلب من مقهى دليل الهاتف، وبحث في سرعة عن رقم هاتف الآنسة «لميرور» التي تقيم في شارع «رينيل دي ماروكينيه رقم ٧٤».

وبينما هو يدخل في هذا الشارع إذ بزوجته تظهر هي نفسها عند الطرف الآخر، فرمى بنفسه عليها في تهالك أكثر من عناق، وهو يصيح: ما الذي استبقاك أمس؟

ـ لقد كنت مريضة.

ـ بأي مرض؟... أين؟... كيف؟...

ومرت بيدها فوق جبهتها ثم أجابت: «عند الآنسة لميرور».

ـ لقد كنت متأكداً من هذا، وكنت ذاهباً إلى هناك.

فقالت «إيما»: «أوه! لا داعي لذلك، فقد خرجت منذ هنيهة. ولكن في المستقبل اطمئن! فأنا ـ كما تقدر ـ لن أكون حرة إذا كنت أعلم أن أقل تأخير يزعجك على هذا النحو».

وكان هذا بمثابة تعهّد أعطته لنفسها بألا تبعد في شطحاتها. وعندما كانت تحس برغبة في رؤية «ليون» بعد ذلك كانت تنتحل أي سبب! ولما كان لا ينتظرها في مثل ذلك اليوم، فإنها كانت تذهب لتستحضره من مكتبه. وقد وجد سعادة كبيرة في الأيام الأولى، ولكن بعد قليل لم يعد يخفي الحقيقة، وهي أن رئيسه قد أخذ يشكو من هذا الاضطراب في العمل. وكانت تقول (آه... أوه.. تعال إذاً..).

وكان يطيع.

وكان من الواجب عليه أن يقص عليها كل مرة سلوكه كله منذ اللقاء الأخير. وكانت تطلب أشعاراً.. أشعاراً من أجلها.. قصيدة غرام تمجدها! ولكنه لم يصل قط إلى أن يقع على قافية البيت الثاني، وانتهى بأن نسخ مقطوعة من مجموعة أشعار.

•

اعتاد «ليون» ، في الرحلات التي كان يقوم بها لرؤيتها ، أن يتناول طعامه عند الصيدلي ، ولذلك رأى نفسه مضطراً بحكم اللياقة إلى أن يدعوه هو الآخر إلى الطعام .

فأجاب السيد «هوميه» : «بكل ارتياح ! وذلك فضلاً عن حاجتي إلى التجديد قليلاً لأنني قد أخذت أصدأ هنا . وسوف نذهب إلى المسرح ، والمطعم ، ونأتي ما نشاء من مرح» .

وتمتمت مدام «هوميه» في حنان ، وقد أزعجتها الأخطار الغامضة التي قد يتعرض لها : «آه يا عزيزي !» .

فقال الصيدلي : «ثم ماذا؟ هل ترين أنني لا أدمر صحتي التدمير الكافي بالحياة وسط هذه الروائح المنبعثة باستمرار من الصيدلية؟ ولكن هذا هو طبع النساء ! إنهن غيورات من العلم ، ومع ذلك يأبين أن يتمتع الإنسان بأية تسرية مشروعة . ولكن ثقي ، على أي حال ، بأنني سوف أسقط يوماً على «روان» ، وأننا سنطيح سوياً بالنقود !» .

كان الصيدلي فيما مضى يحذر مثل هذه العبارة ، ولكنه أخذ الآن يظهر بالمظهر الباريسي المستخف الذي رآه ملائماً للذوق الرفيع ، وأخذ يسأل ـ كجارته مدام بوفاري ـ الكاتب في نهم عن عادات وأخلاق سكان العاصمة ، بل وأخذ يتحدث بلهجتها الخاصة لكي يدهش من حوله من البرجوازيين فيقول : «يسخن الطاسة» و«يسلطن» و«يتجلى» . . . إلى بقية التعابير .

وهكذا شُدهت «إيما» في يوم خميس بأن تلقى في مطبخ «الأسد الذهبي» السيد «هوميه» في حلة السفر ، أي مغطى بمعطف قديم لم يكن معروفاً أنه يمتلكه ، بينما يحمل في إحدى يديه حقيبته وفي اليد الأخرى الوجاق الذي يدفئ فيه قدميه وهو في الصيدلية . ولم يخبر أحداً بمشروعه خوفاً من أن يقلق الزبائن لغيابه !

كانت تثيره فكرة رؤية الأماكن التي قضى فيها شبابه من جديد ، ولذلك لم يتوقف عن الكلام طوال الطريق . وبمجرد أن وصل قفز من العربة في

سرعة ، وأخذ يبحث عن «ليون» ، الذي حاول عبثاً أن يتخلص منه ، فإن «هوميه» قد جره إلى مقهى «نورمانديا الكبير» الذي دخله في عظمة دون أن يخلع قبعته ، مقدراً أن خلعها في مكان عام دليل قوي على الريفية !

وانتظرت «إيما» «ليون» ثلاثة أرباع الساعة ، وأخيراً أسرعت إلى مكتبه ، وقد ضلت في الافتراضات ، فاتهمته بعدم المبالاة ، كما اتهمت نفسها بالضعف ، وأمضت بعد الظهر ملصقة الجبين بزجاج النافذة .

كانا في الساعة الثانية لا يزالان متربعين على المائدة ، أحدهما أمام الآخر ، وقد أخذت الصالة الكبرى تخلو من الناس . كان «هوميه» منتشياً ، ولو أنه كان ثملاً بالبذخ أكثر منه بجودة الطعام ، وإن يكن نبيذ «بومار» قد أثار قليلاً من ملكاته . وعندما ظهرت العجة بالروم أخذ يعرض عن النساء نظريات لاأخلاقية . كان أهم ما يجذبه هو الأناقة ، فهو يعشق زينة أنيقة في جناح حسن الأثاث .

وكان «ليون» يرقب الساعة الدقاقة في يأس ، بينما الصيدلي يشرب ويأكل ويتكلم !

وقال فجأة : «لا بد أنك محروم في «روان» ، وإن يكن أحبابك لا يقيمون بعيداً من هنا !» .

وعندما أخذت الحمرة تعلو وجه الآخر ، أضاف قائلاً : «هيا ! فلنكن صرحاء ! هل تنكر أنك في «أيونفيل» . . .؟» .

فتمتم الشاب ، وأضاف الصيدلي : «عند مدام بوفاري ألا . . تداعب . . .؟» .

ـ من؟

ـ الخادمة !

لم يكن الرجل يمزح ، ولكن الغرور تغلب عند «ليون» ـ رغم أنفه ـ على الحذر ، فاستنكر ما سمع ! ثم إنه لم يكن يحب غير السمراوات .

وقال الصيدلي : «إنني أؤيدك ، فإنهن أكثر حرارة !» .

ومال على أذن صديقه وأخذ يوضح الأمارات التي تعرف بها المرأة الحارة المزاج ! ثم انطلق في استطراد عن علم الأجناس ، فالألمانية خيالية ، والفرنسية إباحية ، والإيطالية انفعالية !

وسأل الكاتب : والزنجيات؟

فقال «هوميه» : «هذا ذوق الفنان !» .

ثم نادى النادل وطلب كأسين .

فقال «ليون» وقد نفد صبره في النهاية : «هل ننصرف؟» .

فأجاب الصيدلي بالإنكليزية : «نعم !» .

ولكنه أراد قبل أن ينصرف أن يرى صاحب المطعم ، وأن يقدم إليه بعض التهاني !

وعندئذ ادعى الشاب أن لديه بعض المهام ، وذلك لكي يخلو بنفسه .

فقال «هوميه» : «آه ! سأصطحبك !» .

وبينما هو ينحدر معه في الشوارع أخذ يتكلم عن زوجته ، وأولاده ، ومستقبلهم ، وصيدليته ، ويقص ما كانت عليه من تدهور فيما مضى ، ودرجة الكمال التي وصل بها إليها !

وعندما وصلا إلى فندق «بولون» تركه ليون فجأة ، وتسلق السلم ، ووجد عشيقته في انفعال شديد .

وعندما سمعت اسم الصيدلي أخذها الغضب ، ولكنه أخذ يعدد الأعذار ، فالخطأ لم يكن خطأه ، وهل هي تجهل السيد «هوميه»؟ ! وهل يمكن أن تعتقد أنه يفضل صحبته؟ ولكنها دارت على عقبيها ، فأمسك بها وجثا على ركبتيه ، ولفّ ذراعيه حول خصرها في وضع مدله مليء بالشهوة والضراعة .

كانت واقفة ، وعيناها الكبيرتان الملتهبتان تنظران إليه في جد ، بل وفي هيئة تكاد تكون مخيفة ، ثم غامت عيناها بالدموع ، وانسدلت جفونها الوردية ، وارتجت يداها فحملهما «ليون» ، وعندها ظهر خادم يخبر السيد أن هناك أحداً يطلبه .

فقالت : «ستعود؟» .

ـ نعم !

ـ ولكن؟

ـ فوراً !

وقال الصيدلي عندما لمح «ليون» : «إنها حيلة أردت بها أن أقطع هذه الزيارة التي لاح لي أنها تضايقك ! هيا ! فلنذهب إلى بار «بريدو» لنتناول شراباً !» .

فأقسم «ليون» بأنه مضطر إلى أن يعود إلى المكتب ! وعندئذ أخذ الصيدلي يرسل النكات عن الأضابير والإجراءات القضائية !

وقال : فلتترك قليلاً فقهاءك ! ومن الذي يمنعك؟ كن شجاعاً ! هيا بنا .

وعندما ظل الكاتب مصراً على الامتناع عن الذهاب قال «هوميه» : «سأذهب إلى هناك أنا أيضاً ، وسوف أقرأ جريدة في انتظارك أو أقلّب صفحات مجموعة قوانين !» .

وظل «ليون» حائراً ورأسه يدور من غضب «إيما» وثرثرة السيد «هوميه» ، بل وربما من ثقل الطعام ! وكان الصيدلي قد أخذ يغريه وهو يردد : «هيا إلى محل «بريدو» ! إنه على مسافة خطوتين !» .

وعندئذ استسلم منساقاً إلى محل «بريدو» عن جبن أو غفلة ، أو عن ذلك الشعور الغامض الذي يسوقنا نحو الأشياء التي نبغضها أشد البغض . ووجدا «بريدو» في الفناء الصغير ، حيث كان يلاحظ ثلاثة غلمان يلهثون وهم يديرون عجلة كبيرة لآلة ضخمة تصنع المياه الغازية ، فأعطاهم «هوميه» بعض النصائح ، وأراد ليون عشرين مرة أن ينصرف ، ولكن الآخر كان يمسكه من ذراعه قائلاً : «بعد هنيهة ! سأخرج وسنذهب إلى جريدة «فنال دي روان» لنرى أولئك السادة ، وسوف أقدمك إلى «توماسان» !» .

ومع ذلك تخلص منه وجرى وثباً حتى الفندق ، ولكن «إيما» كانت قد غادرته !

كانت قد رحلت غاضبة وقد أصبحت الآن تبغضه ، ولاح لها إخلاله

بالموعد إهانة ، كما بحثت عن أسباب أخرى لتنفصل عنه ، فهو غير قادر على البطولة ، ضعيف مبتذل ، أكثر رخاوة من امرأة ، فضلاً عن أنه بخيل منعدم النخوة !

ثم أخذت تكتشف ، عندما هدأت ، أنها قد اغتابته بلا ريب ، ولكن انتقاصنا لمن نحب لا بد أن يقصينا عنهم قليلاً ، فالأصنام المعبودة لا يجب أن تمس ، وإلا فقدت طلاءها الذهبي الذي يلتصق عندئذ بأيدينا .

ثم أصبحا يتحدثان بعد ذلك اليوم عن أشياء بعيدة عن حبهما ، وفي الخطابات التي كانت ترسلها إليه «إيما» كان يجري الحديث عن الزهور والأشعار والقمر والنجوم ، وكلها رسائل بدائية لغرام أصابه الضعف ، وأخذ يحاول أن ينتعش بالمساعدات الخارجية ! وكانت تعد نفسها بسعادة عميقة في كل رحلة مقبلة ، ثم كانت تعترف بأنها لم تحس بشيء خارق للعادة . ولكن هذه الخيبة كانت تمحي تحت تأثير أمل جديد ، فتعود «إيما» إليه أكثر اشتعالاً ونهماً ، فكانت تتعرى في عنف ، وتنتزع شريط صدارها الرفيع الذي يدور حول ردفيها كما يتسلل الثعبان . وكانت تذهب على أطراف أصابعها العارية لكي تتأكد مرة أخرى من أن الباب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره في رعشة طويلة ، شاحبة صامتة جادة !

ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق شفتيها المتمتمتين ، وفي حدقتيها الضالتين ، وفي ضمة ذراعيها ، إسراف غامض مقبض ، يلوح لـ«ليون» أنه ينساب بينهما في تسلل وكأنه يود أن يفصل بينهما !

لم يجرؤ أن يلقي عليها أسئلة . ولكنه لما كان يدرك أنها ذات خبرة ، فقد قال لنفسه إنها لا بد قد مرت بمختلف تجارب الألم واللذة . وما كان يسحره فيما مضى أصبح الآن يخيفه قليلاً . وفوق ذلك فإنه أخذ يثور على امتصاصها لشخصيته امتصاصاً يتزايد يوماً بعد يوم ، حتى لقد أخذ يحقد عليها هذا الانتصار الأبدي ! بل وحاول أن لا يهتم بها ، ولكنه بمجرد سماعه وقع أقدامها

كان يحس نفسه جباناً ، كمدمني الخمر عندما يرون شراباً قوياً !

ومع ذلك فإنها في الحق لم تتخل عن أن تحيطه بأنواع من الرعاية ، فمن طيبات المائدة ، إلى أناقة الملبس ، إلى هيام النظرة . وكانت تستحضر من «أيونفيل» الورد في صدرها لكي تلقيه في وجهه ، كما كانت تظهر القلق على صحته وتقدم له النصائح عن سلوكه . ولكي تستبقيه مدة أطول ـ وقد رجت أن تساعدها العناية الإلـهية على ذلك ـ طوقت عنقه بنوط للعذراء . وكانت تسأله ـ كأم فاضلة ـ عن رفاقه ، وتقول له : «لا ترهم . . . لا تخرج . . . لا تفكر إلا فينا . . . أحببني !» .

وعلى أية حال ، فإنها لم تكن سعيدة ، ولا كانت سعيدة قط ! ومن أين يأتي إذاً هذا النقص في الحياة ، وهذا التعفن السريع الذي يصيب كل ما تتكئ عليه؟ . . . ولكن إذا كان في مكان ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة ، مليء بالحماسة والرهافة معاً ، قلب شاعر في مظهر ملاك ، عود ذو أوتار من نحاس ترتفع للسماء نغماته وهو يعزف أناشيد الزفاف العاطفية ، فلماذا لا تلقاه مصادفة؟ أوه ! يا له من مستحيل !! وفوق ذلك ، فلا شيء يستحق عناء البحث ، وكل شيء خادع .

كانت «إيما» تعيش مشغولة بنزواتها انشغالاً تاماً ، دون أن تعنّي نفسها بمسألة المال ، أكثر مما تعنّي بها نفسها أرشيدوقة !

ومع ذلك حدث مرة أن دخل عليها رجل هزيل المظهر ، ضارب إلى الحمرة ، أصلع ، معلناً أنه مرسل من السيد «فانسار» المقيم في «روان» ، ثم مد يده في تأدب ورقة !

كانت كمبيالة بسبعمائة فرنك مقيدة عليها ، وكان «ليريه» قد حولها لأمر «فانسار» بالرغم من معارضتها القوية .

وأرسلت خادمتها إلى منزله ، ولكنه لم يستطع أن يحضر .

وعندئذ أخذ الرجل المجهول الذي ظل واقفاً يتطلع يمنة ويسرة بنظرات مستطلعة ، يخفيها حاجباه الشقراوان السميكان ـ أخذ يسأل في مظهر ساذج :

«أي جواب أحمل للسيد «فانسار»؟» .

وأجابت «إيما» : «حسن ، قل له . . . إنه ليس عندي . . . وسيكون عندي في الأسبوع المقبل . . . فلينتظر . . . نعم ! الأسبوع المقبل !» .

وانصرف الرجل دون أن ينبس بكلمة .

ولكنها تسلمت في اليوم التالي عند الظهر إنذاراً . وقد أفزعها فزعاً شديداً منظر ورقة الدفعة ، وقد انتشر فوقها في عدة مواضع ، وبأحرف كبيرة «الأستاذ هران ـ محضر بوشيه» حتى إنها انطلقت مسرعة إلى منزل بائع القماش !

وجدته في دكانه مشغولاً بحزم لفة .

فقال : «خادمك ! أنا تحت أمرك !» .

ومع ذلك استمر في عمله ، تعاونه بنت صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها تقريباً ، محدودبة الظهر قليلاً ، وهو يستخدمها كساع وطاهية في الوقت نفسه .

ثم دقّ بحذائه فوق خشب أرضية الدكان ، وصعد أمام السيدة إلى الدور الأول ، وأدخلها في غرفة مكتب ضيقة ، حيث كان مكتب سميك من خشب الأنقاض ، فوق بعض السجلات ، التي يضمها ضماً أفقياً عمود من الحديد مثبت بقفل . وإلى جوار الحائط تحت قصاصات من القماش كانت تُلمح خزانة ، ولكنها في حجم يدل على أنها كانت تحتوي شيئاً آخر غير الكمبيالات والنقود . والواقع أن السيد «ليريه» كان يقرض على رهونات ! وفي هذه الخزانة كان قد وضع سلسلة مدام بوفاري الذهبية ، مع أقراط الأب «تيليه» المسكين الذي اضطر إلى أن يبيعها ، واشترى بقالة هزيلة مات فيها من الربو ، وسط شمعداناته التي كانت أقل اصفراراً من وجهه !

وجلس «ليريه» في كرسيّه الضخم المصنوع من القش وهو يقول : «ماذا جد؟» .

فأطلعته على الورقة وهي تقول : «خذ !» .

ـ ولكن ماذا أستطيع؟ !

فثارت غاضبة وهي تذكره بوعده بأن لا يدفع كمبيالاتها إلى التداول ، فأمّن على هذا القول ، ولكنه أضاف : «ولكنني كنت مضطراً أنا نفسي إذ كان السيف مسلطاً على عنقي !» .

فقالت : «وما الذي سيحدث الآن؟» .

قال : «آه ! الحكاية بسيطة : حكم من المحكمة ثم حجز . . . أمر تافه !» .

وكظمت «إيما» غيظها حتى لا تضربه ! وسألته في رفق عما إذا كانت هناك وسيلة لتهدئة السيد «فانسار» .

فقال : «حسن ! . . . نعم ! . . تهدئة «فانسار» ! إنك لا تعرفينه ! إنه أكثر وحشية من وحش ضار !» .

ومع ذلك كان لا بدّ من أن يتدخل السيد «ليريه» في الأمر .

فقال : «أنصتي إليّ ، إذاً ! يلوح لي أنني حتى الآن كنت طيباً معك إلى حد بعيد !» .

ثم فتح أحد سجلاته وقال : «انظري» .

وأخذ يصعد في الصفحة بأصبعه وهو يقول : «انظري . . انظري . . في ٣ . . . مائتا فرنك . . . و١٧ . . . مائة وخمسون . . . ٢٣ . . . ستة وأربعون . . وفي نيسان/ أبريل . . .» .

وتوقف كأنما يخشى أن يرتكب حماقة !

ثم أضاف : «وأنا لا أقول شيئاً عن الكمبيالات المقيدة على حساب السيد بوفاري : واحدة بسبعمائة فرنك ، وأخرى بثلاثمائة . وأما عن قروضك الصغيرة ، وعن الفوائد ، فهذا أمر لا ينتهي ، وإن الإنسان ليضل فيه ! ولن أتدخل فيه بعد الآن !» .

وأخذت تبكي ، بل ورجته بقولها : «يا سيدي الطيب «ليريه» !» .

ولكنه كان يلقي التبعة دائماً على هذا الكلب «فانسار» ! وفوق ذلك فإنه ليس لديه سنتيم واحد ! ولا أحد يدفع له الآن ! بل إنهم ليأكلون الصوف من فوق ظهره ! وصاحب دكان فقير مثله لا يستطيع أن يقرض !

وصمتت «إيما» ، فأخذ القلق يساور «ليريه» الذي أخذ يعض ريشة الكتابة . ثم استأنف قائلاً : «لو أنه أصبح لي يوماً شيء من الدخل . . . لاستطعت إذاً . . .» .

وقالت : «على أية حال فمتأخر «بارنفيل» عندما . . .» .

ـ كيف؟

وعندما علم أن «لانجوا» لم يكن قد دفع بعد ، لاحت عليه الدهشة ، ثم قال بصوت معسول :

ـ ونتفق كما تقولين . . .؟

ـ أوه . . . نتفق كما تشاء!

وعندئذ أغلق عينيه لكي يفكر ، وكتب عدة أرقام ، وأعلن أن في الأمر مشقة كبيرة وأنه أمر شائك ، وأنه ينزف ماله ، وأملى أربع كمبيالات كل منها بمائتين وخمسين فرنكاً بتواريخ استحقاق متدرجة بين كل تاريخ وآخر فترة شهر .

وأضاف قائلاً : «كل هذا على أن يستمع لي «فانسار» . وفضلاً عن ذلك فأنا لا أماطل . وقد اتفقنا! وأنا رجل مستقيم كحد السيف!» .

ثم أطلعها في غير اكتراث على عدة سلع جديدة وإن لم تكن أي منها في نظره جديرة بالسيدة!

وأضاف قائلاً : «عندما أرى ثوباً كهذا بثلث فرنك المتر ومضمون الصبغة! . . . ومع ذلك يصدقون هذا! والواقع أنهم لا يذكرون لهم الحقيقة» .

وقد أراد بهذا التصريح الماكر ، عن الآخرين ، أن يقنعها إقناعاً تاماً بنزاهته!

ثم دعاها لكي يطلعها على ثلاثة أذرع من الحرير كان قد عثر عليها أخيراً في إحدى التصفيات .

وقال «ليريه» : أليس جميلاً؟ . . . إنه يستخدم الآن كثيراً لتغطية ظهور المقاعد . . وهذه هي «الموضة» .

وفي خفة أسرع من خفة الحاوي ، لف الحرير في ورق أزرق ووضعه بين يدي «إيما»!

فقالت : «دعني على الأقل أعلم . . .» .

فقال وقد أدار لها ظهره : «آه! . . فيما بعد!» .

ومنذ المساء أخذت تستحث زوجها ليكتب إلى أمه كي ترسل إليهما بسرعة متأخر التركة .

وردت حماتها بأنه لم يعد لديها شيء ، فالتصفية قد انتهت ، وقد بقي لهم ـ فضلاً عن «بارنفيل» ستمائة فرنك كدخل سنوي سوف ترسلها إليهما كاملة بانتظام .

وعندئذ أرسلت «إيما» قوائم الحساب لعميلين أو ثلاثة من المرضى ، ثم توسعت في استخدام هذه الوسيلة التي نجحت فيها . وكانت تحرص دائماً على أن تضيف في ذيل كل قائمة عبارة «لا تخبروا زوجي بشيء ، فأنتم تعلمون مبلغ كبريائه . . . معذرة . . . خادمتكم . . .» . وكانت هناك بعض مطالبات فأوقفتها .

ولكي تحصل على نقود أخذت تبيع قفازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثيراً من الأشياء المهملة ، وكانت تساوم في شدة ، وكان دمها الريفي يدفعها إلى الكسب . وفي أثناء رحلاتها إلى المدينة كانت تتسوق بعض التوافه التي لا شك أن «ليريه» سيأخذها منها إذا لم تجد غيره . فكانت تشتري ريش نعام ، وخزفاً صينياً ، وكانت تقترض من «فيليسيته» ومن مدام «لو فرانسوا» ، ومن صاحبة فندق «الصليب الأحمر» ، ومن جميع الناس في أي مكان . وأخيراً دفعت بالنقود التي استلمتها من «بارنفيل» قيمة كمبيالتين ، وبددت الألف وخمسمائة فرنك الأخرى ، ووقّعت كمبيالات من جديد ، واستمرت على هذا المنوال .

ومع ذلك فإنها حاولت أحياناً أن تدوّن حسابات ، ولكنها اكتشفت أشياء مرهقة إلى درجة لم تستطع تصديقها . وعندئذ ابتدأت ترتبك بسرعة فتخلت عن كل شيء ، ولم تعد تفكر في شيء!

وأصبح البيت في هذه الفترة بالغ الكآبة . وكان الباعة يشاهدون وهم

خارجون منه بأوجه مكفهرة ، وكانت المناديل مطروحة فوق المدفأة ، و«بيرت» الصغيرة تلبس جوارب مثقوبة ما يثير اشمئزاز مدام «هوميه» . وتجرأ «شارل» في جبن على تقديم ملاحظة إليها ، فردت في عنف بأنها ليست هي المخطئة !

ولكن لماذا كل هذه الثورات العصبية؟ ! لقد أخذ يفسر كل شيء بمرضها العصبي القديم ، كما أخذ يلوم نفسه أنه يحاسبها على أمراضها كنقائص . وأخذ يتهم نفسه بالأنانية ، ويشعر بالرغبة في أن يجري ليقبّلها .

وجاء الخريف وأخذت الأوراق تسقط على نحو ما حدث منذ عامين عندما كانت مريضة ! فمتى ينتهي إذاً كل هذا؟

كانت السيدة في غرفتها ، ولم يكن أحد يصعد إليها ، كانت تستلقي هناك طول النهار ، متصلبة شبه عارية ، ومن وقت إلى آخر كانت تحرق بعض البخور الذي اشترته من «روان» ، ولكي لا تشعر في الليل لحم الرجل الذي ينام متمدداً إلى جوارها لصق جسمها ، أخذت تتجهم حتى انتهت بأن نفته إلى الطابق الثاني . وكانت تقرأ حتى الصباح كتباً مثيرة مليئة باللوحات الداعرة والحوادث الدامية . وكثيراً ما كان يأخذها الرعب فتطلق صيحة ، ويهرول «شارل» فتقول :

ـ «آه . . . اذهب عني !» .

وأحياناً أخرى كانت تحترق في شدة ، بذلك اللهب الداخلي الذي يضرمه الفجور ، وتنفعل وتلهث ، وتستيقظ رغبتها ، فتفتح النافذة وتستنشق الهواء البارد ، وتنثر في الرياح شعرها الكثيف ، وتنظر إلى النجوم ، وتتمنى غراميات أمير !!

وكانت تفكر فيه . . في «ليون» . . وكانت مستعدة لأن تعطي كل شيء مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهمها !

كانت تلك المواعيد هي أيام بهجتها . وكانت تود أن تكون أياماً بهيجة . وعندما كان «ليون» لا يستطيع أن يتحمل وحده النفقات ، كانت تكمل العجز في سخاء ، وكان هذا يحدث كل مرة تقريباً ، وحاول أن يقنعها بأنهما

سيجدان المتعة نفسها في مكان آخر ـ في فندق أكثر تواضعاً ـ ولكنه كان يلقى اعتراضات . وفي أحد الأيام أخرجت من حقيبتها ست ملاعق من العقيق كانت هدية الزواج التي قدمها لها الأب «روو» ، ورجت «ليون» أن يذهب بها فوراً ـ من أجلها ـ إلى بنك الرهونات . فأطاع ، بالرغم من أن هذا الإجراء لم يرقه ، وكان يخشى أن يتورط !

ثم هداه التفكير إلى أن يلاحظ أن عشيقته تتصرف تصرفات غريبة ، وأنهم ليسوا مخطئين عندما يحاولون فصله عنها .

والواقع أن مجهولاً كان قد أرسل إلى أمه خطاباً طويلاً غفلاً من التوقيع يخبرها فيه بأنه قد ضاع مع امرأة متزوجة . فكتبت إلى الأستاذ «ديفوكاج» الذي يعمل عنده ابنها . وكان هذا الأستاذ أميناً في هذا الموضوع ، إذ إنه أوقف «ليون» أمامه ثلاثة أرباع الساعة ، محاولاً أن يفتح عينيه وأن يحذره من الهاوية وأن مثل هذه المغامرة لا بد أن تضر فيما بعد بكل محاولة يقوم بها للزواج والاستقرار ، ورجاه أن يقطع العلاقة ، وإذا لم يكن يريد أن يقوم بهذه التضحية في سبيل مصلحته الخاصة ، فلا أقل من أن يقوم بها من أجله هو ، أي من أجل الأستاذ «ديفوكاج» .

وأخيراً أقسم «ليون» ألا يعود إلى رؤية «إيما» . ولام نفسه بأنه لم يحترم هذا القسم ، مقدراً كل ما يمكن أن تسببه له هذه المرأة من ارتباك وأقاويل ، فضلاً عن نكات زملائه التي كانوا يرسلونها في الصباح حول المدفأة . وفضلاً عن ذلك فإنه كان على وشك أن يصبح كاتباً أول ، وهذه هي اللحظة التي يجب أن يكون فيها مستقيماً .

لقد أصبح الآن يشعر بالضجر كلما انتحبت «إيما» فجأة فوق صدره ، وأصبح قلبه ـ كأولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يحتملوا غير قدر محدود من الموسيقى – أصبح يغفو من عدم المبالاة ، بضجة حب لم يعد يميز لطائفه .

لقد طالت معرفة أحدهما بالآخر حتى أصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاعف من اللذة ، وأصبحت تشمئز منه بقدر ما أصبح متعباً منها .

وقد أخذت «إيما» تجد في الزنى كل ما في الحياة الزوجية من رتابة مملة .

ولكن كيف الخلاص؟ . . ثم إنها بالرغم من إحساسها بوضاعة مثل هذه السعادة ، فإنها كانت متعلقة بها بحكم العادة ، أو بحكم الانحلال . وفي كل يوم كانت تزداد تكالباً ، واصلةً كل سعادة برغبتها في أن تكون سعادة أكبر ! وكانت تتهم «ليون» بخيبة آمالها وكأنه قد خانها ، بل وتمنت أن لو وقعت كارثة تؤدي إلى افتراقهما ما دامت لا تجد الشجاعة لتقرير ذلك .

ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الغرامية ، نزولاً على تلك الفكرة التي تقول بأن على المرأة أن تكتب دائماً إلى عشيقها !

لقد أصبحت الآن تشعر بتكسر دائم في جسمها كله ، بل وكثيراً ما كانت تتسلّم إنذارات وأوراقاً مدموغة لا تكاد تنظر فيها . وكانت تود ألا تظل حية ، أو أن تنام على الدوام !

وفي أحد أيام الأعياد لم تعد إلى «أيونفيل» ، وذهبت في المساء إلى حفلة رقص تنكرية ، وارتدت بنطلوناً من القطيفة وجوارب حمراء ، وشعراً مستعاراً مربوطاً بشريط ، ومصباحاً صغيراً فوق الأذن . وأخذت تقفز طوال الليل على صوت النفير المهتاج ، فالتف حولها الناس في حلقة . وفي الصباح وجدت نفسها في شرفة المسرح بين خمسة أو ستة أقنعة لعاملات وبحارة من رفاق «ليون» .

وانسحبت فجأة وتخلّصت من ملابسها التنكرية ، وقالت لـ«ليون» إنه لا بد لها من العودة . وأخيراً بقيت وحدها في فندق «بولون» . وكان كل شيء بالنسبة إليها غير محتمل حتى شخصها . وودت أن لو هربت كعصفور إلى حيث تسترد شبابها في جهة ما ، في الفضاء الناصع غير الملوث !

وخرجت وعبرت البولفار وضاحية المدينة حتى وصلت إلى شارع مكشوف يطل على الحدائق ، وأخذت تسير بسرعة فهدأها الهواء الطلق . وشيئاً فشيئاً أخذت أوجه الجمهور والأقنعة ورباعيات الرقص والشريات ، أخذ كل هذا يختفي كضباب تبدد .

ثم عادت إلى فندق «الصليب الأحمر» وألقت بنفسها فوق السرير في الغرفة الصغيرة بالطابق الثاني ، حيث كانت توجد صور من برج «نيل» . وفي الساعة الرابعة مساء أيقظها «هيفير» .

وعند عودتها إلى منزلها أطلعتها «فيليسيتيه» خلف الساعة الدقاقة على ورقة رمادية قرأت فيها : «بناء على الصيغة التنفيذية لحكم . . .» .

أي حكم؟ . . . والواقع أنهم كانوا قد حملوا إلى منزلها في اليوم السابق ورقة أخرى لم تدر بها ، ولذلك أخذها الذهول من هذه الكلمات : «أمر باسم الملك والقانون والقضاء إلى مدام بوفاري . . .» ثم قفزت عدة أسطر لكي تقرأ : «في ظرف أربع وعشرين ساعة وهو آخر مهلة» . . . ما هذا؟ . . . «يدفع مبلغ ثمانية آلاف فرنك» . بل وقرأت بعد ذلك بقليل «وسوف ترغم بجميع الطرق القانونية ، وخصوصاً بالحجز التنفيذي على أثاثها وممتلكاتها» .

ما العمل؟ . . . في ظرف أربع وعشرين ساعة ، أي غداً ! . . وظنت أن «ليريه» قد أراد بلا ريب أن يخيفها مرة أخرى ، فقد حدست لساعتها جميع مناوراته والهدف من مجاملاته . وكانت المبالغة نفسها في المبلغ هي التي طمأنتها .

ومع ذلك فإنها لكثرة ما اشترت دون أن تدفع ، ولكثرة ما اقترضت وقيّدت الكمبيالات وجدّدتها فتضخمت عند كل تجديد ، كانت قد انتهت بأن أعدّت للسيد «ليريه» رأس مال كان ينتظره بصبر نافد من أجل مضارباته !

ودخلت عنده في هيئة منطلقة وقالت : «هل تعلم ما حدث لي؟ . . إنه مزاح دون شك !» .

ـ لا !

ـ كيف ذلك؟ !

فالتفت نحوها بلا اكتراث وقال : «هل تظنين يا سيدتي الصغيرة أنني سأستمر حتى فناء الزمن في أن أكون متعهدك ، ومصرفك ، حباً في الله؟ ! . . يجب أن أسترد أموالي . . كوني عادلة !» .ونازعته في مبلغ الدين فقال : آه !

فليكن ! لقد اعترفت به المحكمة ! هناك حكم ! لقد أعلمناك به ! وفضلاً عن ذلك فهو ليس لي . . . إنه لـ«فانسار» ! .

ـ ألا تستطيع . . .؟

ـ أوه . . . لا أستطيع شيئاً على الإطلاق !

ـ ولكن . . . مع ذلك . . . فلتفكر .

وأخذت تبحث عن مخرج قائلة إنها لم تكن قد علمت شيئاً . . . لقد كانت مفاجأة !

وقال «ليريه» منحنياً في تهكم : «ومن المخطئ؟ . . . بينما أنا أكدح كالعبد إذا بك تقضين أوقاتاً طيبة» .

ـ آه ! لا أريد وعظاً !

فأجاب : «إنه لا يضر مطلقاً !» .

وكانت جبانة ، فتضرعت إليه ، بل وأسندت يدها الجميلة الطويلة البيضاء فوق ركبتي التاجر .

فقال : «اتركيني إذاً ! لكأنك تريدين أن تغويني !» .

فصاحت : «إنك رجل تعس !» .

فصاح ضاحكاً : «أوه ! . . أوه ! ما هذه؟ !» .

ـ سأفضح أمرك ! سأقول لزوجي !

ـ وأنا سأطلع زوجك على شيء ما !

وأخرج «ليريه» من خزانته إيصالاً بألف وثمانمائة فرنك كانت قد أعطته إياها عند الخصم الخاص بـ«فانسار» .

وأضاف : «هل تعتقدين أنه لا يفهم سرقتك الصغيرة ، هذا الرجل المسكين ! !» .

فانهارت ، وقد انصدعت أكثر مما لو كانت قد تلقت ضربة مطرقة . وأخذ يتمشى من النافذة إلى المكتب وهو يردد : «آه ! سأظهر له جيداً ! . . سأظهر له جيداً . . .» .

ثم اقترب منها ، وبصوت عذب قال : «إنه أمر لا يسر . . . أنا أعلم هذا ! ومع ذلك فإنه لم يسبب الموت لأحد . وما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تبقت لك لكي تردي إليّ نقودي ومالي . . .» .

وقالت «إيما» وهي تلوي ذراعيها : «ولكن أين أجد المال؟» .

ـ آه . . . يا . . . ! عندما يكون للإنسان أصدقاء مثلما لك .

ونظر إليها نظرة نافذة مخيفة ارتعدت منها حتى الأحشاء ، وقالت : «إنني أعدك . . . سأوقع !» .

ـ لقد شبعت من توقيعاتك !

ـ سأبيع أيضاً . . .

فقال وهو يهز كتفيه :

ـ تبيعين؟ ! . . . لم يعد لديك شيء !» .

وصاح من الكوة التي تطل من الحانوت «آتيت ! لا تنسي القصاصات الثلاث رقم ١٤ !» .

وظهرت الخادمة ، وفهمت «إيما» ، وسألت عما يلزم من مال لإيقاف جميع الإجراءات .

ـ لقد فات الأوان !

ـ ولكن إذا حملت إليك عدة آلاف من الفرنكات . . . ربع المبلغ . . . الثلث . . . كله تقريباً؟

ـ إيه ! . . لا . . ! لا فائدة !

ودفعها في رفق نحو السلم !

ـ إنني أضرع إليك يا سيد «ليريه» . . . بضعة أيام أخرى . . !

وأخذت تنتحب .

ـ هيا ! . . ماذا ! . . دموع؟ ! .

ـ إنك تدفع بي إلى اليأس !

وقال وهو يغلق الباب «هذا لا يهمني في شيء !» .

●

في اليوم التالي كانت «إيما» هادئة متجلّدة عندما تقدم منها المحضر الأستاذ «هاران» وآخران لكي يحرّروا محضراً بالحجز .

لقد ابتدأوا بمكتب بوفاري ، ولم يقيّدوا الرأس التشريحية التي اعتبرت من أدوات المهنة ، ولكنهم قيّدوا في المطبخ الأطباق والقدور والكراسي ، وفي غرفة نومها كل الأشياء الموجودة على الرف ، وفحصوا أثوابها وملابسها الداخلية ، وغرفة الزينة ، وكل متاع حياتها ، حتى الأركان الخاصة بأشد الأشياء اتصالاً بذاتها ، وكأنهم يقومون بعملية مساحة لأرض زراعية ! فانتشرت حياتها انتشاراً كاملاً أمام أنظار هؤلاء الرجال الثلاثة .

كان الأستاذ «هاران» في حلة سوداء ضيّقة مشدودة الأزرار ورباط رقبة بيضاء ، وفي قدميه خفّان تحت حذائه مشدودان في عنف ، وقد أخذ يردد من وقت إلى آخر : «هل تسمحين يا سيدتي؟ . . . هل تسمحين؟» .

وكثيراً ما كان يطلق صيحات إعجاب : «ساحر ! جميل جداً !» .

ثم يعود إلى الكتابة ويغمس سنان القلم في المحبرة التي يحملها بيده اليسرى !

وبعد أن انتهوا من المسكن صعدوا إلى مخزن الحبوب .

وهناك كانت تحتفظ بخطابات «رودولف» في درج خاص . وكان لا بد من فتحه .

وقال الأستاذ «هاران» في ابتسامة حيية : «آه ! مراسلات ! . . . ولكن . . . اسمحي لي ! لأنه من الواجب أن أتحقق من أن الصندوق لا يحتوي شيئاً آخر !» وحرك الأوراق قليلاً ، وكأنما يتوقع أن تسقط الجنيهات الذهبية ! وعندئذ أخذها الاشمئزاز من أن ترى هذه اليد الغليظة ، ذات الأصابع الحمراء الرخوة كالسحالي ، تمس هذه الصفحات التي خفق لها قلبها !

ولاح لها «شارل» في العشية مهموماً ، وأخذت ترقبه بعين مليئة بالقلق ، معتقدة أنها ترى اتهامات في تجاعيد وجهه .

وعندما كانت عيناها تتحولان إلى المدفأة المغطاة بالخزف ، وإلى الستائر

العريضة والمقاعد ، وبالجملة كل تلك الأشياء التي كانت قد خففت من مرارة حياتها ، كانت تحس بالندم ، أو على الأصح بالأسف الشديد الذي يثير العاطفة ، بدلاً من أن يقتلها . وكان «شارل» يقلّب الجمرات في هدوء وقدماه فوق المجمرة .

وحان وقت تململ فيه الحارس بلا ريب في مخبئه ، فأحدث ضوضاء خفيفاً .

وعندئذ قال «شارل» : «أسمع وقع أقدام في الأسفل» .

فقالت : «لا ! إنها كوة تُركت مفتوحة فهزتها الريح» .

*

وفي اليوم التالي ـ وكان يوم أحد ـ سافرت إلى «روان» ، لكي تلتقي جميع أصحاب البنوك الذين كانت تعرف أسماءهم . وكانوا في رحلة بالريف ، ولكنها لم تتراجع ، وطلبت نقوداً ممن التقت بهم ، مدّعية أنها في حاجة إليها ، وأنها ستردها ، فضحك بعضهم في وجهها ، ورفض الجميع !

وفي الساعة الثانية أسرعت إلى «ليون» ، ودقت بابه فلم يفتح ، وأخيراً ظهر !

ـ ما الذي أتى بك؟ !

ـ هل هذا يزعجك؟

ـ لا . . . ولكن . . .

وصارحها بأن صاحب المنزل لا يحب أن يستقبل النساء في داره .

فقالت : «إنّ لدي شيئاً أريد أن أقوله لك» .

وعندئذ أمسك المفتاح فمنعته قائلة : «أوه ! لا . . هناك . . . عندنا !» .

وذهبا إلى غرفتهما في فندق «بولون» . وشربت عند وصولها كوباً كبيراً من الماء ، وكانت شديدة الشحوب وقالت له : «ليون ! يجب أن تؤدي لي خدمة !» .

وأضافت وهي تهزه بيديها اللتين شدّت قبضتيهما : «اسمع ! . . . إنني في

حاجة إلى ثمانية آلاف فرنك!» .

ـ أمجنونة أنت؟!

ـ لا . . لم أجن بعد!

ولم تلبث أن قصّت عليه حكاية الحجز ، وعرضت عليه مأزقها ، وذلك لأن «شارل» كان يجهل كل شيء ، وحماتها تبغضها والأب «روو» لا يستطيع شيئاً ، ولكنه هو ، «ليون» سيجوب الآفاق لكي يعثر على هذا المبلغ الضروري!!

ـ كيف تريدين أن . . .؟

فصاحت : «يا لك من جبان!» .

وعند ذلك قال مهوناً عليها : «إنك تبالغين في المأساة ، فلربما هدأ هذا الرجل بألف فرنك» .

وكان هناك سبب آخر لمحاولة عمل شيء ما ، فلم يكن من الممكن ألاّ يعثر الإنسان على ثلاثة آلاف فرنك ، وفضلاً عن ذلك فإن «ليون» يستطيع أن يضمن القرض بدلاً منها!

فقالت : «هيا! حاول! هذا واجب! اجر! . . . أوه! حاول! سأحبك جداً!!» .

وخرج وعاد بعد ساعة ، وقال بوجه جاد : «لقد ذهبت إلى ثلاثة أشخاص . . . ولكن عبثاً!» .

ثم قبعا جالسين أحدهما في وجه الآخر عند ركني المدفأة جامدين لا يتحدثان . و«إيما» ترفع كتفيها وهي تزمجر ، وسمعها تتمتم قائلة : «لو أنني كنت في مكانك . . أنا ، لوجدت النقود!» .

ـ أين؟!

ـ في مكتبك!

ونظرت إليه!

وكانت جرأة جهنمية تنبعث من حدقتيها الملتهبتين . وتدانت أجفانها على

نحو شهواني مشجع ، حتى إن الشاب أحس بالضعف تحت تأثير الإرادة الصامتة لهذه المرأة التي تطلب إليه اقتراف جريمة! وعندئذ تملكه الخوف ، ولكي يتجنب كل إيضاح ضرب جبهته وهو يصيح قائلاً «إن «موريل» سيعود هذه الليلة! وسوف لا يردني خائباً ، فيما آمل (وكان هذا صديقاً له ، وابناً لتاجر وافر الثراء) وسأحمل إليك هذا غداً!» .

ولم يظهر على «إيما» أنها قد تلقت هذا الأمل بمثل ما تصوّر من فرح ، فهل كانت تشك في كلامه؟!

واستأنف وهو محمرّ الوجه : «ومع ذلك ، فإذا لم تريني في الساعة الثالثة فلا تنتظريني أكثر من ذلك يا عزيزتي! . . لا بد لي من الذهاب! . . . معذرة! . . . الوداع!» .

وشدّ على يدها ، ولكنه وجدها مرتخية ، فهي لم تعد قادرة على أي إحساس .

ودقت الساعة الرابعة ، ونهضت لكي تعود إلى «أيونفيل» .

استمرت في السير وهي تبكي تحت وشاحها ، ذاهلة مترنحة على وشك الإغماء .

وسُمع صوت خارج من بوابة تفتح : «الحذر!» .

ووقفت لكي تفسح في الطريق لحصان أسود يضرب الأرض بحوافره وهو مشدود إلى عربة فخمة يقودها أحد النبلاء مرتدياً فراء سمور! فمن يكون هذا الرجل؟ إنها تعرفه . . . وانطلقت العربة واختفت!

لقد كان هو الفيكونت! والتفتت إلى الخلف ، فكان الشارع خالياً ، وقد أحسّت بنفسها مثقلة حزينة ، إلى حد أنها استندت إلى جدار لكي لا تسقط .

ثم ظنت أنها قد أخطأت ، وعلى أية حال فإنها لم تكن تعلم عنه شيئاً .

وقد أخذ كل شيء في داخلها وخارجها يتخلى عنها . وأخذت تحس أنها ضائعة تتسكع على غير هدى في مهاوي لا حد لها ، وقد كادت تشعر بالفرح عندما لمحت ـ عند وصولها إلى فندق الصليب الأحمر ـ السيد «هوميه» ، الذي

كان يشرف على شحن صندوق كبير من سلع الصيدلية فوق «العصفورة» ، وكان يمسك في يده ـ داخل صرّة ـ ستة أرغفة من نوع خاص من الخبز لزوجته .

قال وهو يقدم يده إلى الأمام لكي يعينها على الصعود إلى «العصفورة» : «إني سعيد برؤيتك» .

وأخذ منظر الأشياء المعروفة التي تتتابع أمام عينيها يصرفها شيئاً فشيئاً عن ألمها الحاضر ، وأثقلها تعب لا يحتمل ، حتى وصلت إلى بيتها ذاهلة محطمة الروح ، شبه نائمة تقريباً .

وقالت لنفسها : «فليكن ما يكون !» .

«ثم من يدري؟ ولماذا لا يظهر من وقت إلى آخر حدث خارق؟ ! فـ«ليريه» نفسه يمكن أن يموت !» .

واستيقظت في الساعة التاسعة صباحاً على رنين صوت في الميدان حيث كان الناس متجمّعين حول السوق لكي يقرأوا إعلاناً كبيراً ملصوقاً على أحد الأعمدة ، ورأت «جوستان» وهو يصعد فوق حجر ويمزّق الإعلان ، ولكن الخفير أمسك بتلابيبه في تلك اللحظة ، وخرج السيد «هوميه» وكان يلوح على الأم «لو فرانسوا» أنها تعظ وسط الجمهور .

وصاحت «فيليسيتيه» وهي داخلة : «يا سيدتي ! إنها الكارثة !» .

ومدت الفتاة المسكينة إليها ، بانفعال ، ورقة صفراء كانت قد انتزعتها من فوق الباب . وقرأت «إيما» في لمحة البصر أن أثاثها كله معروض للبيع ! وعندئذ أخذتا تنظران إحداهما إلى الأخرى في صمت ، وذلك لأنهما ـ الخادمة والسيدة ـ لم يكن لإحداهما سر بالنسبة إلى الأخرى . وأخيراً تنهدت «فيليسيتيه» قائلة : «لو أنني كنت مكانك يا سيدتي لذهبت إلى السيد جيومان» .

ـ هل تظنين ذلك؟

وكان هذا السؤال يعني : «أنت التي تعرفين المنزل من طريق الخادم ، هل

يمكن أن يكون السيد «جيومان» قد تحدث عني أحياناً؟» .

ـ نعم ! اذهبي إلى هناك ، فإنك تحسنين صنعاً !

وارتدت ثيابها ، فلبست ثوباً أسود ، ذا طرطور محلى بحبات من الكهرمان الأسود . ولكي لا يراها أحد ، إذ كان الميدان لا يزال مليئاً بالناس ، سارت خارج القرية في الطريق المار على حافة الماء .

ووصلت لاهثة أمام منزل موثّق العقود ، وكانت السماء داكنة ، وقليل من الجليد يتساقط .

عند سماع الجرس ظهر «ثيودور» عند الشرفة في صدار أحمر ، وقد أتى لكي يفتح في غير كلفة ، وكأنه يفتح لأحد المعارف ، وأدخلها غرفة الطعام .

وفكرت «إيما» قائلة : «هذه غرفة طعام؟ ! كم أنا في حاجة إلى واحدة مثلها !» .

ودخل موثق العقود وهو يضم إلى جسمه ـ بذراعه اليسرى ـ معطفه المنزلي ذي الأوشحة ، بينما يخلع ويلبس في سرعة باليد الأخرى طاقيته المصنوعة من القطيفة البنية ، وقد وضعها في زهو فوق الناحية اليمنى ، حيث كانت تتدلى أطراف ثلاثة خصل شقراء ، أخذت من مؤخر رأسه ثم دارت حول جمجمته الصلعاء !

وبعد أن قدّم لها مقعداً ، جلس ليتناول الغداء ، وهو يعتذر كثيراً عن سوء أدبه .

قالت : «يا سيدي ! إني أود أن أرجوك . . .» .

ـ لماذا؟ هأنا أنصت إليك !

وأخذت تعرض عليه حالتها .

كان الأستاذ «جيومان» يعرفها ، بحكم الاتصال سراً بتاجر القماش الذي كان يجد لديه دائماً أموالاً للرهونات التي كان يطلب إليه أن يعقدها ، ولذلك كان يعرف أكثر منها القصة الطويلة الخاصة بهذه الكمبيالات ، التي كانت صغيرة في أول الأمر ، ثم ظهّرتها أسماء مختلفة ، وامتدّت مواعيد استحقاقها

إلى فترات طويلة ، وجُدِّدت باستمرار ، حتى كان يومٌ جمع فيه التاجر جميع إنذارات الدفع ، وكلف صديقه «فانسار» بأن يتخذ باسمه الخاص الإجراءات اللازمة ، وذلك لأنه لم يرد أن يظهر بمظهر المتنمّر بين أهل بلدته !

وكانت تمزج بقصتها ما تأخذه على «ليريه» من مآخذ ، وكان موثق العقود يرد عليها من وقت إلى آخر بعبارة تافهة . وبينما كان يأكل ويشرب النبيذ ، كان يحني ذقنه فوق رباط رقبته الأزرق زرقة السماء ، وكان يبتسم ابتسامة عجيبة فريدة على نحو ناعم غامض . ولكن عندما لاحظ أن قدميها مبلّلتان قال : «اقتربي من المدفأة . . . إلى أعلى ! . . في مواجهة الخزف !» .

وكانت تخشى أن تصيب هذا الخزف بالقذارة ، فاستأنف موثق العقود في شهامة قائلاً : «إن الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً !» .

وعندئذ حاولت أن تحرك قلبه ، وقد جاشت أشجانها ، وقصت عليه ضيق عيشتها ، ومصاعبها وحاجاتها . وكان يفهم هذا ، فالمرأة الرشيقة . . . ! ودون أن يتوقف عن الأكل ، التفت نحوها بكليته حتى مس حذاءها بركبته ، وكان نعل الحذاء المبتل قد أخذ ينحني ، والبخار يتصاعد منه وهو في مواجهة المدفأة .

ولكنها عندما طلبت منه ألف فرنك ، ضخّم شفتيه ، ثم أعلن أنه شديد الألم ، لأنه لم يتول فيما مضى إدارة ثروته عندما كانت هناك عدة وسائل مربحة للاستثمار حتى بالنسبة إلى السيدات ، إما في المناجم في «جرومستيل» ، أو في أرض «الهافر» حيث تمكن المغامرة المأمونة في مضاربات مثمرة . وتركها تتميّز من الغيظ لفكرة الأموال الضخمة التي كان من الممكن أن تكسبها على نحو مضمون !

واستأنف يقول : «كيف لم تأتي إليّ؟» .

فقالت : «لست أدري» .

ـ لماذا؟ هل كنت أخيفك؟ إنني أنا الذي يجوز لي على العكس أن أشكو ! فإننا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر ، ومع ذلك فإنني مخلص لك كل الإخلاص ، وأرجو أن لا يكون لديك شك في ذلك .

ومد يده وأخذ يدها ، وغطاها بقبلة نهمة ، ثم احتفظ بها فوق ركبته وأخذ يلعب في رفق بأصابعها ، وهو يسرد عليها فيضاً من المداعبات الناعمة .

كان صوته الفاتر يثرثر كالنهر الذي ينساب ، وانبثقت شرارة من حدقتيه من خلال زجاج نظارته ، وامتدت يداه في كمّ «إيما» لكي يجس ذراعها ، وأحست عند خدها هبة أنفاس لاهثة ، وكان هذا الرجل يضايقها مضايقة شديدة !

فنهضت في وثبة وقالت له : «يا سيدي إنني أنتظر !» .

وقال موثق العقود الذي علاه الشحوب الشديد فجأة : «ماذا تنتظرين؟» .

ـ النقود .

ـ ولكن . . .

ثم استسلم لانفجار رغبة شديدة العنف وقال : «هذا حق . . نعم ! . . .» .

وأخذ يجر نفسه على ركبتيه نحوها دون مراعاة لمعطفه المنزلي .

ـ من فضلك ابق في مكانك !

ـ إنني أحبك !

وأمسكها من خصرها .

وصعد فيض من الحمرة سريعاً إلى وجه مدام بوفاري ، وارتدّت إلى الخلف وهي تصرخ : «إنك تستغل يا سيدي حالة ضيقي في غير حيطة ! إنني أستحق الرثاء ولكنني لست للبيع !» .

وخرجت !

وأخذت تقول لنفسها وهي هاربة بخطى عصبية تحت أشجار الحور القائمة في الطريق : «يا له من حقير ! يا له من وغد !» . وقد ضاعفت مضاضة الفشل من ثورتها لعفتها المهانة ، وخيل إليها أن القضاء يصرّ على ملاحقتها ، وانتفخت كبرياء ، حتى خيل إليها أنها لم تشعر قط بمثل هذا الاحترام لنفسها والاحتقار للآخرين . واحتدمت بها نزعة إلى القتال ، فودّت أن لو ضربت الرجال وبصقت في وجوههم ، وسحقتهم جميعاً . واستمرت تسير مسرعة ،

شاحبة ، منتفضة ، هائجة ، ترمق بعين دامعة الأفق الخاوي وكأنها تتلذذ بالضغينة التي تخنقها .

وعطفت في طريقها يمنة كأنما تريد أن تولي وجهها شطر المقبرة .

ولكنها ما لبثت أن عرجت على دار المرضع التي أرضعت طفلتها ، فلم تكد تبلغها حتى صاحت بها :

ـ يا أم روليه ، إنني أختنق ، هلمي إليّ ، فكّي أزرار ثيابي .

وراحت تتهالك على الفراش باكية ناشجة ، فجاءت المرأة بقميص فلفتها فيه ووقفت بجانبها .

ولـمّا وجدتها قد سكتت ولم تعد تتكلم أو تتحرك غادرتها وتناولت مغزلها فراحت تغزل .

وسمعت صوت «إيما» وهي تقول لها :

ـ أواه . . أرجوك أن تكفي عن غزلك . ! اذهبي عني قليلاً .

فجعلت المرضع تسائل نفسها :

ـ تُرى ماذا حدث لها . . ولماذا جاءت إلى هنا؟

وقامت من الحجرة منصرفة يدفعها خوف رهيب إلى مغادرة البيت .

وكذلك ظلت «إيما» مستلقية شاردة العينين لا تبصر شيئاً ، وإن حاولت تحديقاً ، أن تنظر ملياً إلى الطلاء الزائل عن الجدران ، وإلى جذوتين من النار متأججتين في الموقد ، وعنكبوت كبير فوق رأسها .

وما لبثت أن أخذت تستجمع شوارد فكرها وشتات خواطرها ، فتذكّرت «ليون» .

أوه . . ما أبعد العهد الذي انقضى . .

وكانت الشمس تسطع على صفحة النهر ، وكان الهواء عليلاً ، والجو رائقاً صحواً ، ثم حملتها الذكريات كما تحمل العاصفة الجائحة كل شيء في طريقها على استعادة ذكرى ما وقع لها في اليوم السابق .

والتفتت إلى ربة البيت فقالت : كم الساعة الآن؟

فخرجت الأم «روليه» إلى الفضاء فظللت عينيها بيمينها وراحت تتطلع إلى الشمس . ثم رجعت فقالت لها إنها توشك أن تؤذن بالثالثة .

فأجابتها «إيما» قائلة :

ـ شكراً لك . . شكراً .

وإنه لا ريب سيجيء بعد قليل ، هذا شيء مؤكد ، ولعله قد وجد المبلغ ولكنه لن يحزر أين هي . . ولن يخطر بباله أنها الآن في دار المرضع . ولذلك طلبت إليها أن تذهب في الحال إلى بيتها فتخبره بأنها عندها وتجيء به على عجل .

وعجبت لنفسها كيف لم تذكره إلاّ اللحظة ولم تفكر فيه من قبل ، فقد وعدها أمس بشرفه ، ولن يخلف مثله وعده .

ومضت في إثر هذا الخاطر تتمثل نفسها وهي ملقية بالمال على منضدة «ليريه» هادئة مطمئنة ، ولكنها ستكون مضطرة إلى اختلاق قصة محبوكة الأطراف لتشرح بها كل شيء لزوجها . . . ماذ تراها إذاً قائلة له؟

وملت انتظار المرضع . . ما لها قد غابت طويلاً هكذا؟

ولم يكن في البيت ساعة جدار ولا ساعة جيب ، فعادت «إيما» تتخيل أنها قد بالغت في ظنها ، وأن المرضع لم تغب كما توهمت ، وأن مسافة الطريق تقتضي أكثر من ذلك وقتاً .

فانتظرت . . . ولكن الانتظار أمضّها وأقلق بالها . فبدأت تساورها شكوك أخرى وريب متزاحمة . . فلم تعد تشعر هل مضى عليها في مكانها ذاك قرن من الزمان . . أم لحظة يسيرة منه؟

وسمعت صرير المفتاح في قفل الباب فأجفلت ، ولكنها قبل أن تستطيع الكلام ابتدرتها الأم روليه قائلة :

ـ لا أحد في البيت .

قالت خائفة مروعة :

ـ ماذا تقولين؟

فأجابتها المرضع بقولها :

ـ لم أجد في البيت أحداً ، وإنما رأيت زوجك الطبيب يبكي لغيابك حزناً ، وهو يناديك نداء طويلاً . والقوم يبحثون عنك في كل مكان .

فلم تحر «إيما» جواباً ، وأخذت أنفاسها تتصاعد سراعاً وعيناها تختلجان ، حتى لقد أشفقت المرضع المسكينة من مشهدها فتراجعت بدافع الغريزة مجفلة خائفة ، وكأنما قد حسبتها جُنت أو فقدت شعورها .

ولكن «إيما» لم تلبث أن صرخت صرخة مدوية وضربت جبينها بكفها متذكرة ، لأنها في مثل وميض البرق الخاطف تذكرت رودولف فقد كان كريماً حانياً . . .

وانطلقت تريد مزرعة «لاهاشيت» . . وهي لا تفكر ولا تدري بأنها في ذهابها إليه إنما تريد أن تعرض نفسها عرضاً على ذلك الرجل الذي تنكر لها وغدر بها من قبل ، وأن مضيها على تلك الصورة لم يكن في الحق سوى البغاء المبتذل ، والعرض الممتهن .

•

وفي الطريق جعلت تفكر فيما ينبغي أن تقوله له ، وكيف تدخل بالموضوع عليه ، وجعلت كلما سارت وغذت المسير تذكر الأشجار التي طالما مرت بها ، والمشاهد التي طالما شهدتها في زوراتها له ، ولم تلبث أن شعرت بعاطفتها القديمة نحوه تعاودها .

واتخذت إلى القصر طريقها التي اعتادت الذهاب منها إليه ، وهي طريق البوابة الخلفية للحديقة .

ثم مشت إلى الساحة ، وكان سماطان من الأشجار يحفان بها ، والأغصان الفارعة تترنح وتزفر زفير العاشق الولهان ، وتتنهد تنهد المغرم الصبّ .

وأخذت الكلاب المربوطة بسلاسلها ، المقعية في مزاجرها تنبح لمرآها ، ولكنها لم تشهد أحداً تقدم على النباح ليرى من القادم ، فتقدمت تصعد السلم .

وكانت حجرة «رودولف» في أقصى البهو ، فلم تكد تبلغ الباب وتضع

يدها على مقبضه حتى خانتها قواها ، وتخاذلت ، إذ خشيت ألاّ يكون هناك ، بل لقد تمنت على ألاّ يكون في حجرته على حين أنه كان أملها الأوحد ورجاءَها الباقي .

ووقفت لحظة لتستجمع قواها المتهاوية ، محاولة تشجيع نفسها لتفكر في مأساتها ، وتذكر ضائقتها .

ودخلت الحجرة .

فإذا هو جالس قبالة الموقد يستدفئ وغليونه في فمه يرسل منه ذوائب الدخان الدائرية .

فلم يكد يراها داخلة عليه حتى قام مسرعاً وهو يقول :

ـ يا الله . . أهذه أنت؟ أهذه أنت؟

قالت : نعم . أنا . . وقد جئتك يا «رودولف» أطلب نصيحتك .

قال :

ـ أراك لم تتغيّري مطلقاً ! وأجدك حسناء فاتنة كآخر عهدي بك .

قالت بحزن ومرارة :

ـ أواه يا عزيزي ، إنها والله لبئست الفتنة وقد سخرت منها ولم ترع حرمتها ، ولم تعمل على الاحتفاظ بحقها .

فحاول أن يشرح لها سبب مسلكه معتذراً اعتذاراً مضطرباً ، متشفعاً بذرائع غامضة مبهمة سخيفة ، لأنه لم يجد ما يقوله ، ولم يسعفه خياله في هذه المباغتة على اختلاق أعذار مقبولة .

ولكنها تركت نفسها تتأثر وتستسلم لكلماته وأعذاره على علاتها . وقد استكانت لصوته ، وتأثرت بمشهده ، وتظاهرت بأنها اعتقدت صحة عذره ، وأخذت تنظر إليه نظرات متكسرة حزينة وهي تقول :

ـ لقد تعذبت من صدك كثيراً . . وحزنت على ذهابك طويلاً . . لقد كان عذابي أليماً حقاً .

ثم قالت : «على كل حال أرجو أن يكون حظك أنت من بعد فراقنا أسعد وأهنأ» .

قال : لم يكن في الواقع كذلك .

قالت : لقد كان خيراً لنا لو لم نفترق . . من يدري؟

قال : نعم .

قالت وهي تدنو منه وتتنهد من الأعماق :

ـ أتظن ذلك . . أواه يا «رودولف» . لو كنت تدري . لقد كنت أحبك الحب الكبير .

وتناولت يده ، وجلسا لحظات كمجلسهما يوم المعرض الزراعي ، ورأته صامتاً يجاهد نفسه ليستعيد حبه القديم .

فتهالكت عليه . . وارتمت على صدره قائلة :

ـ كيف سوّلت لك النفس أيها القاسي أن تظن أنني استغنيت عنك ، إن المرء لا يستطيع أن ينسى رغداً ولّى . لقد كنت في يأس ممض . . بينما ذهبت أنت عني وسلوتني .

وكان ذلك حقاً . . فقد فعل ذلك ثلاث سنين طويلة .

وهزت «إيما» الساحرة رأسها هزات عجيبة وقالت :

ـ أنت مغرم بنساء أخريات . نعم ، قل الحق ولا تخف شيئاً . . أنا أعرفك وأفهمك . ولا تخفى عليّ خافيتك . وأنا أعذرهن في حبك . . لأنك أضللتهن وأغويتهن كثيراً . ولكننا سنعود إلى ما كنا فيه . وسنبدأ الحب من جديد . انظر . . هأنذا ضاحكة راغدة وفرحة . . ألا حدّثني بعذب أحاديثك .

وكانت تبدو فاتنة تأخذ باللب ، والدموع تترقرق وتضطرب في عينيها أشبه بقطرات الندى الحيرى على ساق زهرة زرقاء . فأدناها إلى ركبتيه . . وراح يلاعب شعرها بكفه ، وكانت أشعة الشمس في المغيب تتساقط على جدائلها في تلك اللحظة .

ونكست رأسها . . وأخيراً أخذ يقبّلها في عينيها بطرف شفتيه .

قال : ولكنك تبكين . . فيمَ بكاؤك؟

فأخذت تجهش وتنتحب مليّاً . . فظن «رودولف» أن دموعها تلك رمز

حبها . ولكنه لما رآها مطيلة السكوت علّل ذلك بأنه مجاهدة منها للحياء . فانطلق يقول :

ـ أواه . . سامحيني يا «إيما» واغفري ما فرط من ذنبي . . أنت المرأة الوحيدة التي أحبها . . لقد كنت قاسياً لست أنكر . . إنني أحبك . . وسأظل الدهر على حبك . خبريني ما القصة . . نبئيني ماذا هنالك !

وجاء يجثو بجانبها .

قالت : الحق أقول يا «رودولف» . . لقد أوشكت أن أفتضح . . فهل لك أن تقرضني ثلاثة آلاف فرنك؟

قال مرتبكاً وهو ينهض شيئاً فشيئاً من جثوته :

ـ ولكن . . في الحقيقة . . إنني . .

ولم يتم عبارته .

فاسترسلت هي في عجلة واضطراب تقول :

ـ إن زوجي قد أودع ماله كله في يد أحد المحامين ، وقد فر ذلك المحامي هارباً ، فاضطررنا إلى الاستدانة ، وأضحى الزبائن والمرضى لا يدفعون وكسدت الصناعة .

ولم ننته بعد من تصفية تركة أبيه ، ولكننا قريباً سنصيب مالاً كثيراً منها ، وإنما نحن مطالبان في هذه اللحظة بثلاثة آلاف من الفرنكات ، فإذا لم ندفعها حالاً أنفذوا في هذا النهار الحجز على أثاث بيتنا وعرضوه للبيع .

واصفر «رودولف» واضطرب وجعل يقول لنفسه :

ـ «آه . . ألهذا السبب إذاً جاءت؟ !» .

ولما أتمت كلمتها انثنى يقول بكل هدوء :

ـ ولكني لا أملك هذا المبلغ يا عزيزتي .

وكان بلا شك يقول حقاً . . وكان ذلك الواقع تماماً . .

هذا هو ما اعتذر به ، بل لقد أنشأ يخبرها بأنه لو كان معه لما تأخر عن دفعه إليها . .

ونظرت «إيما» إليه لحظة طويلة وهي صامتة .

وانطلقت أخيراً تقول له مثنى وثلاث :

ـ أتقول إنك لا تملك هذا المبلغ !! لقد كان أجدر بي أن أنأى بنفسي عن هذا الموقف الخجل . . أنت لم تحبيني يوماً في حياتك . . وأنت وغد خائن ككل من حملت الأرض من الرجال .

ولكن «رودولف» قاطعها قائلاً إنه هو أيضاً مستدين غارق في الدين .

فاستضحكت وانثنت تقول متهكمة ساخرة :

ـ ما أشد أسفي لك . . مسكين . . أمدين أنت؟

وخرجت من عنده ذاهلة يخيل إليها أن الأرض تميد بها وكان الظلام يوشك أن يعم الكون .

ولمحت الأنوار في الدور والبيوت فتولتها حاسة جديدة ، حاسة امرئ مستخف بكل شيء ، فراحت تسرع الخطى نحو حانوت الصيدلي ، ودخلت متسللة فوجدت الغلام «جوستان» أمامها فبادرته قائلة :

ـ عليّ بمفتاح الغرفة العليا حيث . .

فبهت «جوستان» من مشهد وجهها الشاحب ، فتوجس شراً ولم يجب ، فعادت تقول بصوت رفيق ضارع :

ـ جئني بالمفتاح .

وسمعا من خلال الحاجز الفاصل بين الحانوت والبيت قعقعة الملاعق والشوك في قاعة الطعام ، فادعت أنها تريد المفتاح لكي تجد دواء يقتل الفئران الكثيرة في بيتها .

قال :

ـ ولكن ينبغي أن أخبر السيد «هوميه» .

قالت :

ـ لا ضرورة لإزعاجه .

فتقدمها إلى باب الغرفة ، ومشت هي إلى الرف الثاني من رفوفها ،

وتناولت زجاجة زرقاء كانت تعرفها من لونها ، فتناولت قدراً من مسحوق أبيض وذهبت تبتلعه ، فحاول إمساكها ولكنها ثنته عنها فحار في أمرها .

وهمّ بأن يستغيث ولكنها منعته ، وتركته عائدة إلى البيت .

وقد زال عنها ما بها كأنما قد أدت واجبها .

ولـمّا عاد زوجها إلى البيت ، قبل وصولها ، وعرف أن هناك حجزاً في بيته ، ذهب يبحث عنها مضطرباً باكياً ، وبعث بالخادمة إلى منازل الجيران تتفقدها بينما لبث هو يندب وينتحب .

وطال غيابها فمضى في القرية هائماً على وجهه يبحث عنها ، ولكنه لم يجدها ، فقفل راجعاً إلى البيت فوجدها قد عادت في غيابه .

فبادرها سائلاً : ما الخطب يا عزيزتي؟

وكانت جالسة إلى منضدتها تختم غلاف كتاب كانت قد فرغت من كتابته ، فأجابته :

ـ اقرأ هذا غداً أمّا اليوم فلا تسألني أية أسئلة .

ـ ولكن . .

ثم صاحت به محتدة تقول :

ـ أرجوك . . دعني وحدي . .

وارتمت على فراشها ممددة تستقدم طيف الكرى .

ولكنها لم تلبث أن تنبّهت من إغفاءتها على مرارة في حلقها وطعم كريه في فمها .

غير أنها لم تكد تفتح عينيها وتبصر زوجها أمامها ، حتى أغمضتهما ثانية ، وأخذت تراقب حركة أمعائها لكي ترى هل من ألم هناك في عضو من أعضائها ، مناجية نفسها :

ـ ما لي أرى الموتَ هيناً . . وكنت أحسبه من قبل مخيفاً ! كل ما هنالك أني أذهب في سبات عميق ، فتمضي الحياة ويحل الموت ، وتنتهي المأساة على أهون سبيل .

وشربت شربة من الماء وتولت بوجهها إلى الجدار لتنام ، ولكن طعم المرارة الكريه في فمها ظل يشتد ويزداد ، وغمغمت تقول :

ـ أواه . . أشعر بظمإ شديد . . جيئوني بشربة ماء .

فقال «شارل» وهو يمد إليها يده بما طلبت :

ـ ماذا جرى لك؟ ! ألا تقولين لي ماذا أصابك !

قالت :

ـ لا شيء . . افتح النافذة . . إنني أختنق .

وطفق يسألها ماذا أصابها ، وهي لا تجيب على أسئلته مستلقية في فراشها لا حراك بها ، حتى أحست أخيراً برودة كالثلج أخذت تتصاعد من قدميها إلى قلبها .

فغمغمت تقول :

ـ أواه . . لقد ابتدأ . .

وقال زوجها مبهوتاً :

ـ ماذا تقولين؟ وأي شيء هذا الذي ابتدأ؟

فحرّكت رأسها ببطء كمن هو في عذاب شديد ، وظلت فاغرة فكيها كأن شيئاً ثقيلاً حط على لسانها .

وفي المساء عاودها الغثيان ، ولاحظ «شارل» رواسب بيضاء قد لصقت بجدار الآنية الخزفية ، فظل يردد قوله :

ـ هذا شيء عجيب ! شيء غير مألوف !

ولكنها انفجرت فيه قائلة :

ـ كلاّ . . أنت مخطئ . . لا شيء مطلقاً .

وأخذت تئن وهي تكبت أنينها ، ثم ما لبث كتفاها أن ارتعشتا . وتزايد شحوب وجهها حتى أضحى في مثل بياض الغطاء الذي التحفت به ، وهبط نبضها فلم يعد من خفوته محسوساً ، وأخذ العرق يتفصد من جبينها ويتساقط قطرات على وجهها . وقد أخذ هذا الوجه الجميل البديع يميل إلى الزرقة رويداً

رويداً ، وجعلت أسنانها تصرف صريفاً متوالياً ، وعيناها تشردان .

وألقى زوجها بنفسه على فراشها ، وقال :

ـ أخبريني ماذا تناولت؟ نبئيني الحقيقة ناشدتك الرحمة .

وكانت عيناه تختلجان شفقة وحزناً ورأفة وحباً .

فغمغمت بصوت متحشرج متقطع : هناك . . هناك . . اقرأ .

فهُرع إلى المنضدة وتناول الكتاب وفض غلافه ، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع هذه الكلمات :

(لا تتهموا بموتي أحداً . . !) .

وأمسك . . ورفع يديه إلى عينيه فمسح بها ناظريه ، وعاد يقرأ ما تلا . .

ولم يلبث أن صرخ قائلاً : ماذا أرى؟ ! النجدة . . النجدة .

ولم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً أكثر من ترديده كلمة (مسمومة . . مسمومة !) .

وأخذ يهرول في الحجرة باكياً مذهوب اللب ، متعثراً يصطدم بالمقاعد ، ويرتطم بالكراسي وأجزاء الأثاث ، ويجتث شعره . وجاء الصيدلي «هوميه» مسرعاً يقول : ما أقبح هذه الليلة ! لم أر في حياتي أشد منها هولاً ولا أنكر ، ولم أبصر يوماً مشهداً أكثر رهبة من هذا المشهد .

وبادر بالرجوع إلى بيته ليكتب إلى السيد «كانيفيه» ، والدكتور «لاريفيير» . ولكنه من فرط اضطرابه لم يعرف كيف يكتب ، فطفق يغيّر الكتاب مرات ومرات .

وعمد «شارل» إلى معجمه الطبي فأكبّ عليه يستشيره ، ولكنه لم يهتد إلى شيء لأنه لم يبصر شيئاً ، فقد زاغ بصره ورقصت السطور أمام عينيه .

وأقبل الصيدلي عليه فقال :

ـ يجب أن تهدئ أعصابك . حاول ذلك يا صديقي ما استطعت . . فإن الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله في هذه الحالة هو إعطاؤها دواء مقيّئاً . ما نوع السم الذي تعاطته؟

فأراه «شارل» الكتاب . . فإذا هو الزرنيخ . قال :
ـ إذاً . . يجب أن نجري تحليلاً له .
وكان الصيدلي يعرف أن لا بد من التحليل في جميع حالات التسمم .
وكان «شارل» أجهل الناس بذلك ، فجعل يقول له افعل ذلك إذاً في الحال !
وعاد إليها فجثا على الأرض ، وألقى رأسه على حافة السرير ، وأسلم نفسه للبكاء والنحيب .
قالت : لا تبك . . إنني سأريحك من عذابي . نعم لن تتعذب من أجلي بعد اليوم .
قال : لماذا فعلت ذلك لماذا؟ ! وما الذي دفعك إليه؟
قالت : لقد كنت مضطرة إليه يا عزيزي .
قال : ألم تكوني سعيدة في حياتك؟ أكان ذلك خطئي؟ ! لقد فعلت كل ما في وسعي أن أفعله لإسعادك . . أفكنت الملوم؟
قالت : كلاً . . لقد كنت كريماً حنوناً .
وراحت تلمس شعره بكفها ، فزاده ذلك حزناً على حزن ، وشعر بأن حياته كلها قد تداعت وتحطمت . . أمّا هي فلم تعد تكره أحداً أو تحقد على أحد . ولم تعد تسمع من أصوات الدنيا وضوضاء الأرض غير نحيب فؤادها المسكين وعويل قلبها الخافت وقد بدا إذ ذاك من خفوته أشبه شيء برجع صدى لحن بعيد متبدّد في الفضاء .
وتحاملت قائلة : جيئوني بطفلتي .
قال : أتشعرين بألم آخر؟
قالت : كلاً . . كلاً .
وجيء بالطفلة وقد حملتها مرضعتها ، والصغيرة في منامتها وهي عابسة مقطبة لا تزال تحت تأثير النوم وسلطان النعاس . . تسائل أين أمها . ولـمّا رأتها قالت لها :
ـ ما أشد اتساع حدقتيك يا أماه وما أشد شحوب وجهك !
فقال أبوها :

ـ أبعدوها . . أبعدوها . . وكان واقفاً ينتحب في ناحية .
وسكتت «إيما» قليلاً وهدأت ، فكان «شارل» كلما رآها تتكلم أو تتنفس بهدوء يحمد الله . ويرجو خيراً .
ولـمّا جاء الطبيب «كانيفيه» ودخل الحجرة ترامى على صدره ناشجاً باكياً وهو يصيح قائلاً : أهذا أنت؟ شكراً لك . إنها اللحظة أفضل حالاً . انظر إليها .
ولكن زميله لم يكن يشاركه هذا الرأي مطلقاً ، وراح يصف لها مقيئاً . وأخذت تنفث دماً . . وتقلصت شفتاها . . وتشنّجت أطرافها . . وظهرت بقع سود طافحة على بدنها . . وأخذ نبضها يدق أشبه شيء بوتر يوشك أن ينقطع . وبينما هي كذلك إذا بهم يسمعون حركة سوط يلوّح به في الهواء وصوت عجلات ، وكان القادم الطبيب «لاريفيير» ولو أن ملكاً من السماء جاء في تلك اللحظة لما كان لمجيئه ذلك التأثير الذي أحدثه .
ولـمّا رأى «لاريفيير» وجه «إيما» وهي مستلقية على ظهرها فاغرة فمها ، وضع أصبعه تحت أنفه وجعل يهز كتفيه قليلاً ودار ليذهب .
فصاح به «شارل» قائلاً : أذاهب أنت؟
قال : سأعود بعد لحظة .
وأخذ «كانيفيه» معه كأنما يريد أن يسمعه أمراً ، وهو في الواقع يطلب فراراً . وكان هذا الأخير كذلك لا يريد أن يشهد احتضارها ، أو يمكث لتحل اللحظة الأخيرة وهو لا يزال في البيت .
وما لبث القس «بورنسيان» أن لاح على الطريق قادماً ، وأقبل فأدى فريضته الدينية في مثل هذه الحال . وما كاد أن ينتهي من شعائره حتى تولّت «إيما» هزة أخرى ، ثم سكنت ، ولـمّا تقدموا منها ليروا ماذا ألمّ بها . . ألفوها جثة هامدة .

•

والحق أنه عقب الوفاة يسود الناس شيء من الذهول ، إذ يصعب على الحيّ الواقف على مشهد الميت الذي فارق العالم أن يدرك حقيقة ما جرى أو

يسلم خاطره إلى اعتقاد ما كان .

أمّا «شارل» فإنه لم يكد يراها قد جمدت ولم تعد تتحرك حتى ارتمى عليها وهو يعول ويصيح قائلاً : الوداع . . . ! الوداع . . . !

ولكن «كانيفيه» و«هوميه» أمسكا به فأخرجاه من الحجرة وجعلا يعزيانه ويشجعانه وينصحان له ألا يستسلم لحزنه ، فمشى بينهما وهو يحاول الفكاك منهما . . .

وأخذ يبكي مليّاً .

وانثنى «هوميه» إليه فقال :

ـ ابك ما شئت ، فإن البكاء يفيدك ويخفف وقع المصاب عليك . إن للطبيعة سَبيلها . فدع لها فيضها تسكن وتهدأ .

ولم يلبث «هوميه» أن انصرف إلى بيته ، إذ كان مضطراً إلى أن يرسل كتابين إلى الصيدلية ، أو وصفتين ، لكي يبتكر أكذوبة لإخفاء حقيقة الوفاة وسببها ، ويعلن في الناس أنها لم تكن تقصد إلى الانتحار .

وما كاد ينبئ أهل القرية أنها تناولت الزرنيخ تحسبه سكراً ، ويتبيّن أن الإشاعة التي اصطنعها قد سرت في القرية وذاعت ، حتى عاد إلى صديقه «بوفاري» فوجده وحيداً جالساً قبالة النافذة وهو شارد البصر كمن فقد لبه . فقال له :

ـ ينبغي أن تعيّن موعد التشييع . . .

فقال مذهولاً :

ـ أي تشييع؟ . .

ولكنه ما لبث أن تذكر فقال بصوت متردد مضطرب متهدج :

ـ آه . . . التشييع . . ولكني لن أشيعها . . سأبقيها معي هنا . . لن أدعها تحمل من بيتنا .

ولم يجرؤ «هوميه» على فتح موضوع الجنازة فأغرى القس بأن يتولى هو ذلك ، فمضى هذا يكلم «شارل» ويقنعه أن ذلك أمر لا مفر منه .

ظل «شارل» في ذهول يصعدُ وينزل ، ويتنقل في أرجاء البيت مشدوهاً لا

يعي شيئاً ، ودخل في تلك الهنيهة فوقف بجانب سريرها ليراها عن قرب ، وهو في ذهول ينظر شارد البصر ولا يقول شيئاً ، ولا يعي ما حوله .

وحضرت مدام بوفاري العجوز في بكرة النهار فلم يكد «شارل» يلقاها حتى انفجرت دموعه وارتفع صياحه وعويله .

وأمّا الصغيرة «بيرت» فذهبوا بها إلى دار «هوميه» لتلعب مع الأولاد ، وبقيت «فيليسيته» في الطابق الثاني مع مدام «لو فرانسوا» .

وفي المساء جاء بعض المعزين فنهض «شارل» لاستقبالهم ، وجعل يصافحهم وهو صامت لا يقول شيئاً ، ثم عاد إلى مجلسه بجانب الموقد مع الزوار وقد أحاطوا بالنار المشبوبة في المدفأة مطرقي الرؤوس ، متنهدين بين لحظة ولحظة ، وقد ملوا جميعاً هذه الجلسة الطويلة الساكنة الثقيلة ، ولكن لم يشأ أحدهم أن يكون أول منصرف .

ولم يلبث «هوميه» أن غرق في النوم ، وما عتم القس بعد تقليب صفحات كتاب أدعيته وصلواته أن حذا حذوه .

ولـمّا دخل عليهما «شارل» لم يشأ أن يوقظهما ، بل كان غرضه من الدخول أن يلقي على «إيما» النظرة الأخيرة .

ووقف طويلاً يفكر في هنائه الضائع ، وسعادته المولّية ، ويتذكر حركاتها وسكناتها وصوتها ونغماتها .

وأخيراً انتابته نوازع الفضول ، فمد يده ورفع ببطء النقاب عن وجهها بأطراف أنامله .

وإذ ذاك صرخ صرخة الأسى والرعب ، فاستيقظ النائمان على صياحه وقاما إليه فأخرجاه من الحجرة .

وتحمّل «شارل» عذاب الصبر ساعتين ، وهو يسمع صوت المطارق لإعداد النعش والصناديق التي وصّى بصنعها ، ولـمّا تم ذلك حملوها في نعشها إلى الخارج ، فتقاطر سكان القرية واحتشدوا لتشييع الجنازة . ولـمّا وصل الشيخ «روو» أبوها أغمي عليه إذ رآهم خارجين بالنعش إلى مقره الأبدي .

*

الخاتمة

لم يكن الشيخ «روو» قد تلقى النعي إلا بعد مضي ست وثلاثين ساعة على الوفاة ، وكان «هوميه» هو الذي كتب إليه . وقد حرص في كتابه على أن يجعل الكلام مبهماً ، فلم يفهم الشيخ حقيقة الأمر من خلال سطوره ، فجاء إلى ابنته وهو يحسب أنها مريضة في خطر ، ولكنه لـمّا وصل وشهد ذلك المنظر ، خرّ صعقاً كمن أصيب بصرع .

وأخذت النواقيس تدق ، وبدأت الجنازة والشعائر المقررة .

وجعل «شارل» يتخيّل أنها قد ذهبت في سفر بعيد ، ومضت إلى رحلة نائية هي على الأيام منها آتية ، ولكنه عاد يتذكر أنها هنالك في ذلك النعش المغلق المسمر ، وأن كل شيء انتهى ، وكل أمر انقضى ، وأنهم سائرون بها إلى المضجع الأبدي ، والمثوى الأخير ، فأخذته نوبة يأس .

ودقت النواقيس ثانية . . وحمل النعش وخرجوا به من الكنيسة .

ومشى «شارل» في مقدمة الجنازة . . وجعل يحني رأسه لكل من رآه واقفاً على جانب الطريق .

وحمل النعش ستة رجال . . ثلاثة منهم على كل جانب . وساروا به الهوينا . . ثقال الخطى . يلهثون قليلاً . والقس وشمامسته يرتلون في أثره .

ومشت النساء حاملات شموعاً مضاءة مستطيلة .

وهب النسيم فجعل بين لحظة وأخرى يرفع الحجب السود عن الوجوه وقد بللتها دموع بيض كاللجين .

وسقط «شارل» بجانب القبر جاثياً ، وجعل يأخذ التراب ويهيله صائحاً باكياً : «الوداع . الوداع . .» وهو يزحف كأنما يريد أن يلقي بنفسه في إثر زوجته .

ومشوا به منصرفين . . فلم يلبث أن هدأ وسكن . وكأني به قد شعر كما شعر المشيعون جميعاً بشيء من الراحة والرضى بأن الأمر قد قضي . . والمهمة قد انتهت .

ولـمّا عادوا من الجنازة جلس الشيخ «روو» يدخن غليونه ساكناً هادئ الروع .

وفي صباح اليوم التالي أرسل «شارل» في طلب ابنته ، ولـمّا جاءت وسألت عن أمها قال لها إن أمها سافرت . . وستعود إليها بلعب ودمى طريفة .

وجعلت «بيرت» الصغيرة تتكلم عن أمها مرّات . . ومرّات . . ثم لم تلبث أن كفت عن ذلك ولم تعد تذكرها .

ورأى «شارل» الطفلة في مرحها ولعبها في البيت فزاده ذلك حزناً على حزنه .

وما عتّمت مسألة ديونه أن حلت عليه فشغلته وأهمته ، فاضطر أن يتحمل أفدح الديون ، وأن يأخذ على نفسه أبهظ المبالغ ، مفضلاً أن يغرق في الدين على أن يسمح بأتفه شيء من نفائسها ومخلفاتها ، أو يرضى أن تباع في الأسواق .

ورأت أمه ذلك منه فغضبت واستاءت لتصرفه ، ولكنه كان أشد غضباً منها ، فعجبت لهذا التغير الذي طرأ عليه ، ويئست من صلاح أمره فسافرت أخيراً وتركته يفعل ما يشاء .

وبدأ الناس يستغلون ضيقه ليبتزوا منه ما استطاعوا ، فطالبته مدرّسة الموسيقى بأجرة دروس ستة أشهر على رغم أن «إيما» لم تتلق عندها درساً واحداً وإن كانت قد أرته الإيصال ، ولكنها كانت قد اتفقت سراً معها على مطالبته .

وبعث صاحب المكتبة إليه يطالب باشتراك سنة كاملة ، فقد كان كلما دفع ديناً ظن أنه سوف يكون الأخير ، فإذا ديون أخرى تتراكم وتتفاقم .

وذهب هو يطالب مرضاه بحساب قديم ، فكانوا يقدمون إليه كتباً من زوجته وإيصالات بخطها ، فكان يعتذر إليهم بخجل .

وأخذت «فيليسيتيه» بعض ثياب سيدتها فارتدتها ، واحتفظ هو بما تبقّى منها وجعل يتلمّسها في أدراجها باكياً مترحماً .

ولكن لم تلبث «فيليسيتيه» أن فرت ببقية الثياب مع عشيق لها .

وفي تلك الفترة الحزينة تلقى من والدة «ليون» بطاقة تعلن فيها زواج ابنها ، فكتب إليهما مهنئاً وختم كتابه بقوله : «لو كانت الفقيدة حية لسعدت بهذا الخبر وطربت له» .

وفي يوم ، بينما كان يفتش في أرجاء البيت بغير قصد عثر على ورق مطوي ، ففضه وإذا به كتاب «رودولف» كان قد سقط بين الصناديق فبقي حيث سقط . .

ووقف شاحب الوجه يملّي البصر في الكتاب فإذا به يلمح حرف «ر» في أسفل الصفحة الثانية من صفحاته ، فتذكر كيف كان «رودولف» يتلطف إليها وكيف اختفى فجأة عنها .

ولكن رزانة أسلوب الكتاب خدعته فجعل يقول لنفسه :

ـ لعلها كانت علاقة حب بريء بينهما .

إذ لم يكن من أولئك الأزواج الذين يتعمقون في بحث الأشياء ، بل كانت الغيرة عنده متلاشية في عمق حبه .

وحمله الوفاء بالديون المحيطة به إلى بيع أكثر أثاث بيته ، إلاّ مخدعها ، فقد حرص عليه إذ كان يصعد إليه عشاء ليقرب مقعدها من الموقد ويجعل مجلسه قبالته ويجلس ابنته «بيرت» بجانبه .

وتخلى الناس جميعاً عنه ، فلم يعد أحد يزوره ، وقلّت زيارات الصيدلي له حين رقت حاله وأدبرت الدنيا عنه .

ولم يكن قد فتح صوان كتبها ورسائلها بعد .

ولكنه في ذات يوم أدار المفتاح في القفل فانفتح ، وطالعته إذذاك كتب «ليون» جميعاً ، فلم يعد في هذه المرة يخالجه شك أو يساوره ريب ، وجعل يفتش في كل ركن ويبحث في كل زاوية باكياً مزمجراً فاقد الرشد . .

واكتشف أخيراً صندوقاً تهشم بركلة من قدمه فانفتح عن صورة «رودولف» وكتب غرامية .

ودهش الناس أن رأوه محتبساً في بيته لا يرى أحداً ولا يعود مريضاً ، حتى ظن القوم أنه قد اعتكف لينكب على الشراب .

ولكنّ بعض الناس هاج الفضول بهم فذهبوا يطلون من فوق سياج الحديقة ، وما كان أشد دهشتهم إذ رأوا حيالهم رجلاً مهلهل الثياب مستطيل اللحية متقد النظرات هائماً متحباً .

وفي ليالي الصيف جعل يخرج مع ابنته الصغيرة إلى المقبرة ، فلم يكونا يرجعان إلى البيت حتى يغمر الكون ظلام ، وتسود الحلكة ساحة القرية .

وفي صباح يوم مضى إلى سوق «أرجي» ليبيع حصانه وكان كل ما بقي لديه من حطام الدنيا . . فلقي هناك «رودولف» ، فلم يكد أحدهما يلمح الآخر حتى اصفر واضطرب . . وارتبك .

ولم يكن «رودولف» قد حضر المأتم . . أو مشى في الجنازة ، وإنما اكتفى بإرسال تعزية في رق مكتوب . . فوقف يغمغم بضع كلمات اعتذار غير واضحة ولا مسموعة ، ولكنه لم يلبث أن تشجع وزال ما عراه لأول وهلة من الارتباك .

وفي الحانة جلسا متقابلين ، «رودولف» يدخن سيجارة ويتحدث إلى جليسه ، بينما جلس الآخر واجماً غارقاً في تأملاته ، فقد تمثّل «إيما» في تلك اللحظة ، وخيل إليه أنه قد راح يرى شيئاً في ذلك الوجه الذي كانت تحبه . . يا للعجب . . لقد كاد يود لو أنه كان ذلك الرجل .

أمّا هذا فقد جعل يتكلم في شؤون مختلفة ، في الزراعة ، والسائمة ، والأسمدة ، ولكن «شارل» لم يكن يستمع إليه إذ كان شارد اللب ، ذاهب الخاطر مع الخيال ، وقد جعل بين لحظة وأخرى يحدجه بنظرة مغضبة قاسية .

ولاحظ «رودولف» ذلك منه فوقف عن الكلام ، وأمسك عن حديثه .

ولكن «شارل» لم يلبث أن بدا واجماً ، قال :

ـ لست أحمل لك في قلبي أي حقد .

فلم يجد «رودولف» ما يقوله . . بل لقد أرتج عليه فصمت لا يحير جواباً ،

بينما مضى «شارل» يسند رأسه بيديه ويقول بصوت خافت لا يكاد يسمع وبلهجة استسلام لحزن فاجع لا حد له :

ـ نعم ، لم يعد في نفسي عليك أي حقد .

ثم سكت لحظة وعاد يردّد هذه العبارة الجليلة العظيمة ، ولعلها العبارة الوحيدة الرزينة التي فاه بها : «لقد كان كل ذلك من أغلاط القدر!» .

وسمع «رودولف» هذه الكلمة ، وهو الذي وجه ذلك القدر في ذلك الاتجاه ، فظن الرجل طيب القلب بسيطاً ساذجاً ، فسكن جأشه وزالت مخاوفه .

وفي اليوم التالي ذهب «شارل» إلى الخميلة القائمة في بستان بيته ، فاقتعد متكأها ، وكانت خيوط الضياء تنفذ إليه من خلال اللبلاب الموشى عليها ، وأغصان الكروم وفروعه ترسل ظلالها على الحصباء ، وكان الهواء عليلاً معطراً بشذى الزهر ، والسماء صافية الأديم ، وعياسيب النحل تطن وترف على الزنبق الفياح والسوسن المتأرج .

فلم يلبث أن أحس وكأنه قد عاد فتى في ميعة الشباب تسكره فتنة الطبيعة وتكاد تخنقه مشاعر الهوى المنبعثة من أعماق فؤاده الجريح الحزين .

ولما أذنت السابعة مساء جاءت «بيرت» الصغيرة لتناديه إلى العشاء ، ولم تكن رأته طوال ذلك الأصيل . فلمّا بلغت مجلسه ألفت رأسه مستنداً إلى جدار الخميلة وهو مغمض العينين فاغر الفم ممسكاً في يديه بخصلة مستطيرة من شعر فاحم ، فبادرته صائحة فيه :

ـ أبتاه هيا بنا .

ولـمّا لم تسمع جواباً ظنته يلهو معها ، فدفعته برفق فإذا هو يسقط جثة هامدة .

•